# شؤون فلسطينية

١٠٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٠

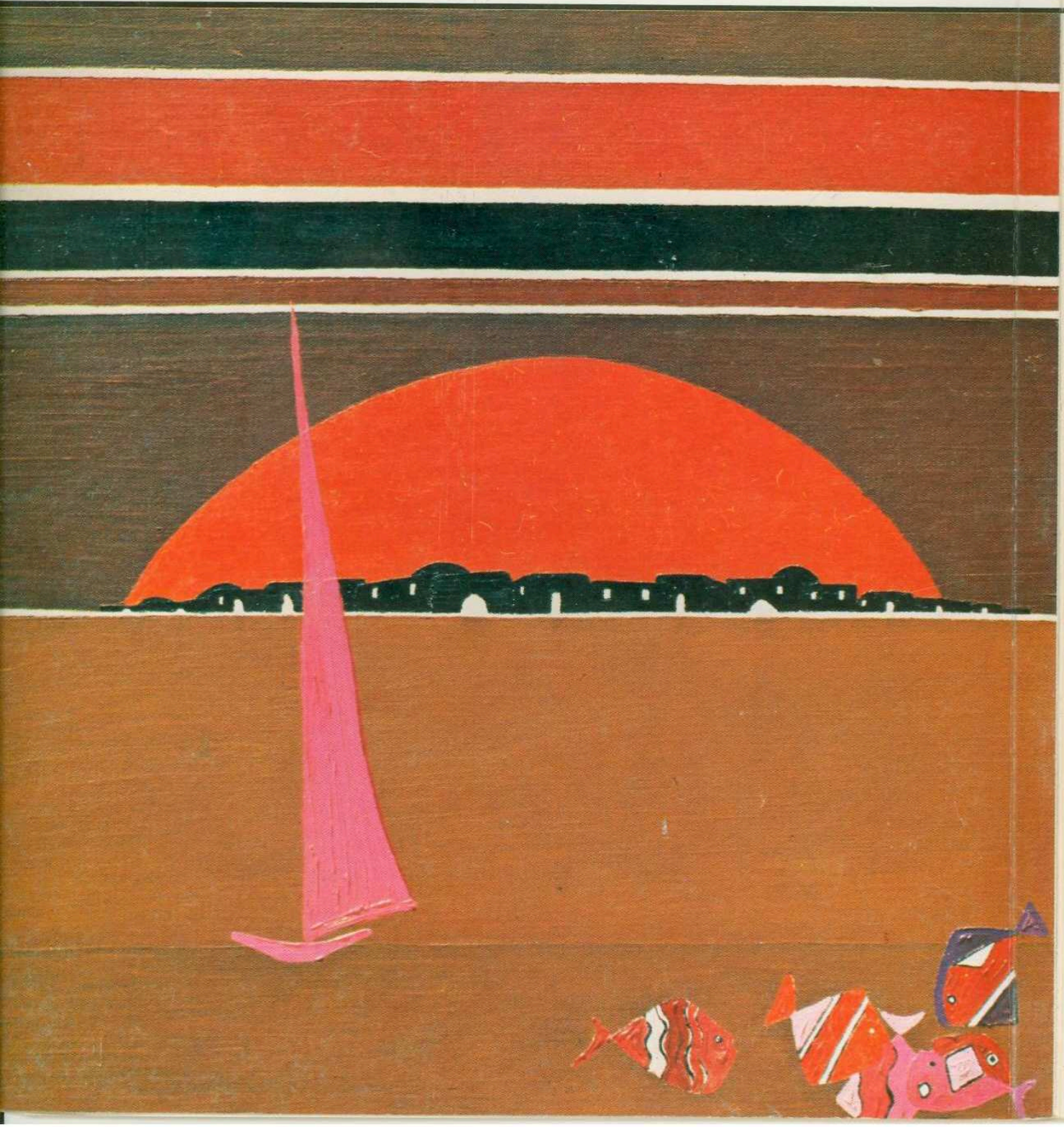

شؤون فلسطينية
١٠٧
تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٠

# شؤون فلسطينية

١٠٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٠

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية



جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين


## المحتويات

الصفحة


| | | |
|---|---|---|
| ٣ | زياد عبد الفتّاح | يا الهي.. لقد كانت حرباً! |
| ٧ | محمود عباس | القدس موحدة.. «عاصمة لاسرائيل». |
| ١١ | روز مصلح | الزراعة في الضفة الغربية: ١٩٦٧-١٩٧٩. |
| ٣٣ | (مقابلة) | فهد القواسمة يتحدث عن تجربته في رئاسة بلدية الخليل وفي العمل السياسي. |
| ٤٩ | جلنار النمس | القضية الفلسطينية والمؤتمرات الاسلامية: ١٩٦٩ - ١٩٧٩ |
| ٧١ | فيصل حوراني | الرفض العربي الرسمي لاسرائيل: ١٩٤٤-١٩٥٠. |
| ٩٤ | عبد الحفيظ محارب | العلاقات بين المنظمات العسكرية الصهيونية خلال الفترة الاولى من الحرب العالمية الثانية... |
| ١٢٠ | فاروق وادي | سقوط زمن الوهم (دراسة في ادب غسان كنفاني الروائي) |

١٥٣ تقارير

١ - **محادثات سياسية ومهنية ناجحة لوفد اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين في برلين وبراغ**، غانم زريقات.

٢ - **مبدأ رابين في ضواحي بيروت**، نبيل هادي.

١٦٢ شهريات

**المقاومة الفلسطينية عسكرياً**، عبد الحميد سالم ابو الفتوح.

**اسرائيليات**، محمد عبد الرحمن.

**قضايا دولية**،سمير كرم.

**رسالة كوبنهاغن**، نعمان كنفاني.

لوحة الغلاف من اختيار الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين، للفنانة **جمانة الحسيني**

**المدير العام**: صبري جريس * **رئيس التحرير**: محمود درويش

**سكرتير التحرير**: فيصل حوراني

**العنوان**: بناية الدكتور راجي نصر، شارع كولومباني (متفرع من السادات) رأس بيروت ـ لبنان، ص.ب. ١٦٩١، تلفون التحرير والتوزيع: ٣٥١٢٦٠، برقيا: مرابحاث، بيروت.

**الاشتراك السنوي** (بريد جوي): ٦٠ ل.ل. في لبنان وسوريا، ٧٥ ل.ل. في سائر الاقطار العربية، ١٠٠ ل.ل. في أوروبا، ١٢٥ ل.ل. في بقية بلدان العالم.

**الاشتراك السنوي** (بريد عادي): ٦٥ ل.ل. في جميع الدول غير العربية.

زياد عبد الفتاح

# يا الهي.. لقد كانت حربا!

كانت عقارب الساعة تقترب من الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، حين لاحظ المقاتل المكلف بالمراقبة في قلعة شقيف ارنون، اشباحا تتحرك في المدى.

جال مقاتل الدورية ببصره، في كل الاتجاهات، على امتداد الدائرة المحيطة، عبر منظاره الليلي، فتأكدت ملاحظته. في لحظة، قلّب الامر على كافة وجوهه، فراوده الشك. ثبّت منظاره في محيط الدائرة وامتداد الافق من جديد. هل يمكن ان يكون الهجوم بهذا الحجم، وما هو الهدف؟ ثم هل هو في اتجاه كل المواقع،وضد كل المواقع، وعلى مختلف الاتجاهات؟! ان الامر يبدو كذلك، بل ان حجم القوات العسكرية الاسرائيلية المهاجمة لا يترك المجال لاحتمالات اخرى. فهناك الدبابات والآليات والعربات الصغيرة، والحوامات التي تحط على البعد وتقذف من جوفها مئات الجنود المدججين بالسلاح. ان هذا كله لا يمكن ان يكون هجوما محدودا، انه هجوم شامل. وبقيت تنقصه الاجابة على السؤال الذي ظل معلقا في ذاكرته، وهو لماذا لم يسمع اي نداء من اي موقع حول الهجوم! ولم يعقد لسانه العجب سوى لحظات قليلة، وصرخ فجأة، بأعلى صوته مناديا قائد موقع القلعة الذي اعلن، في ثوان قليلة، حالة الاستنفار الكامل وزوّد مقاتل الاشارة بالتعليمات اللازمة، وراح هذا، بدوره، يبث نداء بالانتباه الى كافة المواقع القريبة، ونداء آخر الى القيادة العامة يشرح فيها الوضع ويطلب التعليمات؛ لكن سرعان ما ضاع صوت مقاتل الاشارة، بين اصوات القذائف المرسلة من بطاريات العدو الثقيلة المنصوبة داخل الارض المحتلة، وبين اصوات القذائف المضادة من اسلحة المقاتلين في القوات المشتركة، وبينها اصوات طلقات الرشاشات وانفجارات القنابل اليدوية، وقذائف «الآر.بي.جي» التي انطلقت بهمة في كل المواقع، من قلعة شقيف ارنون حتى بلدة ارنون فكفر تبنيت فحرش الشيخ طاهر، تواجه هجوم العدو بقوة وزخم نادرين.

عندما ارسل قائد الموقع في قلعة شقيف ارنون برقيته الاولى الى غرفة عمليات

القيادة، لم يضمنها اشارة واضحة الى حجم القوة المهاجمة. ربما خشي ان يتهم بالمبالغة فآثر الحديث عن هجوم معاد بالاسلحة الخفيفة والمتوسطة والثقيلة، وعن انزال بواسطة الحوامات، لكنه لم يذكر حجم الهجوم. كذلك جميع البرقيات الاخرى التي وردت من المواقع، وحتى من قيادة القوات المشتركة في الجنوب، لم توضح حجم القوات الاسرائيلية المهاجمة. ربما كان انهماك المقاتلين في رد الهجوم، وحماسهم الجارف في التصدي والمواجهة السبب الذي شغلهم عن القيام بتقدير شامل للموقف، ولكثافة القوى المهاجمة. ولان العدو اختار هجومه ليلا، ولان المقاتلين في القوات المشتركة يملكون امكانات محددة فإن الاحاطة الدقيقة بحجم القوات المهاجمة يكون جزافا.

* * *

فجأة، وفيما المعارك تدور رحاها عنيفا ملتهبا، اهتزت اجهزة الاسلكي في كل المواقع لتبث الى المقاتلين في القوات المشتركة، وفي كل المواقع رسالة تحية وتقدير من القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية، وقد اشادت الرسالة ببطولة المقاتلين وبسالتهم، وقدرتهم الخارقة على التصدي للقوات الاسرائيلية المهاجمة. كانت الساعة تقترب من الثانية والنصف فجرا، وكان القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية قد وصل لتوه الى دمشق،قادما من المغرب؛ حيث حضر اجتماعات لجنة القدس. وكان قد قلّب، في لحظات، البرقيات الواردة الى القيادة. ارسل الاخ ابو عمار بصره الى البعيد مخترقا جدار غرفة المكتب المغلقة، وقال بلهجة لا تخلو من عنفوان: «انه هجوم واسع وضخم، وان التصدي له واحباطه لهو معجزه يصنعها مقاتلونا في قلعة الشقيف، وارنون وكفر تبنيت وحرش الطاهر. ان هؤلاء الابطال يلقنون ايتان درسا لن ينساه ابدا...» والتقط قبعته من فوق الطاولة وقال: وهو يحادث احد القادة: «هيا ياشباب» مشيرا الى مرافقيه.

في ساعات الصباح الاولى، لم يكن العدو قد اخلى خسائره بعد، ولم يتمكن من سحب كامل قواته. وكي يتمكن من ذلك شدد من قصفه المدفعي الثقيل بشكل مجنون وصل حتى النبطية، ومحيط دائرة اتسع نطاقه كثيرا من حول منطقة المعارك. وفي الوقت نفسه، ارسل طيرانه الحربي يدك قلعة شقيف ارنون بالصواريخ والقذائف الثقيلة. لقد قاوم الرجال داخل القلعة ببسالة، ومن مدافعهم المتوسطة استطاعوا ان يصدّوا هجوم العدو، كما استطاعوا ان يوقفوا تقدمه، لقد اربكوا العدو حقا كما احبطوا مفاجأته التي كان يسعى الى تحقيقها. وسقط في قلعة الشقيف، عدد من الشهداء. لقد قام طيران العدو، الاميركي الصنع، من طراز ف١٦، بما لم تستطعه الجحافل الاسرائيلية خلال الليل. وفي لحظات، استطاعت هذه الطائرات ايقاع افدح خسائر تم تكبدها في الارواح، خلال المعركة كلها.

وفي اسفل القلعة ايضا، في بلدة ارنون، وحرش الطاهر وكفر تبنيت، قاتل الرجال كما لم يقاتلوا في حياتهم. واجهوا العدو بالرشاشات الخفيفة، من خندق الى خندق، واحيانا بالسلاح الابيض. ان التقارير التي كتبها الضباط الذين اشرفوا على حصر نتائج

المعارك، منذ ساعات الصباح الاولى، تشير الى انه ما من مقاتل الا وقاتل بمعظم ذخيرته، ان لم يكن بذخيرته كلها.

لقد قاتل الفلسطينيون واللبنانيون معا، وقاتل الفلسطينيون واللبنانيون كأعظم ما يكون القتال واعطوا اروع العطاء. وسال الدم اللبناني الفلسطيني ليحفر في الثرى اللبناني اخدودا تتطهر به النفوس، في زمن التردي والانهيار.

شهداء من فتح، شهداء من جيش لبنان العربي وشهداء من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وشهداء من الحزب الشيوعي اللبناني وشهداء من جبهة النضال الشعبي، وشهداء مدنيون لبنانيون. والذين استشهدوا قاتلوا قتالا ضاريا عنيدا حتى الشهادة، والذين لم يستشهدوا، فلسطنيين ولبنانيين، قاتلوا ببسالة نادرة وردوا العدو على اعقابه دون ان يحقق اهدافه.

ولكن لماذا هاجم العدو بهذا الحجم والكثافة؟ كم كانت قواته وما هي اهدافه؟!

في حديث جرى بين الاخ ياسر عرفات واحد معاونيه، عندما كان عرفات عائدا من الجنوب في ساعات الصباح، بعد ان اشرف بنفسه على سير المعارك. قال عرفات: لم يستطع احد حتى الآن، بسبب كثافة القصف وحجم النيران، احصاء عدد القوات المهاجمة، ولكنني اظنها كبيرة للغاية. ولا اشك في ان كبار القادة العسكريين الاسرائيليين قد اشرفوا على العملية، سواء على صعيد التخطيط ام على صعيد المراقبة والتنفيذ. ولكننا، حتى انجلاء الامر، وعلى ضوء التقارير الاولية، يمكن ان نشير الى حجم القوات المعادية المهاجمة فنقدره بكتيبتين.

وفعلا، جرى التعامل مع الهجوم على هذا الاساس، وصدرت التصريحات الفلسطينية تقدر قوات العدو بكتيبتين مجوقلتين فقط. لكن لم تمض بضع ساعات، حتى كانت كافة التقارير تشير إلى ان ما اشترك في الهجوم هو لواء مجحفل يسانده سلاح المدفعية، وسلاح الطيران، ويعاونه في التمويه سلاح البحرية.

وعندما اعلن الناطق العسكري الصهيوني ان اللواء غولاني هو الذي نفذ الهجوم، صاح ابو عمار قائلا:

– يا الهي، لقد كانت حربا، ولقد استطاع ابطالنا في القوات المشتركة انتزاع النصر. ان اسرائيل تفخر بأن لواء غولاني لم يهزم ابدا وها هم مقاتلونا يهزمونه.

* * *

ودون شك، فإن هدف العدو كان احتلال المواقع التي هاجمها، خصوصا قلعة شقيف ارنون التي كان يبغي المكوث فيها بعض الوقت، ولدفع الفدائيين الى الشمال في محاولة لتنفيذ خطة وضع الفلسطينيين في «الاكورديون» التي يقوم على تنفيذها الاسرائيليون والانعزاليون والتي يحاولون ان يستقطبوا جهات اخرى

وكان هدف الهجوم ايضا تحقيق حلقة في مسلسل الابادة المعلنة ضد الشعب الفلسطيني والثورة الفلسطينية، والذي عبر عنه بيغن وعدد كبير من القيادة الاسرائيلية.

كذلك كان هدف الهجوم دفع الجماهير العربية الى حافة اليأس، وتهديد الانظمة، واستثمار التردي والانهيار القائم في المنطقة لتحقيق المزيد من الاهداف الصهيونية في الاستيطان والتهويد واحكام السيطرة. وانه ليس من الصدفة في شيء ان تكون هذه المعركة بعد ساعات من انتهاء اجتماعات لجنة القدس في الرباط للنظر في مواجهة القرار الاسرائيلي بشأن القدس. ان عملية من هذا الحجم تهدف، دون شك، الى اسقاط اي صوت يحاول التصدي لعملية التوحيد الاسرائيلي، وهي رد حتى على مجرد الاجتماع او الاحتجاج.

وهي، اي العملية الاسرائيلية، امعان في التحدي والرد على الامم المتحدة وقراراتها وتوصياتها؛ حيث تمت على مرأى من القوات الدولية التابعة للامم المتحدة، وحيث تخطت القوات الاسرائيلية، بصلف وغطرسة، هذه القوات الدولية.

واخيراً..، ومهما تكن اهداف هذه العملية، فإنها، دون شك، لاقت فشلا ذريعاً.

وانه، في اللحظات الاخيرة لكتابة هذه السطور، القى الجنرال ايتان رئيس اركان حرب الجيش الاسرائيلي خطابا في كريات شمونة «قرية الخالصة» امام حشد من طلاب المدارس، قال فيه «ان حربنا مع الفدائيين مستمرة حتى انهيار احد الطرفين»، مشيرا الى قرار حرب الابادة المتخذ في اسرائيل ضد الشعب الفلسطيني والفدائيين.

غير انه بالنسبة للمعركة، معركة ارنون، فإن الجنرال الاسرائيلي، لم يستطع الا ان يعترف: «بوسعي ان الخص المعركة بالقول، انها كانت عملية ضخمة جداً من نوعها، وهي اضخم عملية نفذناها على الاطلاق في ظروف جغرافية صعبة جدا!! ضد كثير من القواعد، وقد تجاوزت النتائج كثيرا ما توقعنا من «المخربين» ولقد خسرنا ثلاثة عسكريين!! وهي خسارة فادحة».

محمود عباس (أبو مازن)

# القدس موحّدة .. عاصمة لاسرائيل

قول قديم. . جديد. . وعمل قديم جديد. . ودوامة لا تنتهي. «القدس العربية» «القدس الشرقية» . . اهي عربية ام عبرية، اهي ضمن الاراضي التي احتلت عام ١٩٦٧ ام ان «أل التعريف» المفقودة في مشروع كرادون لا تشملها؟ هل اصبح مشكوكا في امرها، في هويتها، في انتمائها، في معالمها وفي تاريخها؟

اهي القدس. . ام اورشليم. . ام يبوس؟ اهي حائط المبكى. . ام قبة الصخرة؟ هل نحن في شك من امرنا. . هل نحن واثقون من حقنا. . من يدري؟..

لقد وحدت اسرائيل، بقرار من حكومتها وكنيستها، القدس منذ عام ١٩٦٨، وطبقت على اهلها قوانينها وانظمتها وشملتهم «بعطفها» السامي تمييزا لهم ولها عن باقي الاراضي المحتلة التي يطيب لها ان تسميها تارة «بالمناطق» وطورا آخر بـ «السامرة ويهودا»، محاولة منها ان تعوّد الالسنة على نطقها والآذان على الاستئناس بها. ومرة بعد مرة، تصبح امرا واقعا؛ وما اكثر ما تعودنا ان نتقبل الامر الواقع. ويبدو ان الزمن كفيل بأن يعودنا ذلك. لان اسرائيل تطلق شعارا ما، وتقرن هذا الشعار بالعمل الدؤوب المستمر. . عندما اعلنت ضم القدس شرعت فورا في بناء الاحياء السكنية فيها، وجاءت بالمهاجرين والمهجّرين ليفوق عدد سكانها اليهود عدد سكانها العرب. . ليصبح فيها ثمانون الفا. . بينما لا يزيد عدد العرب عن سبعين الفا. واليهود في تزايد مستمر والعرب في تناقص مستمر. . والارض تقضم قطعة وراء قطعة، والزحف مستمر، والتهويد متواصل؛ ناهيك عما يحصل في بقايا الضفة والقطاع اللتين نثرت فيهما المستوطنات ضمن خطة امنية واقتصادية وبشرية، جعلت وجود العرب في هذه المناطق امرا يكاد يكون مستحيلا، بعد ان ضيقت عليهم الخناق ومنعت عنهم كل سبل العيش وتحكمت بالماء الذي يشربونه والهواء الذي يتنفسونه.

كل ما نفعله نحن، بيانات شجب واستنكار واعتراض ورفض وينتهي الامر بانتهاء

قراءة هذه البيانات. . منذ وعد بلفور حتى قرار الكنيست الاخير باعتبار القدس الموحدة عاصمة ابدية ثابتة دائمة لاسرائيل ردود فعل بلا فعل. . منفعلين لا فاعلين؛ وما الانفعال الا زبد يذهب جفاء... وما ينفع الناس ليمكثوا في الارض ويثبتوا فيها، ويزيدها واهلها صمودا واصرارا وتشبثا فهو آخر ما نفكر فيه. . اذا فكرنا.

وحتى لا نغمط الناس حقوقهم، ولا نبخسهم اشياءهم، فإن ما قيل في الطائف هو نوع من التفكير، وموقف يبتعد قليلا عن ردات الفعل الكلامية، ليكون اطاراً لتصرف لازم لكنه غير كاف، تصرف لا بد منه، ان صحَّ تنفيذه، فهو نقطة البداية للتفكير الصحيح، ولكنه لا يصح ان يكون خاتمة المطاف. فإذا ما اعتبر كذلك فقد كل قيمة مهما كان مستوى الصرامة والدقة التي سيطبق بموجبها، وحتى لا نسيء فهم ما قيل في الطائف نقول ان اطرافها قرروا، وأيَّدهم من أيَّدهم من العرب، قطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع كل دولة تعترف بقرار اسرائيل بتوحيد القدس باعتبارها عاصمة ابدية لاسرائيل، وكذلك تطبيق نفس الامر على من ينقل سفارته الى القدس. ان كان ما قيل في الطائف هو ما فهمناه، فهذا يعني ان اية دولة ترتكب احدى الحرمتين ستطبق عليها العقوبات حتى لو كانت اميركا هي المرتكبة.. وهنا نفهم قطع العلاقات الاقتصادية، وهي الاكثر اهمية من زميلتها، بمعنى ايقاف تدفق البترول والاموال واستيراد البضائع والخبراء وكل ما تنطبق عليه كلمة اقتصاد. ان صح ما فهمناه فإن اطراف الطائف يستحقون التقدير باعتبارهم بدأوا بداية طيبة، فسنوا سنة تحتذى من كل ذوي الهمم العالية الذين يرغبون في ان يضعوا القطار فوق السكة السالكة. ولكن، ليسمح لنا اطراف الطائف ان نقول بوضوح ان قرارهم هذا لا يحول بين القدس وان تهوّد، ولا يعطي اهلها مصدرا للثبات فيها، ولا يمسح جراح المكلومين والمصدومين والصابرين، وهو لا يسمن هؤلاء ولا يغنيهم من جوع، لان انصياع الدول لقرار الطائف لا يعيد للقدس وجهها العربي والاسلامي،، ولا يزيل الاحياء اليهودية، ولا يعطي اصحاب البيوت المنسوفة ظلا يستظلون به، ولا يقيم اود الجياع من العمال العاطلين عن العمل، ولا يعوض المضربين والمتظاهرين عن اضرابهم وتظاهرهم، ولا يفك اسر المحجوزين والمعتقلين والمسجونين. ان انصياع الدول لقرار الطائف، إن حصل، فهو ضربة سياسية يحسب لها حساب، ولكننا نعرف تماما فلسفة حكام صهيون، ونعرف ما كان يردده السلف والخلف من بن – غوريون وحتى مناحيم بيغن «ليس مهما ما يقوله الاغيار.. المهم ما يفعله اليهود..». اذن فقرار الطائف على المستوى الواقعي والفعلي لا يترجم الى شيء.. ولذلك فهمنا انه لازم ولازم ولازم ولكنه غير كاف. فإذا وقفنا عنده واكتفينا به يكون حالنا كحال قاطع ذنب الافعى والذي يحتاج الى مزيد من الشهامة ليلحق «رأسها الذنبا».

وبعد اعلان الطائف الثنائي المشفوع بتأييدات متفرقة باركته وأبدت استعدادا لتبنيه والعمل بموجبه، جاء اعلان من الطائف آحادي الطرف، اعلان يتحدث عن الجهاد؛ والجهاد في الاسلام، جهاد بالمال وجهاد بالنفس وجهاد النفس. ولن يكون الجهاد بالمال والجهاد بالنفس حقا، ما لم يتحقق جهاد النفس، ومن هنا نرى اعلان الطائف آحادي

الطرف حريًا بالاحتذاء والاقتداء. واعلان الجهاد هو استكمال نظري لمعنى الكفاية، وهو موقف نظري طالما كان ضمن اطار الاعلان للزوم والكفاية، فإن كان الاعلان الاول لازما، فتطبيق الاعلان الثاني كاف. وبه نستكمل شروط الموقف الجهادي في الاسلام، «فقل اعملوا. فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون». وحاشا لله ان يكون مثلنا كمثل من خاطبهم الله سبحانه بقوله: «يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون.. كبر مقتا..» حاشا لله ان يكبر المقت عند الله.

وليس الجهاد في اقتلوهم حيث ثقفتموهم فحسب، بل الجهاد حرب والحرب خدعة والخدعه تأتي عن دراية وعلم، وهي تقع في كل موقع ومكان... تقع حيث يكون لدى العدو نقاط ضعف وثغرات ومثالب ينفذ منها المجاهد كتيار الماء يستغل نقطة هشة في سد ينفذ منها. والمجاهد الذي يرغب في تحقيق الهدف لا يختار نقاط القوة ليصدم بها رأسه فيتهشم.

القتال جهاد، وبذل المال، كبذل عثمان، جهاد، وكلمة حق في موقعها جهاد والتمسك بالارض والوطن جهاد، والدفاع عن العرض جهاد.. ومعرفة العدو حق المعرفة طريق الى الجهاد وتطلع الى النصر.

ان اعلان القدس موحدة وعاصمة لاسرائيل، يعني بكلمة مختصرة تثبيت انسان وتهجير انسان، شخص يأتي ويبقى، وآخر لا بد من ان يرحل... الارض لا تتسع لاثنين «اما.. او». ويبدو ان الحل الوسط مرفوض.. اذن فالمعركة طويلة، ولكنها معركة الصبر المستنير، معركة شد النواجذ على الاصابع، فالمعركة هي معركة الانسان... من يكسب الانسان.. ومن يخسر الانسان.. انساننا متشبث بالارض، وانسانهم قادم الى الارض والتعبير الاكثر دقة ان انسانهم مجرور بسلاسل الى الارض مربوط بها بالاوتاد. ان من يكسب الانسان يكسب الرهان.. كيف نبقي انساننا في الارض ونقطع سلاسل انسانهم ليغادر ويفر من الجحيم الذي اقحم عليه وليس له فيه رغبة. ان «اسرائيل» اليوم اشبه ببركة ماء فيها صنبوران احدهما يصب فيها والآخر يصب منها. ولا نستغرب ان قلنا اننا قادرون على التحكم بكمية المياه التي تصب في هذه البركة او التي تصب منها وخارجها. وبعملية حسابية بسيطة نعرف بالضبط الوقت والساعة التي تخلو فيها البركة من الماء.. ان احسنا الصنع، والامر بيدنا، بما لدى هذه الامة، عربا ومسلمين، من امكانات تكاد تكون مهدورة.

باب الجهاد واسع ومتشعب، يختار منه الانسان ما يناسبه في الزمان والمكان والظروف؛ فاستعمال السيف في غير مكانه كاستعمال القلم في غير مكانه، كوضع السيف موضع الندى.

بيان الطائف الاحادي الطرف، لا يضيره انه آحادي الطرف، ولا ينقص من قيمته ان بقي كذلك. ولكن الذي يحتاجه هو ان يزداد معرفة ودراية في علم «الصنابير»، لان علم «الصنابير» هو علم الرياضيات، فإن اتقنه

واستعمله جاءت النتائج الحتمية، واصبحنا على ارض الواقع، وكان حقا على الله سبحانه نصر المؤمنين. وبذلك يصبح بيانا الطائف لازمين وكافيين، ويصبح واجبا على العرب والمسلمين ان ينتهجوا هذا المنهج يدا واحدة وقلبا واحدا.

روز مصالح

# الزراعة في الضفة الغربية
# ١٩٦٧-١٩٧٩

تعتبر أراضي الضفة الغربية البالغة مساحتها ٥٦٤٢ الف دونم [١] من أصعب مناطق فلسطين للزراعة ، ومن أكثرها كثافة سكانية ؛ حيث أن نكبة سنة ١٩٤٨ أدت الى لجوء عدد كبير من الفلسطينيين الى الضفة الغربية ، مما زاد من الضغط السكاني على الأراضي الزراعية فيها .

وقد بلغت مساحة الأراضي المزروعة ، حسب إحصاء سنة ١٩٥٣ ، ٢,٤ مليون دونم [٢] ، من مجموع ٣,٢ مليون دونم صالحة للزراعة [٣] . منها ٣٢٢ الف دونم أراض مروية أي ما يعادل ١٣٪ من مجموع الأراضي الزراعية [٤] .

وقد انخفضت مساحة الأراضي المزروعة ، منذ سنة ١٩٥٣ وحتى سنة ١٩٥٧ ، حوالى ٢٠٠ الف دونم [٥] ، وبخاصة تلك المزروعة حبوباً ، وزادت ، في الوقت نفسه ، المساحات المزروعة محاصيل تسويقية كالخضار والفاكهة [٦] . غير ان الانتاجية الاجمالية لم تسجل زيادة ثابتة بسبب تذبذب انتاج الزيتون الذي يشكل المحصول الأساسي في الضفة الغربية . فعلى سبيل المثال ، شهدت سنة ١٩٥٧ نقصاً في مجموع انتاج المحاصيل عن سنة ١٩٥٢ يزيد عن ٣٠ الف طن [٧] ؛ حيث انخفض انتاج الزيتون من ٤٩ الف طن ، في سنة ١٩٥٢ ، الى ٩ الاف طن في سنة ١٩٥٧ [٨] ؛ وذلك بالرغم من زيادة عدد الأشجار بحوالى مليون شجرة في الفترة المذكورة [٩] .

وبشكل عام ، فقد حصل انخفاض في المساحات المزروعة ، وبخاصة من الأراضي المروية ، حيث وصلت مساحتها ، سنة ١٩٦٦ ، الى ١١٠ آلاف دونم [١٠] مما أدى إلى انخفاض في انتاج كافة المحاصيل باستثناء الخضار والتبغ ، كما أنه لم يتم تنفيذ مشروع واحد للري في الضفة الغربية بهدف تطوير الزراعة المروية ، مما جعل الانتاج البعلي الغالب على قطاع الزراعة .

وقد كان معظم العاملين في الزراعة ، قبيل الاحتلال الاسرائيلي ، من العاملين لحسابهم وكان الطابع الغالب على الزراعة هو « الفلاحة الصغيرة » ؛ كما أن اكثر من نصف فلاحي قرى فلسطين البالغ عددها ٤٥٠ قرية ، كانوا يملكون حيازات صغيرة . فمن ٦٠٧٥٠ حيازة [١١] كانت ١٦٨١٦ حيازة تقل مساحتها عن ١٠ دونمات ، اي ما يعادل نسبة ٢٧٪ منها و٢٥٤٩٧ حيازة

تتراوح مساحتها ما بين ١٠ ـ ٥٠ دونماً [١٢] ، اي ما يعادل نسبه ٤١,٩ ٪ . أما الحيازات الكبيرة ( ٥٠٠٠ دونم فأكثر ) فلم تزد عن ١٥ حيازة في سنة ١٩٥٣ [١٣] وعن ٣٠ حيازة في سنة ١٩٦٥ [١٤] .

وبالرغم من أن نسبة العاملين في قطاع الزراعة كانت تعادل ٤٠٪ من مجموع العاملين [١٥] ، الا ان نسبة مساهمة هذا القطاع في الانتاج المحلي كانت ٢٦,١ ٪ في سنة ١٩٦٦ ، في الوقت الذي بلغت فيه نسبة مساهمة قطاع الخدمات ٦٠,٥ ٪ [١٦] . كما بلغت نسبة مساهمة الضفة الغربية من اجمالي الانتاج المحلي للمملكة ٣٦٪ ، شكلت نسبة الزراعة منه ٨٪ فقط [١٧] .

وقد أدى عدم تشجيع الاستثمارات في قطاع الزراعة ، الى استمرار الاعتماد على العمل اليدوي المكثف ؛ اذ ظلت الطاقة الحيوانية والجسدية البشرية هي المستخدمة . أما المكننة فكان استخدامها محدوداً . فعلى سبيل المثال ، بلغ عدد التراكتورات ٨٧ تراكتوراً في سنة ١٩٥٧ ، فقط [١٨] ، وبعد عشر سنوات لم يزد العدد عن ١٤٧ [١٩] . كما أن استخدام الاسمدة الكيماوية والطرق الحديثة في الري لم يكن مألوفاً . ولم تكن القروض الممنوحة لهذا القطاع بكافية لتطويره ، حيث لم تزد عن ٣٥٥ الف دينار في سنة ١٩٥٨ [٢٠] ، و٤٦١ الف دينار ، في سنة ١٩٦٦ [٢١] .

وبالرغم من ضعف هذا القطاع ، فقد ساهمت الضفة الغربية باكثر من ٨٠٪ من اجمالي انتاج المملكة من الزيتون ، و٦٥٪ من الخضار ، و٦٠٪ من الفواكه و٣٠٪ من الحبوب [٢٢] .

### العمالة والاستخدام

بلغ مجموع العاملين في قطاع الزراعة في الضفة الغربية ، قبل الاحتلال مباشرة ، ١٣٩٣٣٨ عاملاً ، لا تتجاوز نسبة العاملين الدائمين منهم الـ ٦٤,٧ ٪ ، مما يشير الى بطالة مقنعة في هذا القطاع . كما لم تزد نسبة العاملين بأجر عن ٣٥٪ . وقد شكل الذكور ٧٩,٥٪ من مجموع العاملين ، و٩٣٪ من مجموع العاملين بأجر . أما العاملون الدائمون فهم جميعاً من الذكور باستثناء ١٥٧ عاملة من الاناث كما يبين الجدول ١ .

وتأتي منطقة نابلس في المرتبة الاولى من حيث عدد العاملين في الزراعة ؛ اذ تبلغ نسبتهم فيها ٥٦,٥٪ من المجموع العام للعاملين في الضفة الغربية . وتشكل الاناث العاملات نسبة ٦٨٪ من مجموع الاناث العاملات في قطاع الزراعة في الضفة الغربية . كما تشكل نسبة العاملين بأجر فيها ٦٣٪ من مجموع العاملين باجر . وتنخفض بالمقابل نسبة العاملين لأنفسهم وللأسرة من مجموع العاملين في المنطقة ؛ اذ تصل الى ٦١٪ ، وتبلغ نسبة العاملين الدائمين ٦٥٪ من مجموع العاملين . أما نسبة الاناث العاملات فترتفع عنها في المناطق الاخرى اذ تصل الى ٢٥٪ من مجموع العاملين .

وتأتي منطقة القدس في المرتبة الثانية من حيث عدد العاملين ، وفي هذه المنطقة لم تزد نسبة العاملين بأجر ، وجميعهم من الذكور ، عن ٢٨٪ من المجموع العام ، لذا يشكل العاملون لحسابهم وللأسرة النسبة الكبرى ، اي ٧٢٪؛ بينما تبلغ نسبة هؤلاء في منطقة الخليل ٦٦٪ . أما العاملون الدائمون فترتفع نسبتهم في منطقة القدس ؛ اذ تبلغ ٦٧ ٪ ، وتنخفض في منطقة

الخليل لتصل الى ٦٠٪ . ولا تتجاوز نسبة الاناث في المنطقة الأولى ١٤٪ وفي الثانية ١٦٪ من مجموع العاملين فيهما .

ويبين الجدول ١ أن العاملات من الاناث يعملن بشكل موسمي . فمن مجموع ٢٨٦٣٩ عاملة ، تعمل ١٥٧ عاملة بشكل دائم فقط . كما لا تتعدى نسبة العاملات باجر ١٠,٧٪ من مجموع العاملات ، وهذه النسبة تشكل ٦٪ من مجموع العاملين بأجر فقط .

**الجدول ١**

**العاملون في الزراعة حسب الحالة الاقتصادية وحسب طبيعة العمل** [٢٣] :

| | العاملون في الزراعة | | | العاملون الدائمون | | العاملون بأجر | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | مجموع | اناث | ذكور | مجموع | ذكور | مجموع | ذكور |
| القدس | ٣٦٢٧٤ | ٥١٨٠٨ | ٣١٠٨٦ | ٢٤٢٣١ | ٢٤٢٣١ | ١٠٠٢٩ | ١٠٠٢٩ |
| نابلس | ٧٨٦٩٠ | ١٩٤٧٥ | ٥٩٢١٥ | ٥١٢٦٠ | ٥١١١٢ | ٣٠٥٠٧ | ٢٧٥٢٠ |
| الخليل | ٢٤٤١٤ | ٣٩٧٦ | ٢٠٤٣٨ | ١٤٦٦٦ | ١٤٦٦٦ | ٧٦٢٣ | ٧٥٤٠ |
| مجموع | ١٣٩٣٧٨ | ٢٨٦٣٩ | ١١٠٧٣٩ | ٩٠١٥٧ | ٩٠٠٠٩ | ٤٨١٥٩ | ٤٥٠٨٩ |

وقد انخفض عدد العاملين في الزراعة ، بعد الاحتلال مباشرة ، الى ٢٤٠٠٠ عامل حسب الاحصاء الاسرائيلي لعام ١٩٦٧ . وقد نتج هذا عن تهجير كثير من العاملين من أراضيهم ، اضافة الى التدهور الذي اصاب اقتصاد الضفة الغربية بسبب الحرب ؛ مما ادى الى انتشار البطالة في كافة القطاعات .

وتشير الاحصاءات الاسرائيلية الى أن عدد العاملين في قطاع الزراعة كان ، قبل الحرب مباشرة ، ٢٧٦٠٠ عامل . غير أن هذا الرقم مضلل ؛ حيث انه استند ، الى تعداد القوة العاملة التي شملها الاحصاء الاسرائيلي بعد الحرب ، والتي سبق لها العمل في هذا القطاع قبل الاحتلال فقط [٢٤] . وبالرغم من أن العدد ارتفع في سنة ١٩٦٨ الى ٤٧٨٠٠ عامل ، منهم ١١٦٠٠ عامل باجر [٢٥] ، الا انه ما لبث ان انخفض الى ٤٢٤٠٠ عامل في سنة ١٩٧٠ ، منهم ٨٦٠٠ عامل بأجر فقط، وظل هذا التدهور ، في ظل الاحتلال الاسرائيلي، يرافق قطاع الزراعة، كما يبين الجدولان ٢ و٣ ، الى أن وصل مجموع العاملين في سنة ١٩٧٧ ، بدون مدينة القدس ، الى ٣٠٦٠٠ عامل . أي اقل من ثلث عدد الذين كانوا يعملون في هذا القطاع ، في بداية سنة ١٩٦٧ ؛ كما ان عدد العاملين بأجر ، منهم ، بلغ ٢٥٠٠ عامل فقط وهذا ما يعادل ٨٪ فقط من عددهم الذي كان سنة ١٩٦٧ . ولذلك فإن حجم الضرر الحقيقي لا يظهر برصد الانخفاض في القوة العاملة في الزراعة ، منذ سنة ١٩٦٩ ، كما تحاول ذلك الاحصاءات الاسرائيلية ، انما يظهر بالعودة الى ارقام ما قبل الاحتلال مباشرة .

ويوضح الجدول ٣ أن معظم النقص ، في هذا القطاع ، حاصل في فئة العاملين باجر ؛ وذلك بسبب اضطرار هؤلاء للبحث عن موارد اخرى للعيش ، تمكنهم من الاستمرار في مواجهة الارتفاع الدائم لمستوى المعيشة ؛ وبخاصة أن اصحاب المزارع لم يعد بمقدورهم رفع أجور العاملين . كما أن مشاكل التسويق تكره ، في كثير من الاحيان ، اصحاب الحيازات الصغيرة

على هجر اراضيهم والتوجه للعمل في اسرائيل . وقد انخفضت نسبة هؤلاء ، كما يبين الجدول ٣ ، منذ سنة ١٩٦٨ وحتى سنة ١٩٧٦ ، بمقدار ١٩٪ ؛ لكن الانخفاض كان في الواقع اكبر من ذلك بكثير ، اذا ما أُخذت ارقام ما قبل الاحتلال بعين الاعتبار .

**الجدول رقم ٢**

**العاملون في القطاع الزراعي من مجموع القوة العاملة في الضفة الغربية للسنوات (١٩٧٠ - ١٩٧٧ ) :[٢٦]**

| السنوات | مجموع العاملين | العاملون بالزراعة | النسبة |
|---|---|---|---|
| ١٩٧٠ | ٩٩,٨ | ٤٢,٤ | ٤٢,٥ |
| ١٩٧١ | ٩١,٢ | ٣٦,٦ | ٤٢,٢ |
| ١٩٧٢ | ٩٠,٣ | ٣٤,٣ | ٣٨,٠ |
| ١٩٧٣ | ٨٧,٨ | ٣٠,٠ | ٣٤,٢ |
| ١٩٧٤ | ٩٥,٠ | ٣٦,٠ | ٣٧,٩ |
| ١٩٧٥ | ٩١,٩ | ٣١,٨ | ٣٤,٦ |
| ١٩٧٦ | ٩٢,٦ | ٣١,٣ | ٣٣,٩ |
| ١٩٧٧ | ٩١,٩ | ٣٠,٦ | ٣٣,٤ |

**الجدول رقم ٣**

**العاملون في الزراعة والمستخدمون وارباب المزارع في الضفة الغربية لسنوات (١٩٦٨ - ١٩٧٦)[٢٧]**

| | ١٩٦٨ | ١٩٦٩ | ١٩٧٠ | ١٩٧١ | ١٩٧٢ | ١٩٧٣ | ١٩٧٤ | ١٩٧٥ | ١٩٧٦ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| مجموع ( بالألف ) | ٤٢ | ٤٦ | ٤٢,٧ | ٣٦,٦ | ٣٤,٣ | ٣٠,٠ | ٣٦,٠ | ٣١,٨ | ٣١,٤ |
| أصحاب المزارع | ٣٦ | ٣٥ | ٣٣,٨ | ٢٩,٩ | ٢٨,٧ | ٢٦,١ | ٢٧,٧ | ٢٧,٩ | ٢٨,٩ |
| عاملون باجر | ٦ | ١١ | ٨,٦ | ٦,٨ | ٥,٦ | ٣,٩ | ٨,٣ | ٣,٩ | ٢,٥ |
| نسبة العاملين باجر من مجموع العاملين بالزراعة | ١٤,٢ | ٢٣,٩ | ٢٠,٢ | ١٨,٥ | ١٦ | ١٣ | ٢٣ | ١٢,٢ | ٢٣,٧ |

ويبين الجدول رقم ٤ أن الانخفاض الحاصل في قطاع الزراعة لم يترافق مع زيادة في القوة العاملة ، في القطاعات الاخرى ؛ مما يشير **الى حجم الهجرة** التي عرفتها الضفة الغربية ، في ظل الاحتلال الاسرائيلي . وبالرغم من ان كافة القطاعات قد تضررت ، الا ان قطاع الزراعة كان اكثرها تعرضاً للضرر ، من حيث النقص في القوة العاملة؛ ففي الوقت الذي انخفض فيه عدد

العاملين في قطاع الصناعة ، بقيت نسبتهم ، من اجمالي القوة العاملة ثابتة تقريباً ، اما قطاع الزراعة فقد عانى النقص في عدد العاملين ، فان نسبتهم من اجمالي القوة العاملة قد تراجعت من ٣٨,٧٪ ، في سنة ١٩٧٠ ، إلى ٣٠,٥٪ في سنة ١٩٧٧ . ويتبين ، من مقارنة الجدولين ٤ و ٥ أن النقص في عدد العاملين في الزراعة لم يقابله ارتفاع في عدد العاملين من الضفة الغربية ، في نفس القطاع في اسرائيل ، بعكس قطاعي الصناعة والبناء ؛ مما يشير الى تحول كثير من العاملين في الزراعة الى قطاعات أخرى اكثر مردوداً .

**الجدول ٤**

**توزع العاملين حسب القطاع الاقتصادي في الضفة الغربية لسنوات (١٩٦٩ - ١٩٧٧)[٢٨]**

| | زراعة٪ | صناعة ٪ | بناء ٪ | اخرى ٪ |
|---|---|---|---|---|
| ١٩٦٩ | ٤٧,٨ | ١٥,٢ | ١٢,٠ | ٢٨,٩ |
| ١٩٧٠ | ٤٢,٥ | ١٤,٦ | ٨,٤ | ٣٤,٥ |
| ١٩٧١ | ٤٢,١ | ١٤,٧ | ٦,١ | ٣٩,٠ |
| ١٩٧٢ | ٣٨ | ١٤,٦ | ٧,٢ | ٤٠,٢ |
| ١٩٧٣ | ٣٤,٢ | ١٦,٤ | ٧,٦ | ٤١,٨ |
| ١٩٧٤ | ٣٧,٩ | ١٥,١ | ٧,٠ | ٤٠,٠ |
| ١٩٧٥ | ٣٤,٦ | ١٥,٨ | ٨,٤ | ٤١,٢ |
| ١٩٧٦ | ٣٣,٩ | ١٤,٩ | ١٠,٠ | ٤١,٢ |
| ١٩٧٧ | ٣٣,٤ | ١٥,١ | ١٠,٤ | ٤١,١ |

**الجدول ٥**

**توزع العاملين من الضفة الغربية في اسرائيل حسب القطاع الاقتصادي للسنوات ( ١٩٧٠ - ١٩٧٧ ) [٢٩]**

| السنوات | مجموع بالالف | ٪ | زراعة٪ | صناعة٪ | بناء ٪ | اخرى ٪ |
|---|---|---|---|---|---|---|
| ١٩٧٠ | ١٤,٧ | ١٠٠ | ١٧,٧ | ١٢,٩ | ٥٧,٢ | ١٢,٢ |
| ١٩٧١ | ٢٥,٦ | ١٠٠ | ١٢,٩ | ١٦,٨ | ٥٧,٠ | ١٣,٣ |
| ١٩٧٢ | ٣٤,٩ | ١٠٠ | ١٢,٣ | ١٨,٦ | ٥٦,٨ | ١٢,٣ |
| ١٩٧٣ | ٣٨,٦ | ١٠٠ | ٨,٨ | ٢٠,٧ | ٥٦,٧ | ١٣,٧ |
| ١٩٧٤ | ٤٢,٤ | ١٠٠ | ١٠,٦ | ١٩,٣ | ٥٦,١ | ١٤,٠ |
| ١٩٧٥ | ٤٠,٤ | ١٠٠ | ١٠,٩ | ١٨,٦ | ٥٥,٠ | ١٥,٥ |
| ١٩٧٦ | ٣٧,١ | ١٠٠ | ١٢,٢ | ٢٠,٩ | ٤٩,٦ | ١٧,٣ |
| ١٩٧٧ | ٣٥,٥ | ١٠٠ | ١٢,٧ | ٢٢,٥ | ٤٤,٢ | ٢٠,٦ |

## المساحات المزروعة

أدت السياسة الاسرائيلية الى تقليص المساحات المزروعة وذلك لأن السلطات الاسرائيلية استولت على ٢٨٪ من المساحة الكلية للضفة الغربية[٣٠]؛ منها ٣٦٨ الف دونم أراضي زراعية صودرت بقصد الاستيطان * ؛ وهذه تعادل ٦,٧٪ من مجموع مساحة الضفة الغربية [٣٢] ؛ ومنها ٩٦ الف دونم في الغور تعتبر من أخصب الأراضي الزراعية [٣٣] .

وقد بلغت مساحة الأراضي الصالحة للزراعة عامي ١٩٦٧ و١٩٦٨ ٢٦١٤ الف دونم ، أي بنقص يزيد عن ٦٠٠ الف دونم عن سنة ١٩٥٣ ؛ مما يدل على اهمال كثير من الأراضي الزراعية . واذا ما استثنيت الأراضي غير المزروعة ، والتي تبلغ مساحتها ٥٦٩ الف دونم [٣٤] ، فإن الأراضي المزروعة ، عامي ١٩٦٧ و ١٩٦٨ ، تكون ٢٠٤٥ الف دونم ، انخفضت الى ٢٠٢٠ الف دونم في سنة ١٩٧٤ ، منها ٣٦٢ الف دونم أراضي مستريحة في السنة الأولى ، و٣٨٠ الف دونم في السنة الثانية [٣٥] . وقد بلغت مساحة الأراضي المروية ، في السنة الاولى ، ٥٧ الف دونم ، أما في السنة الثانية فقد ارتفعت الى ٨١ الف دونم كما يبين الجدول ٦ . وفي سنة ١٩٧٦ ، لم تزد مساحة الأراضي المزروعة ، الا أن المساحات المروية بلغت ٨٩ الف دونم ، لكنها لم تصل الى ما كانت عليه في سنوات ما قبل الاحتلال ؛ وذلك لأن معظم الأراضي الزراعية التي تمت مصادرتها هي من الاراضي المروية . ويبين الجدول ٦ نمواً في المساحات المروية ، غير ان الانطلاق من سنتي ١٩٦٧-١٩٦٨ كأساس لدراسة وضع الزراعة في الضفة الغربية ، في ظل الاحتلال ، دون اعتبار ما قبله أمر مضلل . فما يبدو وكأنه تطور يكون ، في الواقع ، تراجعاً ، قياساً بالسنوات السابقة لسنة ١٩٦٧ . ولا تشير الاحصاءات الاسرائيلية ، بعد سنة ١٩٧٢ ، الى مساحة الاراضي الصالحة للزراعة ، وما تأتي على ذكره هو المساحات المستغلة ؛ مما يخفي حجم الاراضي المصادرة ؛ ذلك لأن الكثير من الأراضي الصالحة للزراعة قد تمت مصادرتها . وبهذه الطريقة ، تمنع السلطات الاسرائيلية اية امكانيات لاستثمار هذه الاراضي في المستقبل .

**الجدول ٦**

**الأراضي المستغلة للزراعة والمروي منها ، في الضفة الغربية ، بالألف دونم[٣٦]**

| | ١٩٦٨ | ١٩٧٢ | ١٩٧٤ | ١٩٧٦ |
|---|---|---|---|---|
| مجموع الاراضي المستغلة | ٢٠٤٥,٠ | ٢٠٤٠,- | ٢٠٢٠,- | ٢٠٢٠,- |
| الأراضي المروية | ٥٧,- | ٨٠,- | ٨١,- | ٨٩,- |
| خضروات وبطاطا | ٣١,- | ٥٤,- | ٥٣,- | ٦١,- |
| حمضيات | ٢٤,- | ٢٣,٥ | ٢٤,- | ٢٥,- |
| موز وخلافه ... | ٢,- | ٢,٥ | ٣,٥ | ٣,- |

* وضعت اسرائيل يدها أيضاً على الاملاك الحكومية، وهذه تقدر بنحو مليون دونم. كما صادرت مساحات أخرى بحجة أنها كانت مملوكة قبل سنة ١٩٤٨ من قبل الصندوق اليهودي، إضافة إلى التحايل عن طريق طرف ثالث لشراء بعض الاراضي العربية من اصحابها، وبخاصة من المقيمين في الخارج[٣١].

وفي الأعوام : ١٩٦٨ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٤ و١٩٧٦ كانت نسبة الأراضي المروية تعادل وعلى التوالي : ٢,٧٪ ؛ ٣,٣٪؛ ٤٪ و٤,٤ ٪ .

وهذا اقل مما كانت عليه في سنة ١٩٦٦، واقل بكثير مما كانت عليه سنة ١٩٥٣؛ حيث بلغت نسبة الأراضي المروية من مجموع الاراضي المستغلة ، في تلك السنة ٢٣٪، ويشير الجدول رقم ٧ الى تضاعف الاراضي المروية بالخضروات والبطاطا ، لكن دون زيادة في كمية المياه المستهلكة[٣٧]، فبعد أن كانت في سنة ١٩٦٨ تعادل ٣١ الف دونم ، أصبحت في سنة ١٩٧٦ تعادل ٦١ ألف دونم . أما المساحات المزروعة بالحمضيات والموز فقد أرتفعت نحو ألف دونم فقط لكل منهما ، طوال فترة الأحتلال .

## المحاصيل الحقلية

حصل انخفاض تدريجي واضح في المساحات الحقلية المزروعة ؛ فانخفضت من ١٠٠٣ الف دونم في سنة ١٩٦٨ ، الى ٨٠٠ الف دونم في نهاية سنة ١٩٧٦ . وقد انخفضت بشكل خاص، المساحات المزروعة حبوباً وبخاصة القمح ،وهو المحصول الغذائي الرئيسي الذى انخفضى من ٤٦٥ الف دونم في سنة ١٩٦٨ الى ٣٣٠ الف دونم في سنة ١٩٧٦، اي ما يعادل ٥٨,٥٪ مما كان يزرع من القمح في العام ١٩٥٧ . وهذا يشير الى استمرار سياسة اضعاف القطاع الزراعي . كما انخفضت المساحات المزروعة بالشعير والكرسنة والعدس والسمسم ، حيث بلغت نسبتها على التوالي : ٨٧٪ ، و٤٣٪ و٧٢٪ و٣٧٪ مما كانت عليه سنة ١٩٥٧ ، كما يبين الجدول ٧ .

### الجدول ٧
### توزع المساحات المزروعة في الضفة الغربية
### لسنوات مختارة ، بالألف دونم [٣٨]

| | ١٩٥٧ | ١٩٦٨ | ١٩٧٢ | ١٩٧٤ | ١٩٧٦ |
|---|---|---|---|---|---|
| المحاصيل الحقلية ( مجموع ) | ١٠٣٦,٧٥ | ٨٩٠ | ٨٦٠,٥ | ٧٩٠ | ٦٩٣ |
| قمح | ٥٦٤ | ٤٦٥ | ٤٠٠ | ٤٠٠ | ٣٣٠ |
| شعير | ٢٢٩ | ٢٣١ | ٢٣٠ | ١٨٥ | ٢٠٠ |
| كرسنة | ٩٢ | ٤٨ | ٥٦ | ٥٠ | ٤٠ |
| سمسم | ٢٧ | ١٨ | ٢٥ | ٢٧ | ١٠ |
| عدس | ٦٢,٧٥ | ٦١ | ٦٥ | ٤٤ | ٤٥ |
| حمص | ١٠,٥ | ٣٢,٥ | ٥٠ | ٣٥ | ٢٠ |
| تبغ | ٤,٥ | ٤,٥ | ٦,٥ | ٥ | ٤ |
| مزروعات اخرى | ٤٧ | ٣٠,٥ | ٢٨ | ٤٤ | ٤٤ |
| خضار وبطاطا | ٢٣٩,٥ | ٧٠ | ٨٠ | ١١٠ | ١٠٢ |
| بطيخ وشمام | - | ٤٣ | ١٥ | ٥ | ٥ |
| مجموع | ١٢٧٦,٢٥ | ١٠٠٣ | ٩٥٥ | ٩٠٥ | ٨٠٠ |

أما المساحات المزروعة تبغاً ، فقد ارتفعت بشكل ملحوظ ما بين سنتي ١٩٦٨ و١٩٧١ حيث اصبحت ٦,٥ آلاف دونم في نهاية الفترة المذكورة ، بعد أن كانت ٤,٥ آلاف دونم في بدايتها ؛ غير أنها بدأت بالانخفاض ، منذ سنة ١٩٧٤ ؛ حيث عادت الى وضع مماثل لما كانت عليه قبل الاحتلال .

وبالرغم من النمو الحاصل في المساحات المزروعة بالخضار منذ سنة ١٩٦٨ ، فقد بلغت نسبتها سنة ١٩٧٦ ، ٤٢٪ لما كانت عليه سنة ١٩٥٧ إذ بلغت مساحتها ٢٣٩,٥ الف دونم كما يبين الجدول ٧ . وقد انخفضت المساحات المزروعة بالبندورة، رغم ارتفاع المساحات المزروعة بالخضار ذات العمل الكثيف[٣٩].

أما القثائيات ، فقد شهدت انخفاضاً واضحاً في المساحات المزروعة بالبطيخ والشمام . فبعد أن كانت مساحتها ٤٣ ألف دونم في العام ١٩٦٨ ، انخفضت إلى الثلث في العام ١٩٧٢ ثم إلى الثمن في العام ١٩٧٦ .

وقد حدثت هذه التغيرات لتلائم المتطلبات المستجدة للسوق ، كما أملتها ظروف الاحتلال ؛ حيث شجعت السلطات الاسرائيلية زراعة المواد غير الرئيسية بالقياس لحاجات السكان ، كالتبغ ، مقابل التخلي عن زراعة الحبوب ، كما وجهت المزارعين في الضفة الغربية نحو المحاصيل التي تعتمد على الايدي العاملة والتي يصعب توفرها في اسرائيل . ولذلك ، فقد تخصصت الضفة الغربية ، في ظل الاحتلال الاسرائيلي ، بزراعة الزيتون والحمضيات والخضار والبطاطا ، على حساب الحبوب والقثائيات .

**الاشجار المثمرة :**

حصل ارتفاع في المساحات المزروعة بالأشجار المثمرة ؛ فبعد ان كانت مساحتها في سنة ١٩٦٨/٦٨٠ الف دونم، أصبحت في سنة ١٩٧٦/٨٤٠ الف دونم، كما يبين الجدول ٨ . وهذا ناتج عن زيادة المساحات المزروعة باشجار الزيتون اساساً ، والتي شكلت نسبتها ٧٥,٥٪ من مجموع المساحات المزروعة بالاشجار المثمرة في سنة ١٩٦٨ ، ثم اصبحت في سنة ١٩٧٦ تشكل ٨١,٣٪ . وقد حصل ارتفاع في المساحات المزروعة بالعنب واللوز في مقابل انخفاض في المساحات المزروعة بالتين ، التي تراجعت الى اقل من النصف سنة ١٩٧٣ [٤٠] . أما الحمضيات فقد حافظت على وضعها الذي كان قائماً منذ بداية الاحتلال كما يبين الجدول ٨ .

**الجدول ٨**

**المساحات المزروعة بالأشجار المثمرة في الضفة الغربية ( بالألف دونم ) [٤١]**

| الأشجار المثمرة | ١٩٦٨ | ١٩٧٢ | ١٩٧٤ | ١٩٧٦ |
|---|---|---|---|---|
| مجموع | ٦٨٠ | ٧٢٠ | ٨٠١ | ٨٤٠ |
| زيتون | ٥١٤ | ٥٤٠ | ٦٠٠ | ٦٨٣ |
| عنب | ٥٤ | ٥٦ | ٦٥ | ٧٠ |
| لوز | ٣٤ | ٦٠ | ٦٢ | ٦٣ |
| حمضيات | ٢٤ | ٢٣ | ٢٤ | ٢٥ |
| غيرها | ٥٤ | ٤١ | ٥٩ | ٥٠ |

## الانتاج والتسويق

أدت السياسة الزراعية لاسرائيل في الضفة الغربية ، الى انخفاض في انتاج بعض المحاصيل وزيادة في انتاج البعض الآخر . وتتلخص هذه السياسة في ما يلي :

١ ـ التقليل من تصدير المنتوجات الزراعية للضفة الغربية عن طريق الاردن ، من أجل تحقيق مزيد من الارتباط بالسوق الاسرائيلية .

٢ ـ زيادة انتاجية بعض المحاصيل المناسبة للتصدير لاوروبا ، من أجل الحصول على العملة الصعبة .

٣ ـ التقليل من زراعة المحاصيل التي تحتاج الى كميات كبيرة من المياه .

٤ ـ زراعة المحاصيل التي يحتاجها الاستهلاك الاسرائيلي والتي تعتمد على العمل اليدوي المكثف .

٥ ـ عرقلة زراعة المحاصيل التي يمكن ان تنافس المنتوجات الزراعية الاسرائيلية .

٦ ـ عرقلة زراعة المحاصيل الغذائية الاساسية للسكان في الضفة الغربية كالحبوب ، وتشجيع زراعة المحاصيل التسويقية .

ونتيجة لهذه السياسة ، حصل انخفاض كبير في انتاج البطيخ والشمام الذي كان يعتبر من المحاصيل الهامة للضفة الغربية المصدرة للاردن . فبعد ان بلغ الانتاج، كما يبين الجدول٩ ، سنة ١٩٦٨، ٣٦ طناً، اي ما يعادل ١٦٪ من مجموع الانتاج، تدنّى سنتي ١٩٧٤ و١٩٧٥ الى اربعة اطنان، اي ما يعادل ١٪ فقط من مجموع الانتاج.

وقد لعبت سياسة اثبات المنشأ دوراً في تعطيل تصدير كثير من المنتجات الزراعية ، ودفعت زراعة الضفة الغربية الى مزيد من الارتباط بالاقتصاد الاسرائيلي .

كما أن عملية التصدير للاردن ليست مضمونة الربح دائماً ؛ فقد تطورت الزراعة في الاغوار الاردنية وأصبحت تزاحم مثيلتها في أغوار الضفة الغربية ، اضافة الى عدم حماية صادرات الضفة الغربية الزراعية من قبل السلطات الاردنية ؛ ففي سنة ١٩٧٨ ، استورد الاردن البصل والبطيخ من ايران وتركيا على حساب انتاج الضفة الغربية .

وبذلك اقتصرت الصادرات الزراعية الى الاردن ، بشكل اساسي ، على البندورة والخيار والموز والحمضيات والجوز والبطاطا ، كما يبين الجدول ١١. أما الفواكه التي كانت تعتبر من صادرات الضفة الغربية الاساسية الى الدول العربية ، فقد حظر الاردن بيعها الا في أراضيه ، مما الحق ضرراً بمزارعي العنب في منطقة الخليل بشكل خاص ؛ اذ أن شحنات ضخمة منه كانت مخصصة للسعودية بيعت باسعار « خاسرة » في الأسواق الاردنية [٤٢] . ولم تسمح هذه السلطات بتصدير الفواكه والخضار للاقطار العربية الاخرى الا في نهاية سنة ١٩٧٧ وبداية سنة ١٩٧٨ ؛ حيث بلغت نسبة ما صُدِّر إلى هذه الأقطار حوالى نصف ما صُدِّر للأردن .

ومما يزيد من مشاكل تصدير المنتجات الزراعية للضفة الغربية ، أنه يتم بشكل افرادي ؛ فعلى كل فرد أن يحصل ، وبصعوبات كثيرة ونفقات مرتفعة ، على تصريح يمنحه الحق في تصدير بعض منتجاته ، ولفترات محددة ، مما يكلّف خسائر جسيمة تؤدي في كثير من الاحيان الى العكوف نهائياً عن الزراعة. كما ان صعوبات التفتيش على الجسر الموصل بين ضفتي الاردن، تؤدي الى اتلاف المنتجات الزراعية المصدرة وبخاصة الخضروات والحمضيات.

نتيجة للتعقيدات السالفة الذكر ، في التصدير للاردن ، لم يبق أمام المزارعين ، في الضفة الغربية من خيار سوى التوجه الى السوق الاسرائيلية . وهذا ما يفسر التغيّر السريع الذي حدث في بنية القطاع الزراعي ؛ حيث نمت زراعات معينة على حساب زراعات اخرى ، وادخلت زراعات جديدة لم تكن تزرع من قبل ، دون ان يكون لها علاقة باحتياجات الضفة الغربية . وقد قامت وزارة الزراعة الاسرائيلية ، بالتعاون مع الحكم العسكري ، بتشكيل مجالس زراعية لعبت دور الوسيط بين المزارعين في الضفة الغربية وبين سلطات الاحتلال ، وقدمت اغراءات مختلفة بغرض توجيه الزراعة نحو إنتاج المحاصيل المطلوبة للصناعات الاسرائيلية ، أو المناسبة للتصدير . وفي بعض الاحيان ، كانت تقدم القروض ، وتعطي الفلاحين البذور والاسمدة مجاناً، بغية تنفيذ سياستها الزراعية[٤٣]، التي تعطي الاولوية لزراعه ما يمكن تسويقه وتصديره عبر الشركات الاسرائيلية . فعلى سبيل المثال ، ازدادت انتاجية بعض المحاصيل التي يمكن تصديرها الى اوروبا مثل الخيار والبطاطا والحمضيات بنسبة عالية ، بينما لم يحصل ذلك في انتاج الحبوب. ويبين الجدول ٩ أن انتاج الضفة الغربية من الخضار والبطاطا ، قد تضاعف سنة ١٩٧٣ عما كان عليه في سنة ١٩٦٨ ، ووصل في سنة ١٩٧٦ و١٩٧٧ الى ١٤٩,٤ الف طن ، أي ما يعادل ٤٠٪ من الانتاج الزراعي للضفة الغربية . كما تضاعف انتاج الحمضيات سنة ١٩٧٦ ، عما كان عليه سنة ١٩٦٨ ؛ وفي سنة ١٩٧٦ / ١٩٧٧ اصبح يزيد بمرتين ونصف عما كان عليه في بداية الاحتلال ؛ اي ما يعادل ٢٠٪ من الانتاج الزراعي للضفة الغربية. كما يشير الجدول ١٠ الى تضاعف انتاج الفواكه . أما المحاصيل الحقلية ، فبالرغم من استخدام طرق فلاحة افضل من السابق ، واستبدال محاصيل باخرى وانتشار استخدام الآلات الزراعية واستعمال الاسمدة والمبيدات الحشرية ؛ فإن مجموع انتاجها لم يزد كثيراً ؛ وذلك عائد الى النقص في الاراضي المخصصة لها ، والمروية منها بخاصة ، والى الاعتماد شبه الكلي على مياه الأمطار التي تتفاوت من سنة الى اخرى .

وقد شجعت السلطات الاسرائيلية زراعة المحاصيل التي تعتمد على العمل اليدوي المكثف والتي تحتاجها المصانع الاسرائيلية كالتبغ وقصب السكر والقطن والبندورة والزهور والخيار والفلفل والكمون والبابونج والسمسم. كما ادخلت زراعة الفول السوداني والذرة الحلوة والكرفس والكراوية واليانسون والتوابل[٤٤].

ويبين الجدول ١٠ تطور انتاجية المحاصيل الرئيسية في ظل الاحتلال الاسرائيلي ؛ حيث تراجع القمح ، وهو المادة الغذائية الرئيسية للسكان مقابل نمو المحاصيل التسويقية ، كالبطاطا والبندورة والخيار والبصل والحمضيات والقطن . كما تضاعفت انتاجية الفواكه الشجرية كاللوز والدراق والعنب ؛ وهذه محاصيل غذائية غير أساسية للاستهلاك في الضفة الغربية . فبدلاً من ان يساهم قطاع الزراعة في تحقيق بعض الاستقلالية في اقتصاد الضفة الغربية ، تكيف بطريقة

## الجدول ٩

### الانتاج الزراعي في الضفة الغربية للسنوات ١٩٦٧ - ١٩٧٧ بالالف طن [٤٥]

| السنة | حبوب | خضار | بطيخ وشمام | زيتون | حمضيات | فواكه أخرى | المجموع |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ٦٧/ ١٩٦٨ | ٢٣,٥ | ٦٠ | ٣٦ | ٢٨ | ٣٠ | ٤٧,٩ | ٢٢٥,٤ |
| ٦٨/ ١٩٦٩ | ٢٩,٥ | ٦٠ | ٣٦ | ٢٨ | ٣٠ | ٤٧,٩ | ٢٣١,٤ |
| ٦٩/ ١٩٧٠ | ٤٦,٥ | ٧٣,٤ | ١٤ | ٣٠ | ٣٨ | ٤٩,٦ | ٢٥١,٥ |
| ٧٠/ ١٩٧١ | ٤٦,٣ | ٨٥,٤ | ١٤ | ٣٠ | ٣٨,٦ | ٥٠,٥ | ٢٦٤,٨ |
| ٧١/ ١٩٧٢ | ٥٧,٥ | ١٠٣,١ | ٨ | ٧٠ | ٤٧,٦ | ٥٦,٥ | ٣٤٢,٧ |
| ٧٢/ ١٩٧٣ | ٤٣,٣ | ٩٣,٤ | ٣,٣ | ٢١ | ٥٨,٦ | ٥٨,٩ | ٢٧٨,٥ |
| ٧٣/ ١٩٧٤ | ٦٣,٩ | ١٣٦,٣ | ٤,٢ | ١١٠ | ٦١,٥ | ٦٩ | ٤٤٤,٩ |
| ٧٤/ ١٩٧٥ | ٣٨,٣ | ١٣٩,٩ | ٣,٦ | ١٠ | ٦٣,٨ | ٧٨,١ | ٣٣٣,٧ |
| ٧٥/ ١٩٧٦ | ٣٤,٩ | ١٤٧,٣ | ٤,٥ | ٥٠ | ٧٤,١ | ٧٦,٦ | ٣٨٧,٤ |
| ٧٦/ ١٩٧٧ | ٤١,٨ | ١٤٩,٤ | ٨,٩ | ١٧ | ٧٦,١ | ٧٨,٨ | ٣٧٢,٠ |

## الجدول ١٠

### تطور انتاج المحاصيل الرئيسية في الضفة الغربية[٤٦]

### ( بالالف طن )

| | ١٩٧٠/٦٩ | ١٩٧١/٧٠ | ١٩٧٢/٧١ | ١٩٧٣/٧٢ | ١٩٧٤/٧٣ | ١٩٧٥/٧٤ | ١٩٧٦/٧٥ | ١٩٧٧ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| قمح | ٢٢,٠ | ٣٨,٠ | ٤٥,٠ | ٣٦,٠ | ٥٢,٠ | ٣٠,٠ | ٢٧,٦ | |
| شعير | ١٣,٦ | ١٦,١ | ٢٠,٥ | ١٥,٥ | ٢٧,٥ | - | - | |
| بقول | ٥,٠ | ٥,٥ | ٩,٠ | ٦,٣ | ١٠,٦ | ٧,٢ | ٧,٠ | |
| تبغ | ١,٢ | ١,٢ | ١,٥ | ١,٥ | ١,٧ | ٠,٥ | ٠,٤ | |
| بطاطا | ٤,٦ | ٦,٠ | ٩,٠ | ٩,٠ | ٩,٠ | ١٠,٣ | ١١,٢ | ١٠,٠١ |
| بندورة | ٤٠,٠ | ٣٥,٠ | ٣٦,٠ | ٢٦,٠ | ٤٧,٠ | ٣٥,٥ | ٤٦,٢ | |
| خيار | ٦,٨ | ٧,٣ | ١٢,٠ | ١٢,٠ | ١٦,٣ | ١٥,٢ | ٢٤,٩ | |
| بصل | ٧,٠ | ٧,٠ | ٩,٠ | ١٠,٠ | ١٣,٦ | ١١,٠ | ١١,٥ | |
| حمضيات | ٣٥,٢ | ٣٨,٠ | ٤٥,٠ | ٥٨,٠ | ٦١,٥ | ٦٣,٨ | ٧٤,١ | ٧٦,١ |
| زيتون | ١٥,٠ | ٣٠,٠ | ٧٠,٠ | ٢١,٠ | ١١٠,٠ | ١٠,٠ | ٥٠,٠ | ١٧,٠ |
| عنب | ١٨,٥ | ٢٢,٠ | ٢٨,٠ | ٣٠,٠ | ٤٠,٠ | ٤٢,٢ | ٣١,٣ | |
| دراق | ٣,٥ | ٤,٠ | ٥,٠ | ٦,٠ | ٨,٠ | ١٠,٥ | ١٧,٠ | |
| موز | ٤,٠ | ٤,٠ | ٤,٠ | ٣,٦ | ٤,٣ | ٤,٦ | ٥,٦ | |
| لوز | ٤,٧ | ٥,٠ | ٥,٥ | ٦,٠ | ٣,٠ | ٦,٥ | ٨,٠ | |

تزيد من ارتباطه بالاقتصاد الاسرائيلي ، وأصبحت الضفة الغربية تلبي حاجة السوق الاسرائيلية من حيث توفير المنتجات التي تصعب زراعتها في اسرائيل بسبب ندرة الايدي العاملة فيها ؛ وفي الوقت نفسه تحقق ذلك باسعار متدنية نتيجة لعدم وجود خيار آخر امام المزارعين . فمثلاً ، استطاعت شركة «غريسكو *»لتسويق الخضار ، بما تملكه من امكانيات ودعم حكومي ، أن تفرض اسعارها على انتاج الضفة الغربية من الخضار . وكذلك فعلت شركة « دوييك » المعنية بتصدير التبغ ؛ إذ تعهدت بشراء ١٥٠ طناً من انتاج الضفة الغربية سنة ١٩٧٨ ، ثم اخذت تماطل في استلام الكمية المتفق عليها ، بغرض تخفيض سعر التبغ . وتؤدي هـذه السياسة بالمزارعين الى التحول عن الزراعة ، ويتضح هذا ، من الانخفاض في انتاج التبغ الذي يظهره الجدول ١٠، فبعد ان وصل سنة ١٩٧٤ الى ١٧٠٠ طن تدنى الى ٥٠٠ طن ثم الى ٤٠٠ طن ، في السنتين التاليتين .

وتستهلك سوق الضفة الغربية نسبة قليلة من منتجاتهـا الزراعيـة . ففي سنة ١٩٧٧/ ١٩٧٨ ، ومن مجموع ١٥٠ الف طن من الخضروات والبطاطا ، ثم تسويق ٥١ الف طن محلياً ، ومن مجموع ١٦٣ الف طن من الفواكه والبطيخ والشمام ، استوعبت الضفة الغربية ٢٢ ألف طن ، أي ١٤٪ فقط . ولا يتعدى ما يستهلكه قطاع غزة ومدينة القدس ٧٠٠٠ طن منْ منتجات الضفة الغربية[٤٧]؛ ذلك لان غزة بالأساس منطقة زراعية ، أما القدس فنتيجة للسياسة الاسرائيلية فقد أصبح ارتباطها الاقتصادي بالضفة الغربية محدوداً

## الصادرات والواردات من المنتجات الزراعية

ظلت الاردن، حتى سنة ١٩٧٢، تحتل المرتبة الاولى في لائحة البلدان المستوردة منتجات زراعية من الضفة الغربية ، فقد بلغت قيمة صادرات الضفة للأردن في تلك السنة حوالى ثلاثة اضعاف مجموع صادراتها الزراعية لاسرائيل ، وللدول الاخرى . غير أن القيود التي وضعتها السلطات الأردنية والاسرائيلية على صادرات الضفة الغربية للأردن أدت الى زيادة ما يصدر لاسرائيل ، على حساب ما يصدر للأردن ، كما حصل في السنوات : ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٦ . وقد تأثرت المنتجات الزراعية ، بشكل خاص ، بهذه العراقيل فانخفضت نسبتها ؛ فبعد أن كانت ، في سنة ١٩٧٢ تشكل ٤٢,٥٪ من مجموع المنتجات المصدرة ، تدنت الى ٣٥,٣ ٪ ثم الى ٢٨,٨٪ في السنتين التاليتين ، وحافظت تقريباً على هذه النسبة حتى سنة ١٩٧٦ ، كما يبين الجدول ١١ .

وتعتبر مناطق نابلس وطولكرم واريحا من أهم المناطق المصدرة للمنتجات الزراعية للاردن . فاذا ما استثنينا قطاع غزة من الجدول ١٢ ، فان ما يصدر للأردن من البندورة ، من منطقتي نابلس واريحا ، فقط ، يعادل ٨٩٪ من مجموع صادرات الضفة الغربية من هذا المحصول له . كما تنتج طولكرم ونابلس ٨٠٪ من مجموع محصول الخيار المصدر للأردن ومعظم كميات التوم والبطاطا . وتشكل صادرات اريحا للاردن من الموز ٨٤٪ من مجموع صادرات الضفة من هذا المحصول له .

---

* تأسست هذه الشركة في بدء الستينات وتحتكر تسويق وتصدير جميع المنتجات الزراعية باستثناء الحمضيات.

## الجدول ١١

## الصادرات والواردات والميزان التجاري للمنتجات الزراعية للضفة الغربية للسنوات ١٩٧٢ - ١٩٧٨ [٤٨]

( بملايين الليرات الاسرائيلية )

| | ١٩٧٢ | ١٩٧٣ | ١٩٧٤ | ١٩٧٥ | ١٩٧٦ | ١٩٧٧ | ١٩٧٨ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| الواردات ( مجموع ) | ٤١٣,٥ | ٥٤٢,٥ | ٨٨١,٨ | ١٤٦٣,٤ | ١٩٧٠,٦ | ٢٧٤٢,٨ | ٤٣٥٠,٢ |
| اسرائيل ( مجموع ) | ٣٤١,١ | ٤٨٣,٥ | ٧٩٠,٠ | ١٢٩٧,٣ | ١٧٦٦,٩ | ٢٤٥٩,١ | ٣٧٥٧,٢ |
| (زراعة) | ٥٦,٢ | ٨٤,٠ | ١٢٥,٩ | ٢٠٥,١ | ٢٩٠,٦ | ٤٣١,٢ | – |
| الاردن (مجموع) | ١٨,٩ | ١٦,٥ | ٢١,٣ | ٣١,٤ | ٢٩,٩ | ٤٨,٧ | ٨٧,٥ |
| (زراعة) | ٣,٩ | ٣,٩ | ٣,٤ | ٠,٩ | ١,٥ | ٢,٩ | ٥,٥ |
| دول اخرى (مجموع) | ٥٣,٥ | ٤٢,٥ | ٧٠,٥ | ١٣٤,٧ | ١٧٣,٨ | ٢٣٥,٠ | ٥٠٥,٥ |
| (زراعة) | ١٢,٦ | ٨,٢ | ١٣,٢ | ٤٩,١ | ٧١,٢ | ٧٠,٧ | ٢٤,١ |
| الصادرات (مجموع) | ٢١٦,٤ | ٢٤٢٦ | ٤٠٩,٦ | ٦٩٠,٥ | ٩٨٦,٤ | ١٢٥٠,٩ | ٢٥٦٥,٦ |
| اسرائيل (مجموع) | ١٠٧,٣ | ١٧٤,٧ | ٢٨٧,٣ | ٢٤٢,٢ | ٦١٦,٦ | ٧٧٧,٤ | ١٤٥٧,٢ |
| (زراعة) | ١٤,٤ | ٣٥,٦ | ٥٤,٩ | ٦٦,٣ | ١٠٧,٦ | ١٦٦,٧ | – |
| الاردن (مجموع) | ١٠٧,٣ | ٦٦,٢ | ١١٩,٥ | ٢٢٠,٦ | ٣٤٢,٨ | ٤٦٢,٧ | ١٠٨٥,٠ |
| (زراعة) | ٤٥,٧ | ٢٥,٤ | ١٠,٠ | ٧٠,٧ | ٩٨,٣ | ٢٢٤,٠ | ٤٤٢,٦ |
| مدن اخرى (مجموع) | ١,٨ | ١,٧ | ٢,٨ | ٢٧,٧ | ٢٧,٠ | ١٠,٨ | ٢٣,٤ |
| (زراعة) | – | – | – | ١٨,٦ | ١٨,٨ | – | – |

أما الواردات في المنتجات الزراعية من الأردن فهي محدودة ، اذا ما قيست بما يُستَوْرد من اسرائيل ، فقد بلغت القيمةالمستوردةمن إسرائيل من هذه المنتجات سنة ١٩٧٢ ، ما يزيد على ١٤ ضعفاً ، القيمة المستوردة من الاردن ، وارتفعت سنة ١٩٧٣ الى ٢٢ ضعفاً ، إلى أن وصلت في سنة ١٩٧٥ إلى أكثر من ٢٢٧ ضعفاً . أي أن إسرائيل تحتل المرتبة الأولى في تجارة الضفة الغربية من المنتجات الزراعية على صعيد الصادرات والواردات .

وفي الوقت الذي تحتل فيه الدول الاخرى ( غير اسرائيل والاردن ) المراتب التالية في واردات الضفة الغربية ، يشير الجدول ١١ الى أنه لم يتم تصدير أي من المنتجات الزراعية لهذه الدول الا في سنتي ١٩٧٥ و١٩٧٦. وواضح ان معظم انتاج الضفة الغربية يصدر عبر الشركات الاسرائيلية ؛ ولذلك فلا يظهر الجدول الكميات الحقيقية المصدرة للدول الأخرى .

يتضح مما سبق حجم ارتباط تجارة الضفة الغربية بالاقتصاد الاسرائيلي ، مما يجعلها باستمرار خاضعة وتابعة له . وبذلك تتحكم سلطات الاحتلال باقتصاد الضفة الغربية وتهيمن عليه ويصبح مستقبله مرهونا بالقرار الاسرائيلي .

**الجدول ١٢**
**المنتجات الزراعية المصدرة للاردن في العام ١٩٧٨** (٤٩)
**( بالالف ليرة إسرائيلية )**

| | بندورة | خيار | توم مجفف | موز | حمضيات | جوز | بطاطا |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| مجموع | ٣١,٩٩٤ | ٥٨,٥٤٣ | ٧,٩٧٢ | ١٥,٢٤٢ | ٧٧٩,٤٧٤ | ٨,٨٢٢ | ٨,٣٥٠ |
| ٪ | ١٠٠ | ١٠٠ | ١٠٠ | ١٠٠ | ١٠٠ | ١٠٠ | ١٠٠ |
| جنين | ٢,٠ | ٣.٧ | ٣,٤ | ٠,١ | ٤,٦ | ٤٨,٨ | ٠,٨ |
| نابلس | ٥٨,٦ | ٣٣,٩ | ٧٩,٠ | - | ٩,٢ | ٥٠,٠ | ٥٨,٠ |
| طولكرم | ٨,٠ | ٤٤,٣ | ١٧,٦ | - | ١٢,٩ | ٠,٢ | ٤٠.٦ |
| رام الله | - | - | - | - | - | - | - |
| اريحا | ٢٩,٣ | ١٦,٩ | - | ٨٨,٣ | ٠,٤ | - | ٠,٦ |
| بيت لحم | - | - | - | ٠,٨ | ٠,١ | ١٠ | - |
| الخليل | ٠,٥ | ٠,٢ | - | ٩,٧ | ٠,٢ | - | - |
| قطاع غزة | ١,٦ | ١,٠ | - | ١,١ | ٧٢,٦ | - | - |

## الاستيعاب التكنولوجي

حصل تطور ملحوظ في استخدام المعدات والوسائل الحديثة المختلفة في قطاع الزراعة في الضفة الغربية . ويعود هذا ، أساساً ، الى ارتفاع الطاقة الشرائية لسكان الضفة الغربية

الناتج عن تحويلات العاملين من ابناء الضفة في دول الخليج والاردن ، اضافة الى زيادة مداخيل العمال العرب في اسرائيل ، وهذه تشكل نحو ربع الناتج الاجمالي القومي للضفة الغربية . وقد لعب الانخفاض المستمر لليرة الاسرائيلية دوراً في انفاق الجزء الاكبر من هذه المداخيل في شراء البضائع والسلع الاستهلاكية ، الا ان جزءا منها استثمر في تطوير قطاع الزراعة .

كما أدت هجرة العمال الزراعيين الى نقص في الأيدي العاملة الضرورية للزراعة ، مما جعل ادخال المكننة في الزراعة ضرورياً لحل هذه المشكلة ، وبخاصة أن استخدام الالات أصبح اقل تكلفة من الاعتماد على القوة العاملة .

وقد ساهم اطلاع مزارعي الضفة الغربية على الوسائل والمعدات المستخدمة لزيادة انتاجية قطاع الزراعة في اسرائيل ، بحكم عملهم هناك ، ساهم في نقل هذه المعرفة إلى الضفة الغربية وتطبيقها فيها . ولذلك ، فبالرغم من النقص الذي حصل في المساحات المزروعة ، وبالرغم من المحاولات الاسرائيلية لضرب قطاع الزراعة ، حصلت زيادة ملحوظة في معدل انتاجية الدونم الواحد ، وهذا عائد إلى توافر مستلزمات الانتاج من آلات واسمدة ومواد كيماوية ومبيدات حشرية وتحسين في طرق الري ونوعية البذور واستخدام الغطاء البلاستيكي .

**استخدام الآلة** : تميز قطاع الزراعة ، قبل الاحتلال ، باعتماده على القوة الجسدية ؛ حيث لم يزد عدد التراكتورات المستخدمة ، حتى سنة ١٩٦٧ ، عن ١٤٧ تراكتوراً . الا أن هذا العدد ارتفع بشكل واضح كما يبين الجدول ١٣ فوصل الى ١١٦٠ تراكتوراً سنة ١٩٧٨ . وقد ادخلت آلات حديثة كالحصّادة ، والمحراث الحديث ، والدرّاسة ، وماكنات الرش ، وآلات التسميد . وقد بلغ عدد المزارعين الذين يقتنون هذه الآلات، سنة ١٩٧٨ ، ١٢٢٩ مزارعاً. ويبين الجدول ١٤ توزع الآلات ومالكيها في الضفة الغربية لسنة ١٩٧٨ ، حيث تضم منطقتا جنين والخليل أكثر من نصف المالكين لهذه الآلات .

**الجدول ١٣**

**تطور استخدام التراكتورات والأسمدة في الضفة الغربية** (٥٠)

| السنة | التراكتورات | الاسمدة ( طن ) |
|---|---|---|
| ١٩٦٨ | ١٦٠ | ٤٠٠٠ |
| ١٩٧٠ | ٤٥٥ | ٦٨٠٠ |
| ١٩٧٢ | ٧٤٠ | ٨٠٠٠ |
| ١٩٧٣ | ٨٦٦ | ١١٠٠٠ |
| ١٩٧٤ | ١١٠٠ | ١٤٥٠٠ |
| ١٩٧٥ | ١١٥٠ | ١٢٤٠٠ |
| ١٩٧٦ | ١٢٨٠ | ١٥١٠٠ |
| ١٩٧٨ | ١١٦٠ | - |

## الجدول ١٤
## الآليات الزراعية لسنة ١٩٧٨ (٥١)

| اسم الآلة | جنين | طولكرم | نابلس | رام الله | الخليل | الاغوار | المجموع |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| تراكتور عجل | ٢٩٩ | ١٩٥ | ١١٩ | ١٥٧ | ٣٣٢ | ١٣٥ | ١١٤٧ |
| تراكتور جنزير | ١٠ | – | – | – | – | ٣ | ١٣ |
| كمباين | ٢٤ | ٢ | ٣ | – | – | ٢ | ٣١ |
| مكبس بالات | ٩ | – | ١ | – | – | ٣ | ١٣ |
| حصادة رابطة | ١ | ٢ | – | ٥ | ٦ | ١ | ١٥ |
| محراث سكة | ٢٠٧ | ١٠٦ | ٩٥ | ١٥١ | ٢٧٧ | ١٢٠ | ٩٥٦ |
| محراث قلاب | ٦ | – | – | ٨ | – | ٣ | ١٧ |
| محراث صاج | ٧١ | ٣ | ١٥ | – | – | ٧٤ | ١٦٣ |
| صندوق تسويه | ٧ | – | – | – | – | ٢٤ | ٣١ |
| مشط قرصي | ٤ | – | ٢٠ | ٢٤ | ١٢٦ | ١٧ | ١٩١ |
| كلتيفترات مختلفة | ٣٠٩ | ٢٣ | ٤١ | ٢٠ | ١١٩ | ٥٣ | ٥٦٥ |
| ثلامة | ٩ | – | – | – | ١ | ٥١ | ٦١ |
| سمادة | ٤٥ | – | – | ٦ | ٣ | ٥ | ٥٩ |
| سمادة بالثلم | – | – | – | – | – | – | – |
| ناشرة زبل عضوي | – | ١ | – | – | – | ١١ | ١٢ |
| دوتيفتر | ١ | ١٢ | – | – | – | ١٦ | ٢٩ |
| طوربيدو | ٦ | ١ | – | – | – | ٣٣ | ٤٠ |
| بذارة حبوب | ٢٥ | – | – | – | ١ | ١ | ٢٧ |
| ماكنة زراعة بصل | ٣ | – | – | – | ١ | – | ٤ |
| ماكنة زراعة الحبوب الصغيرة | ٣ | – | – | – | – | ٢ | ٥ |
| ماكنة فرو بلاستيك | ٤ | – | – | – | – | ٦٦ | ٧٠ |
| مرش ٤٠٠ لتر فما فوق | ١٦ | ٢٣ | – | – | ٢٤ | ٤٥ | ١٠٨ |
| مرش ٤٠٠ ليتر ويقتني يوم / رش (من السابق) | ٧ | – | – | – | – | ٩ | ١٦ |
| مرش اقل من ٤٠٠ ليتر | – | ٢ | ١ | – | – | ١٧ | ٢٠ |
| سيف حصاد | ٣ | ٧ | – | – | – | ٥ | ١٥ |
| دراسة | ٨٥ | ٤٤ | ٧٢ | ١١٢ | ١٨٠ | ٤ | ٤٩٧ |
| مرش ظهري والات تعفير | ١٢١ | ٢٨٢ | – | ٦١ | ٨٨ | ٢٦٢ | ٨١٤ |
| عدد المرزاعين الذين يقتنون الاليات | ٣٠١ | ١٨٧ | ١١٧ | ١٥٧ | ٣٣٢ | ١٣٥ | ١٢٢٩ |

**استخدام الاسمدة الكيماوية** : تطور استخدام الاسمدة الكيماوية بشكل ملحوظ منذ سنة ١٩٦٧ ، فبعد ان بلغت الكميات المستخدمة سنة ١٩٦٨ ، ٤٠٠٠ طن ، أصبحت ، كما يبين الجدول ١٣ ، ١٥١٠٠ طن في نهاية سنة ١٩٧٦ . وقد اقيمت وحدة للخدمات الحقلية تحتوي على ثلاثة مختبرات حديثة تتم بها مئات الفحوص للتربة في كل سنة ، لتحديد أفضل مستوى للتسميد [٥٢] . ويعمل بهذه المختبرات المرشدون من المهندسين وخريجي المدارس الزراعية في الضفة الغربية .

**استخدام المبيدات** : يقوم جهاز الارشاد الزراعي الذي يتألف من مئات المرشدين الزراعيين من ابناء الضفة الغربية بتجارب مختلفة من اجل ابادة الافات الارضية والاعشاب الضارة والحشرات. فمثلاً ادت مكافحة ذبابة الزيتون اضافة الى التسميد، الى زيادة انتاجية محصول الزيتون.

غير أن اعتماد الزراعة في الضفة الغربية على مياه الأمطار يجعل الافادة من هذه التحسينات محدودة .

**تحسين البذور** : جرت محاولات مختلفة لتطوير نوعية المحصول الزراعي ، من خلال تحسين نوعية البذور . فعلى سبيل المثال ، ادخلت زراعة اصناف خاصة من البصل بعضها للتصدير والبعض الاخر للبذور ، كما ادخلت زراعة اصناف من الحنطة والشعير تصلح للمناطق القليلة الامطار [٥٣] . وقد تميزت البذور المستخدمة للزراعة في الضفة الغربية بانتاجية عالية كماً ونوعاً وبمقاومة عالية للآفات [٥٤] . ومن الملاحظ ان الجهود تركزت على تحسين بذور الاصناف المعدة للتصدير والتي تستفيد منها بشكل خاص الشركات الاسرائيلية .

**استخدام الزراعة المروية والمغطاة** : بالرغم من انه لم تحصل زيادة ملحوظة في كميات المياه المستخدمة في الزراعة ، ولا في المساحات المروية ، الا ان المزارعين في الضفة الغربية قد بدأوا باستخدام طرق حديثة للري ، مثل الري بالرشاشات والتنقيط والتلم الطويل ، عوضاً عن الطرق البدائية التي كانت تعتمد على القنوات وتسبب هدراً في كميات كبيرة من المياه . وقد اقيم اكثر من ٧٠ خزاناً، بهدف تحقيق ضغط عال مناسب لمثل هذا النوع من الري يصل الماء اليها عبر قنوات اسمنتية ، ويخرج منها في انابيب الى الأرض حسب حاجة المزروعات [٥٥] . الا أن السياسة المائية الاسرائيلية ، في الضفة الغربية ، أدت الى الغاء دور هذه الخزانات وحرمت المزارعين من استثمارها والاستفادة منها ، كما حصل في مناطق العوجا وبردلى وفروش بيت دجن والفارعة . فبعد أن استثمرت مبالغ ضخمة على شكل موتورات وانابيب قامت السلطات الاسرائيلية بحفر آبار عميقة قريبة من الينابيع والابار الارتوارية التي تستعين منها هذه المناطق مما ادى الى جفاف معظم بساتين الموز والحمضيات هناك [٥٦] .

وقد ادخل المزارعون في الضفة الغربية طرقاً حديثة لإطالة فترة تسويق خضرواتهم ؛ فاستخدموا الغطاء البلاستيكي لتحقيق ذلك . وقد اتسعت الزراعة المغطاة من خمسة دونمات سنة ١٩٦٨ ، الى اكثر من ٧٥٠٠ دونم سنة ١٩٧٦ [٥٧] . وأُدخلت انواع جديدة من الخضروات المناسبة للتصدير وذات الإنتاج الوفير كما استخدم الغطاء البلاستيكي في الأراضي

البعلية لتطوير زراعة محاصيل معينة مثل الشمام ، كما ادخلت طرق علمية حديثة لتحسين الموسم الصيفي تُمكِّن المزارعين من الحصول على انتاج أفضل ، وفي وقت مبكر ؛ وذلك بواسطة فلاحة الأرض في الاوقات الملائمة ومن ثمَّ يتم تجهيزها على شكل مصاطب وتُعمل فيها اثلام يُوضع فيها السماد ، وتغطى بالبلاستيك قبل موعد الزراعة، فتمنع التغطية تبخر الماء عن سطح الأرض ، كما تساعد على رفع درجة الحرارة داخلها مما يمكن الشتلات من النمو في وقت مبكر (٥٨) .

## الزراعة والإنتاج الاجمالي المحلي والقومي

تتّسم مساهمة قطاع الزراعة في الانتاج المحلي الاجمالي للضفة الغربية بالتذبذب ، وهي ، مقارنة بمساهمة قطاع الصناعة ، مرتفعة ؛ وذلك التذبذب يعود الى اعتماد هذا القطاع ، اساساً ، على مياه الامطار ، كما مر معنا . ويعتبر الزيتون الذي يشكل نحو ٢٥ ـ ٣٥٪ من مجمل الانتاج الزراعي اكثر المحاصيل تأثراً بالتقلبات الجوية ؛ ولذلك فان انخفاض الانتاج من هذا المحصول او ارتفاعه ينعكس على مجمل مساهمة قطاع الزراعة في الانتاج الاجمالي المحلي . ويبين الجدول ١٥ مدى التذبذب من سنة لاخرى. في الوقت الذي بقيت فيه مساهمة

**جدول رقم (١٥)**

**الاهمية النسبية للقطاعات الاقتصادية في الانتاج المحلي الاجمالي للضفة الغربية (بالاسعار الجارية)** (٥٩)

| القطاع | الزراعة،الغابات،الاسماك | الصناعة | البناء | الخدمات العامة | مجموع |
|---|---|---|---|---|---|
| ١٩٦٦ | ٢٦,١ | ٨,٧ | ٤,٧ | ٦٠,٥ | ١٠٠,٠ |
| ١٩٦٨ | ٣٦,٦ | ٨,٣ | ٣,٥ | ٥١,٦ | ١٠٠,٠ |
| ١٩٦٩ | ٤٠,٢ | ٨,٧ | ٥,٣ | ٤٥,٨ | ١٠٠,٠ |
| ١٩٧٠ | ٣٤,٤ | ٩,٣ | ٦,١ | ٥٠,٢ | ١٠٠,٠ |
| ١٩٧١ | ٣٦,٣ | ٩,٦ | ٦,٨ | ٤٧.٣ | ١٠٠,٠ |
| ١٩٧٢ | ٣٦,٨ | ٨,٢ | ٨,٥ | ٤٦,٥ | ١٠٠,٠ |
| ١٩٧٣ | ٣٤,٦ | ٨,٤ | ١٠,٤ | ٤٦,٦ | ١٠٠,٠ |
| ١٩٧٤ | ٤٤,٥ | ٨,١ | ١١,٣ | ٣٦,١ | ١٠٠.٠ |
| ١٩٧٥ | ٣٠,٣ | ٨,٤ | ١٥,٥ | ٤٥,٨ | ١٠٠,٠ |

قطاع الصناعة، تقريباً ثابتة. ولدى مقارنة معدل مساهمة الزراعة في الانتاج المحلي للسنوات (١٩٦٨ – ١٩٧٢) وللسنوات (١٩٧٣ – ١٩٧٧) نجد تراجعاً من ٣٧,٥٪ الى ٢٥,٩٪. ويبين الجدول انه لم يحصل نمو في قطاع الخدمات، اما القطاع الوحيد الذي ارتفعت مساهمته في الانتاج المحلي الاجمالي فهو قطاع البناء. ويشير هذا إلى استمرار انخفاض مساهمة قطاع الزراعة في اقتصاد الضفة الغربية.

**الجدول رقم (١٦)**

**نسبة مساهمة الزراعة في الانتاج الاجمالي المحلي والقومي للضفة الغربية بالاسعار الجارية[٦٠]**

| السنة | النسبة من الانتاج المحلي | النسبة من الانتاج القومي |
|---|---|---|
| ١٩٦٨ | ٣٦,٦ | ٣٤,٩ |
| ١٩٦٩ | ٤٠,٢ | ٣٦,٩ |
| ١٩٧٠ | ٣٤,٤ | ٢٦,١ |
| ١٩٧١ | ٣٦,٣ | ٢٩,٣ |
| ١٩٧٢ | ٣٦,٨ | ٢٨,٤ |
| ١٩٧٣ | ٣٤,١ | ٢٦,٠ |
| ١٩٧٤ | ٤٤,٥ | ٢٥,٢ |
| ١٩٧٥ | ٣٠,٣ | ٢١,٨ |
| ١٩٧٦ | ٣٤,٢ | ٢٦,٢ |
| ١٩٧٧ | ٢٧,٨ | ٢١,٠ |

ويبين الجدول ١٦ حدوث انخفاض في نسبة مساهمة قطاع الزراعة في الانتاج الاجمالي القومي ، فبعد ان كانت تشكل حوالى ٣٥٪ . في بداية الاحتلال ، وصلت الى ٢١٪ في سنة ١٩٧٧ . وتنخفض مساهمة الزراعة في الانتاج القومي عنها في الانتاج المحلي بسبب ارتفاع المدفوعات من الخارج ، وبسبب زيادة دخل العاملين من الضفة الغربية في اسرائيل والتي تصل الى ربع اجمالي الانتاج القومي . وبذلك تتراجع أهمية قطاع الزراعة بالنسبة لمساهمته في اجمالي الدخل القومي للضفة الغربية فيأتي في المرتبة الثالثة بعد قطاع الخدمات والتحويلات من الخارج . وهما قطاعان غير ثابتين ؛ وهذا الوضع يزيد من عدم استقلالية اقتصاد الضفة الغربية وارتباطها بالاقتصاد الاسرائيلي .

**خاتمة**

يتضح مما سبق أن قطاع الزراعة كان أكثر القطاعات الاقتصادية تضرراً في الضفة الغربية نتيجة للاحتلال الاسرائيلي؛ اذ فقد اكثر من ثلثي العاملين فيه، معظمهم اضطر للهجرة إلى الخارج، وما تبقى تحول للعمل إما في القطاعات الاخرى واما في اسرائيل.

وقد أدت العراقيل الموضوعة أمام تسويق المنتجات الزراعية عن طريق الجسور ، وضيق السوق المحلية ، الى تحول في زراعة الضفة الغربية يتناسب وحاجات الأسواق الاسرائيلية. فنمت ، بخاصة ، الزراعة التي تعتمد على العمل اليدوي المكثف ، وذلك لأن الزراعة في اسرائيل تختصّ بانتاج المحاصيل التي تعتمد على المكننة والرأسمال الكثيف ؛ وهذا الوضع مشابه للوضع الذي هيمن على صناعة الضفة الغربية ؛ حيث أصبح معظمها يعمل لصالح الشركات والمصانع الاسرائيلية [٦١] . وكما هو الحال في قطاع الصناعة ، فقد نمت الزراعة التي يمكن تصدير محاصيلها كالخضار والبطاطا والحمضيات ، والتي تحتاجها المصانع الاسرائيلية

كالتبغ وقصب السكر والقطن والزهور والخيار والفلفل . كما ادخلت مزروعات جديدة مثل الفول السوداني والذرة الحلوة والكرفس والكراوية واليانسون والتوابل . وبالمقابل ، تراجعت مزروعات اساسية كالحبوب ، وأخرى كانت من اهم ما يصدر للاردن كالبطيخ والشمام .

وبتحول الضفة الغربية الى انتاج محاصيل تسويقية يصدر معظمها للأسواق الاسرائيلية ، أو عبر الشركات الاسرائيلية للخارج ؛ يصبح استهلاك الضفة الغربية من المنتجات الزراعية والرئيسية منها بخاصة ، معتمداً على ما يستورد من اسرائيل أو بواسطتها . وهكذا تصبح الضفة الغربية مرتبطة بالاقتصاد الاسرائيلي ليس بسبب صعوبات التصدير فقط ، وانما نتيجة للأخيار في الاستيراد ايضاً . وفي الوقت الذي تعتمد فيه المنتجات المصدرة من الضفة الغربية لاسرائيل على العمل اليدوي المكثف ، وتباع باسعار رخيصة ، فإن ما يستورد من اسرائيل والذي يعادل ضعف ما يصدر اليها من الضفة الغربية ، يعتمد على الرأسمال المكثف ويكون عادة مرتفع التكاليف . وبذلك يتحول قطاع الزراعة ، من عامل كان من الممكن أن يساهم في استقلال نسبي لاقتصاد الضفة الغربية ، الى وسيلة أخرى يستخدمها الاحتلال للسيطرة عليه .

وهنا ، تأتي **أهمية فتح الجسور أمام منتجات الضفة الزراعية** ، فإن مثل هذا العمل يعطي فرصة للمزارعين كي يسوّقوا محاصيلهم ، مما يخفف من تحكم السيطرة الاسرائيلية بمصائرهم ؛ كما أنه يعطي الفرصة لزراعة أنواع أخرى غير تلك التي تفرضها سلطات الاحتلال . وهذه مسألة هامة ، وبخاصة في هذه الفترة التي أدت فيها السياسة الاسرائيلية الجديدة الى ايقاف المساعدات والقروض المعطاة للمزارعين ؛ مما يشكل ضربة جديدة لزراعة الضفة الغربية ، هذه الضربة التي سوف ينتج عنها هجرة جديدة للأرض .

ولذلك ، يعتبر **من الضروري تعزيز صمود المزارعين في أرضهم** ، ويمكن أن يتم ذلك من خلال **تدعيم الجمعيات التعاونية الزراعية** القائمة حالياً في الضفة الغربية ، **وتشجيع انشاء تعاونيات جديدة** تقوم بتوزيع القروض والمساعدات للمزارعين . كما يمكن ان تقوم هذه الجمعيات بدور فعال في تسويق المنتجات الزراعية للأردن ، خصوصاً اذا ما اعتبرت مرجعاً في اثبات منشأ هذه المنتجات .

---

(١) المملكة الأردنية الهاشمية، وزارة الاقتصاد الوطني، دائرة الاحصاءات العامة، «**النشرة الاحصائية السنوية ١٩٥٧**»، عمان، المطبعة الوطنية، العدد الثاني، بيان رقم ١، ص ٦٦.

(٢) **المصدر نفسه**، بيان (ن - ٤)، ص ٦٨.

(٣) جميل هلال، «**الضفة الغربية، التركيب الاجتماعي والاقتصادي (١٩٤٨ - ١٩٧٤)**»، بيروت، مركز الابحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٤، ص ١٧.

(٤) **النشرة الاحصائية السنوية، ١٩٥٨**، ص ٩١.

(٥) عنان العامري، «**التطور الزراعي والصناعي الفلسطيني، (١٩٠٠ - ١٩٧٠)**» (بحث احصائي)، بيروت، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٤، ص ٤٤.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٤٥.

(٧) **المصدر نفسه**.

(٨) **النشرة الاحصائية السنوية ١٩٥٧**، جدول (ن - ٢٣)، ص ٨٧.

(٩) عنان العامري، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٤.

(١٠) «The Israeli Administration in Judia and Samaria», *The Israeli Economist*, 1968, Vol. xxiv, p. 280.

(١١) «**النشرة الاحصائية ١٩٥٧**»، بيان (ن ٣)، ص ٦٧.

(١٢) **المصدر نفسه**.

(١٣) **المصدر نفسه**.

(١٤) جميل هلال، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٧.

(١٥) The Ministry Government's Civil Administration, *A Concise Comprehensive Survey, June 1967- June 1978*, The Ministry of Defense, Tel Avive, p. 1.

(١٦) جميل هلال، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٨.

(١٧) **المصدر نفسه**، ص ١٤٩.

(١٨) «**النشرة الاحصائية السنوية ١٩٥٧**»، جدول (ن ـ ٣١) ص ٩٤.

(١٩) Hisham M. Awartani, *West Bank Agriculture. A New Outlook*. Research Bulletin No 1., Nablus, 1978, p. 17.

(٢٠) «**النشرة الاحصائية السنوية ١٩٥٨**» جدول ٧٣، ص ١٠٦.

(٢١) جميل هلال، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٣.

(٢٢) وزارة الثقافة والاعلام «**القطاع الزراعي**»، عمان، دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦٩، ص ١٢٠.

(٢٣) دائرة الاحصاءات العامة، «**السكان والعمالة في القطاع الزراعي ١٩٦٧**»، عمان، مطبعة دائرة الاحصاءات العامة، جدول رقم ٥، ص ٤٥؛ وجدول رقم ٤، ص ٤٤.

(٢٤) *Central Bureau of Statistical Abstract of Israel 1969. (SAL)*, No *206*, Table x / 7, p. 637.

(٢٥) *SAI 1970*, No 21, Table x / 10, p. 633.

(٢٦) *SAI 1078*, Table xxvii / 22 . p. 788.

(٢٧) موشي ليفي، «**تطور الزراعة في منطقة يهودا والسامرة من سنة (١٩٦٧ ـ ١٩٧٦)**»، ص ٧.

(٢٨) أرقام *SAI 1978*, Table xxvii 122, p. 788 سنة ١٩٦٩ من: *SAI 1970*, Table x 112, p. 635.

(٢٩) *SAI 1978*, Table xxvii / 22, p. 788.

(٣٠) الجمعية العلمية الملكية، الدائرة الاقتصادية، **بعض مصادر الضفة الغربية. ما تعنيه للاقتصاد الاسرائيلي**، عمان، ١٩٧٩، ص ٦.

(٣١) **المصدر نفسه**، ص ٨ و«**الأرض**»، «الزراعة في الضفة الغربية وقطاع غزة»، دمشق، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، العدد ٢٠، ١٩٧٩، ص ٢٨.

(٣٢) **المصدر نفسه**.

(٣٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٩.

(٣٤) *SAI 1972*, Table xxvii / 24, p. 665.

(٣٥) قيادة منطقة الضفة الغربية، وزارة الزراعة، «**الزراعة بالضفة الغربية ١٩٧٦**»، ص ٤.

(٣٦) الأرقام للسنوات ١٩٦٨ و١٩٧٦، مأخوذة من «**الزراعة بالضفة الغربية ١٩٧٦**»؛ ما ارقام سنتي ١٩٧٢ و١٩٧٤ فمأخوذة من «**الزراعة بالضفة الغربية ١٩٧٢**» و«**الزراعة بالضفة الغربية ١٩٧٤**».

(٣٧) موشي ليفي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥.

(٣٨) ارقام سنة ١٩٥٧ من «**النشرة الاحصائية السنوية ١٩٥٧**»، جدول (ن ـ ١٨)، ص ٨٢؛ وبيان (٥ ـ ٢٤)، ص ٨٨.

وأرقام سنتي ١٩٦٨ و١٩٧٤ من «**الزراعة بالضفة الغربية ١٩٧٤**»، ص ٦؛ وارقام سنة ١٩٧٢ من «**الزراعة بالضفة الغربية ١٩٧٢**»، ص٧؛ ما ارقام سنة ١٩٧٦ فمن «**الزراعة بالضفة الغربية ١٩٧٦**»، ص ٦.

(٣٩) موشي ليفي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥.

(٤٠) **الزراعة بالضفة الغربية**.

(٤١) الارقام لسنتي ١٩٦٨ و١٩٧٦ من «**الزراعة بالضفة الغربية ١٩٧٦**»، ص ٧؛ ولسنتي ١٩٧٢ و١٩٧٤ من «**الزراعة بالضفة الغربية ١٩٧٤**»، ص ٥.

(٤٢) « ر . إ . إ » ، ٧ آب ١٩٧٧.

(٤٣) جميل هلال ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٤.

(٤٤) موشي ليفي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦.

(٤٥) الارقام للسنوات (١٩٦٧ ـ ١٩٧٢) من: *SAI 1974*, Table xxvi / 26, p. 708؛

وللسنوات (١٩٧٣ ـ١٩٧٥)فمن *SAI 1975*, Table xxvii / 26, p. 710؛

وللسنوات (١٩٧٥ ـ١٩٧٧) فمن. *SAI 1978*, Table xxvii / 26, p. 793.

(٤٦) الارقام للسنوات ١٩٧٠، ١٩٧٥، ١٩٧٦ من: «**الزراعة بالضفة الغربية ١٩٧٦**»، ص ١٤ : أما الارقام للسنتين: ١٩٧١ و١٩٧٢ فمن: «**الزراعة بالضفة الغربية ١٩٧٢**»، ص ١١.

(٤٧) Israel Central Bureau of Statistics, *Administered Territories Statistics Quarterly,* Jerusalem, 1978, No 4, Table F / 1, p. 37.

(٤٨) الارقام للسنوات (١٩٧٢ ـ ١٩٧٤) من: *SAI 1975,* Table xxvi / 12, p. 643؛ اما الارقام للسنوات (١٩٧٥ ـ ١٩٧٧) فمن: *SAI 1978,* Table xxvii 11, p. 773؛ ولسنة ١٩٧٨ فمن: *Administered Territories..., 1978,* No 4, table C11, p. 6.

(٤٩) *Administered Territories.../ 1978 No 4, Table c / 7, p. 17.*

(٥٠) «**الزراعة بالضفة الغربية ١٩٧٤**»؛ «**الزراعة بالضفة الغربية ١٩٧٦**»؛ «**الجدول رقم ١٤**» من هذه الدراسة.

(٥١) قيادة منطقة يهودا والسامرة، وزارة الزراعة، البحث والارشاد الزراعي، «**احصاء الالات الزراعية لسنة ١٩٧٨، ١٩٧٩**»، نشرة احصائية رقم ٢١٦.

(٥٢) موشي ليفي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧.

(٥٣) **المصدر نفسه**، ص ١٢.

(٥٤) Hisham M. Awartani, *West Bank Agriculture: A New Out look,* Al-Najah National University, Nablus, 1978, Research Bulletin No. 1, p. 18.

(٥٥) موشي ليفي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥.

(٥٦) لمزيد من التفاصيل حول السياسة الاسرائيلية تجاه المياه في الضفة الغربية، راجع روز مصلح، «اسرائيل ومصادر المياه في الضفة الغربية»، **شؤون فلسطينية**، بيروت، مركز الابحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٠، العدد ١٠٣، ص ١٦ ـ ٢٧.

(٥٧) ليفي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥.

(٥٨) **المصدر نفسه**.

(٥٩) نسب سنة ١٩٦٦ من: جميل هلال، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٨؛ أما السنوات الاخرى فمن الجمعية العلمية الملكية، الدائرة الاقتصادية، «**اقتصاديات المناطق المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ١٩٦٨/ ١٩٧٩**»، عمان، ١٩٧٧، جدول رقم ١٢.

(٦٠) *Administered Territories St..., 1978,* No 2. Table 7, p. 71.

(٦١) راجع روز مصلح، «الصناعة في الضفة الغربية ١٩٦٧/ ١٩٧٩». «**شؤون فلسطينية**»، بيروت، مركز الابحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٠، عدد ٩٩، ص ٣ ـ ٣٢؛ والعدد ١٠٠، ص ٧ ـ ٤٠.

مقابلة

# فهد القواسمة يتحدّث عن تجربته في رئاسة بلدية الخليل وفي العمل السياسي

**استضافت «شؤون فلسطينية» الاخ فهد القواسمة، رئيس بلدية مدينة الخليل المبعد، ليحدث القارىء عن التجربة التي خاضها في مواجهة الاحتلال الاسرائيلي، منذ انتخابه رئيسا للبلدية في عام ١٩٧٦ حتى اقدام سلطات الاحتلال على ابعاده في هذا العام *:**

تجربتنا في البلديات بدأت عام ١٩٧٢، حين جرت اول انتخابات بلدية في ظل الاحتلال. كانت الأمة العربية، آنذاك، بما فيها الشعب الفلسطيني، ضد هذه الانتخابات، بدعوى انها تعطي الشرعية للاحتلال لانها تجري تحت مظلته، كما انها تعطي الانطباع باننا ننشد الديمقراطية في ظل المحتل، مما يخالف واقع الاحتلال وحقيقته. وكانت النظرية العربية الفلسطينية تقضي بألا ندخل الانتخابات، وان نعمل على مقاطعتها بقدر المستطاع. والذي حدث، تطبيقا لهذه النظرية، ان كل العناصر الوطنية الشريفة ابتعدت عن البلديات وبقيت عناصر موالية للسلطة او مجردة من الولاء. انا شخصيا كنت من بين من لم يؤمنوا بهذه النظرية، لكن الوقوف ضدها كان، في ذلك الوقت امرا صعبا لان المؤمنين بها شكلوا تيارا قويا. غير ان الفكرة بقيت في نفسي وفي قلبي، حتى جاءت انتخابات عام ١٩٧٦. وحتى ذلك الوقت، كانت النظرية السابقة تتبدل، وظهرت التساؤلات: لماذا نعتمد السلبية في تعاملنا مع السلطة ومع الاحتلال؟ لماذا لا نتخذ اسلوب التصدي والتحدي بدلا من هذه السلبية؟ وبدلا من مجرد الرفض لماذا لا نواجههم بالوقائع وبرغبات الشعب الفلسطيني وآماله وطموحاته؟ لماذا لا نتعامل معهم بالقوة ونقف لنقول لهم كل ما في قلوبنا بلا خشية؟. وكان لا بد من ان نخوض معركة الانتخابات.

---

* في العدد القادم : مقابلتان مع بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس، ومحمد ملحم رئيس بلدية حلحول المبعد.

وكانت منطقة الخليل اصعب المناطق وذلك لان رئاسة بلديتها احتلها على مدى اربعين عاما، رجل واحد.

**س: تقصد الشيخ الجعبري؟**

ج: رجل كبير، له ممارسات وتجربة طويلة، وكان قويا، والناس، داخل المدينة يخشونه اكثر مما يخشون الاحتلال نفسه؛ اذ انه قادر على البطش الى درجة القتل اذا اقتضى الامر. كانت الخليل تتألم من هذا الوضع غير قادرة على القيام بشيء، ولا بد من شخص يستطيع المواجهة ويخوض التجربة ويضحي بنفسه. وفي يوم ١٩٧٦/١/٨، نشرت جريدة **الانباء** خبرا عن ١٦ شخصا يرغبون في خوض الانتخابات في مدينة الخليل، وكنت انا وراء نشر الخبر لأني اردت ان اعرف مدى صلابة المواطنين واصحاب الاسماء المنشورة كانوا غير معروفين، ولم تكن لي صلات معهم، وكان النشر عملية اختبار. وقد فوجئت بشيء غريب اذ ان ١٥ شخصا ممن نشرت اسماؤهم اعتذروا في اليوم التالي مباشرة، عن دخول الانتخابات.

**س: ماذا كان السبب برأيك؟**

ج: حين سألتهم كان جوابهم: إن ارجلنا لم تحمل اجسامنا امام هذا الظالم فكان علينا ان نعتذر. اما انا فلم اعتذر بالطبع. وقد نصحني حتى احد اقربائي بأن اعتذر مؤكدا ان هذا الرجل بطاش، وهو قادر على ان يتآمر على اي شخص يحاول المساس بسلطته. لكني تمسكت بحقي ولم اكترث. وقد تأكد لي ان هذه المدينة بحاجة الى انسان يضحي بذاته فيقتحم التجربة، فإما ان ينجح او ان يفقد حياته. واعلنت ترشيحي بعد ثلاثة ايام، وكان هذا اول اعلان نشر في الضفة كلها. ولهذا الاعلان، في حد ذاته، قصة؛ اذ انني ذهبت لجريدة **القدس** اطلب نشره، فطلبوا بطاقة هويتي، ورغم تأكدهم من انني الشخص المعني فقد طلبوا ان اكتب بخط يدي، وان اوقع عليه، واخذوا مني عشرة اضعاف السعر المقرر للاعلان. الشخص الوحيد الذي تشاورت معه كان زوجتي التي قالت: توكل على الله ولا تخشى احدا.

كنت في ذلك الوقت اسكن في رام الله، وانا من اهل الخليل وعائلتي كبيرة فيها. وكنت في رام الله اعمل موظفا في مجال البحث العلمي والارشاد الزراعي في دائرة الزراعة. وكي لا يظن بي التخوف من التواجد في الخليل انتقلت اليها صبيحة اليوم الذي نشر فيه الاعلان، وتجولت في شوارع المدينة متعمدا ان اعلن حضوري. كنت اقرأ في عيون اهل الخليل اشياء كثيرة، فهم يريدون ان يقولوا لي: نحن معك، ولكنهم كانوا متخوفين، حتى انهم كانوا يخشون من طرح السلام علي. كانوا ينظرون الي من بعيد ويبتسمون، ولكن خوفهم من ذلك الطاغية الذي يهدد الخليل كان واضحا. ودام هذا الحال طيلة يومين حتى ان افراد عائلتي لم يكونوا يقتربون مني كثيرا. في اليوم الثالث، اخذ ابناء العائلة يفكرون بطريقة مختلفة: ماذا لو وقع اعتداء علي، لو اعتدي على اي من ابناء العائلة فسنقع في الكارثة رضينا ام لم نرض، ولذا لا بد ان نحميه. وهكذا بدأت العائلة تتجمع حولي. واخذت اعلانات التأييد لي تتوالى في الصحف العربية، وكنت انا الذي ادفع

اجرتها. وانا اقول لك ان كل الاعلانات كانت من خارج الخليل لانه لم يكن في الخليل من يتجرأ على اعلان التأييد.

وبدأت علامات الغيظ تظهر على الشيخ الجعبري، وبدأ يفقد اعصابه، واخذت اعلانات التأييد له تنشر في الصحف، وكأنما اراد ان يؤكد انه اذا كان من الممكن ان تنشر خمسة اعلانات تؤيدني يوميا فإن لديه الفا. وبهذا، ومن حيث لم يقصد، وضعني الشيخ، انا، واياه على مقعد واحد، وهذا ما قلته لاصدقائي: انا والشيخ نتنافس على الكرسي نفسه. اما عائلتي فقد تجمعت حولي بطريقة محكمة. كنت اسير في شوارع الخليل، وكانوا يسيرون خلفي ليحموني، من اي محاولة اعتداء. وازاء هذا لم يعد من السهل على الشيخ ان يبطش بي. كان لا بد ان اتجه الى الاقربين فاتجهت الى الحي الذي انتمي اليه، وهو ثلث المدينة ويسمى حارة الشيخ، حيث تقطن ١٦ عائلة، واستطعت ان اجمعهم كلهم، وان احصل منهم على موافقتهم على ترشيحي. وهنا اصبحت املك الكثير، الا ان المدينة كانت لا تزال تخشى الانتخابات وتخشى الشيخ. واتجهت للحصول على تأييد بقية المجموعة التي تخوض الانتخابات، واجريت الاتصالات بهم الواحد بعد الآخر وقبل موعد الانتخابات بيوم واحد صرنا عشرة.

**س: هل لي ان اسأل كيف اخترتهم؟**

ج: اقول لك بأمانة: لم اخترهم بارادتي، ولكن الذي اختارهم هو القدر، لانه لم يكن هناك آخرون قادرون على مشاركتي الرأي حتى اميز واختار. كنت اتمسك بكل من يظهر الاستعداد للسير معي، ولم تكن ثمة خيارات كثيرة، لم يكن هناك عشرات بل افراد معدودون، وكان همي ان اصل الى عشرة. وقد وصلت الى هذا الرقم قبل موعد الانتخابات بيوم واحد فقط، لأن الجميع كانوا، كما ذكرت سابقا، يخشون الانتخابات. كانت المعركة رهيبة احتاجت لكل الحنكة والذكاء حتى لا يستطيعوا ضربي. وقد جربوا مواجهتي بالشيخ علنا امام الجمهور، فدعوا لمؤتمر عام يحضره هو وانا حتى يتم تشكيل قائمة موحدة، بضغط من الجمهور، يكون هو رئيسها. وقد تعمدت ان اتغيب عن الاجتماع وتواريت طيلة يومين لم يعرف احد، حتى زوجتي، اين كنت خلالها. وقد عجزت المخابرات الاسرائيلية التي بحثت عني عن اكتشاف مكان وجودي، وانتهى مؤتمرهم بغير نتائج.

**س: هل اعلنت انك ترفض حضور المؤتمر؟**

ج: لم اعلن، وانما تجنبت حضوره. ثم حاولت سلطات الاحتلال الضغط علي مباشرة، فجاء الحاكم العسكري لمدينة الخليل واسمه «زئيف» ومساعده واسمه «تسفي» واجلساني في مكتب الحاكم مدة اربع ساعات، وهم يجهدون لاقناعي بالتعاون مع الشيخ. ومما قاله الحاكم ان الشيخ مسن وسوف يهرم وتبقى انت الرئيس، فاختر الاعضاء التسعة وابق الشيخ رئيساً . كان جوابي: انا اعرف السجن فهو على بعد خمس غرف، كما اعرف طريق رأس الناقورة ولا احتاج لدليل، والسجن او الابعاد اهون علي من التعاون مع هذا الرجل.

وخضنا معركة الانتخابات، ونجحت قائمتنا كاملة مما عنى سقوط قائمة الشيخ كاملة. والمدهش ان الفرق بين الناجح الاخير من قائمتنا، والخاسر الاول من قائمته بلغ ثلاثة آلاف صوت؛ وهذا يعني انه كان هناك اجماع على القائمة.

**س: هذه المشاكل كانت على صعيد مدينة الخليل، فكيف كان موقف سلطات الاحتلال من الانتخابات، من وجهة نظرها؟**

ج: بنت سلطات الاحتلال نظريتها على ان العناصر الوطنية لن تدخل الانتخابات، ولم تعد تهتم بالتالي بمن سيكون الرئيس او العضو، ما دام الجميع لن يمثلوا الحركة الوطنية، لا فرق لديها بين هذا او ذاك. وظل هذا هو موقفها الى ان جاءت معركة الحسم بعد ان اغلق باب الترشيح، وتأكد لسلطات الاحتلال ان عناصر وطنية ستشترك في الانتخابات.

ولم يقتصر هذا على الخليل، ففي كل المدن رشحت عناصر وطنية معروفة نفسها. بل ان الوضع في الخليل اختلف بعض الشيء، فالذين ترشحوا لم يكونوا كلهم معروفين بصلتهم، علنا، بالحركة الوطنية. حتى انا، كل ما يعرفونه عني، في ذلك الوقت، انني رجل احب بلدي، واحب عملي، واريد ان اجعل من الخليل مدينة متطورة. وما كنت، حتى بدء الانتخابات، اتحدث في الموضوعات السياسية، واذا سئلت، كنت في العادة اتهرب من الاجابة. على اي حال، شعرت السلطات انها ازاء وضع من نوع جديد. وعقد مجلس الوزراء الاسرائيلي اجتماعا لهذه الغاية، وكان امام امرين: إما ان يلغي الانتخابات او ان تستمر العملية. وقد بحثت حكومتهم هذا الموضوع باستفاضة وبرزت وجهتا نظر: الاولى مع الالغاء والثانية مع الاستمرار. اصحاب وجهة النظر الاولى رأوا ان العناصر الفلسطينية الوطنية هي التي ستفوز وستتعب سلطات الاحتلال. اما الآخرون فقد اعتقدوا انه من الممكن تطويع العناصر الوطنية هذه.

**س: هل تعتقد انهم املوا بأن تفوز العناصر الموالية لهم او المتهاونة؟**

ج: لا اظن انه كان لديهم مثل هذا الامل. وفي تقديري، انهم انطلقوا من امرين: ان يثبتوا ان الاحتلال الاسرائيلي هو مع الديمقراطية، وهذا امر تستند عليه دعايتهم لدى الرأي العام العالمي؛ وان يعتمدوا على قدراتهم الفعلية على تطويق واخضاع العناصر الوطنية في البلديات. وقد تغلبت، في الحكومة، وجهة النظر الداعية للاستمرار في العملية الانتخابية على اساس ان فيها مكاسب دعائية كبيرة لهم، وعلى امل ان يطوعوا بعض الفائزين من العناصر الوطنية، او يخففوا من نشاطهم المناهض للاحتلال.

**س: لكن النتائج جاءت مغايرة لهذا التصور؟**

ج: كانت النتائج اكبر واعمق حتى مما تصورنا نحن. لم نكن نتوقع هذا النجاح الكاسح في الضفة الغربية كلها. وفيما يتعلق بالخليل، كانت الضفة كلها مشدودة الى المعركة الانتخابية فيها باعتبارها المعركة الحاسمة: إما ان تنتصر الحركة

الوطنية او تنهزم، القلق هنا كان كبيرا. اما في المناطق الاخرى فكان من المتوقع سلفا نجاح العناصر الوطنية بنسب تتراوح بين خمسين ومئة بالمئة. وحين ظهرت نتائج الانتخابات تبين ان الخليل في المقدمة؛ حيث نجحت قائمتنا بكاملها كما ذكرت.

وفي كل المناطق فازت القوائم الوطنية إما بالاغلبية، واما بالمقاعد كلها.

**س: كان هذا بغير شك وضعا جديدا يجابه سلطات الاحتلال، فهل يمكن ان تحدثنا عن موقفها بعد ظهور النتائج؟**

ج: اتخذت سلطات الاحتلال موقف المترقب المتريث، فلم يكن بمستطاعها ان تلغي النتائج. ولان السلطات ارادت من العملية الانتخابية ان تخدم اغراضها الدعائية فإنها لم تتدخل في يوم التصويت او في الفرز، وقد دعت عددا كبيرا من الصحفيين ليشهدوا على مسلكها. ورهانهم انصب على تطويع الفائزين بعد فوزهم، بأمل ان يصلوا الى مواقف وطنية مدجنة تخدم، في النهاية، مصالح الاحتلال.

**س: هل نفهم من هذا ان هذه هي السياسة التي اتبعوها بعد ظهور اعلان النتائج؟**

ج: مئة بالمئة. وقد توجب علينا ان نبدأ فنظهر وجهنا الحقيقي. وقد فعلت ذلك منذ اليوم الاول لتسلمي رئاسة البلدية. ففي ٢٧/٤/١٩٧٦، جرى احتفال الاستلام التقليدي الذي يحضره عادة القائد العسكري العام ويقوم فيه بتسليم الشهادات لرئيس البلدية واعضائها. وفي كلمتي بهذه المناسبة، تحدثت، لاول مرة، في السياسة، وكنت واضحا فوضعت النقاط على الحروف، واعلنت امام القائد العام ايماني بأن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. وكان هو وزملاؤه العسكريون الآخرون يسمعون هذا الكلام علنا لاول مرة.

**س: كيف كان رد فعلهم؟**

ج: كانت مفاجأة رهيبة بالنسبة لهم، ولم يستطع قائدهم العام ان يقول شيئا، ولم يكن بمقدوره ان يفعل شيئا، فظل صامتا. وطرحت موضوعا آخر؛ اذ اعلنت اننا نرفض الاستيطان اليهودي في اي موقع من بلادنا، وقلت: ان الاستيطان يعيق التحرك نحو السلام العادل. اما ضربتي الثالثة لهم فكانت اعلاني اننا نطالب بحقنا في تقرير المصير واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة. كان حماس جمهور الخليل بالغا، اما القائد الاسرائيلي فقد انصرف، ولعله كان يفكر بالوسيلة التي تمكنه من تطويعنا في المستقبل.

وصار علينا ان نفكر بحماية انفسنا من الحكم العسكري، فما الذي يحمينا؟ القانون لا يحمينا، ولا قدرتنا على الحديث، ولا قوة عضلات رئيس المجلس البلدي او اعضائه. حمايتنا الوحيدة هي الجماهير، ولا بد من ان نعمل مع هذه الجماهير. وهذا ما بدأناه، آخذين بعين الاعتبار ان الجماهير الفلسطينية، مثلها في هذا مثل الجماهير العربية

الاخرى، لا تثق كثيرا بقياداتها. وتجربتها السابقة اثبتت لها ان القيادات تتحدث كثيرا ولا تفعل الا القليل، ولذا قررنا ان نقيم علاقة مبنية على الصدق والثقة مع الجماهير.

**س: تقصد ان هذه كانت اسس سياستكم تجاه المواطنين؟**

ج: هذا ما عملناه، اخذنا نتحدث قليلا ونصدق في الحديث. كيف تنفذ الى قلوب المواطنين سياسيا؟ الكل يتحدث في السياسة بطريقة جيدة ويطرح شعارات وطنية، فهل سيلتف المواطنون حولنا اذا فعلنا الامر ذاته؟ كنت اشعر بأنه لا بد من ان نعمل بطريقة مختلفة في مجال تطوير المدينة. ولو امكن ان نصدق في تعاملنا في هذا المجال، فسيدرك المواطنون اننا صادقون وامناء في السياسة ايضا، الشرفاء في العمل شرفاء في الوطنية. وبدأنا بعملية التطوير، وكانت بداية صعبة: كانت البلدية مفلسة، ويسيطر عليها من اصل ٤٠٠ موظف، ١٥٠ موظفا من خصومي، وكلهم من عائلة الشيخ؛ اي ان اكثر من ثلث الموظفين كانوا ضدي. وكنت اعمل من السادسة صباحا حتى الثانية عشرة ليلا، واستطعت ان اخترق جميع الحواجز. وخلال شهور، اخذت المدينة تثق بنا ليس كرد فعل لكرهها للشيخ ولكن كثمرة لدأبنا وعملنا.

**س: وماذا عن المشاكل مع سلطات الاحتلال؟**

ج: انا بطبعي من الناس الهادئين في التفكير، وقد استخدمت ذكائي ولم اظهر انفعالا سياسيا. وكان البعض يعيبون علي هذا، ويتصورون انني من الوسطيين، فلم اكترث كثيرا لما يقال عني؛ اذ كان هدفي ان اجمع الجماهير حولي. وايهما افضل: ان اقاتل الاحتلال من موقع الضعف ام من موقع القوة؟ كنت جديدا على المدينة، وعلي ان احقق الاتصال بمواطنيها واعمل معهم، ثم اتصدى بعد ذلك لمواجهة الاحتلال بقوة الجماهير وليس بقوتي الفردية. وكنت، في ذلك الوقت، لبقا في السياسة، وشعرت سلطات الاحتلال بانني معني بالتطوير بالدرجة الاولى. وقد جعلنا من مدينة الخليل، خلال عامين، اجمل مدينة في الضفة واكثرها تقدما رغم انها كانت اقل المدن تطورا. وهنا حققت الهدف الاول وصار ارتباطي بالجماهير قويا. صار المواطنون يثقون بصدقي، بالتجربة الملموسة ومن خلال العمل اليومي. وعدنا بتنظيم الشوارع فنظمت وبالمياه والكهرباء والمجاري والمدارس، ونفذنا ما وعدنا به.

**س: وفي مجال النشاط السياسي؟**

ج: كنت، بالمقارنة مع زملائي الآخرين، اقلهم حديثا في السياسة، وتصور البعض انني لست سياسيا بل مجرد مهندس يحب عمله، الى ان فزت بثقة الاغلبية الكاسحة من المواطنين. حتى ابناء عائلة الجعبري صار ٩٩٪ منهم معي بقلوبهم. وانا لم اكن اتخاذل ازاء اي واجب سياسي. وكنت اطرح الموقف المطلوب بدقة، لكن بحذر وهدوء، وبعقلانية كاملة بغير انفعالات، وكان هذا يرضي سلطات الاحتلال لان غيري كان يتكلم بلهجة حادة، بينما اطرح انا الفكرة نفسها بغير حدة فابدو في نظر السلطات وكانني الوطنية المدجنة. وقد حاولوا كثيرا الالتفاف حولي.

**س: كيف؟**

ج: بأساليب كثيرة، فمثلا: بعد تسلمي رئاسة البلدية كنت ارسل مشاكل المواطنين الى الحاكم العسكري بشكل رسمي، وقد قال لي يوما: لا تهتم بكل المشاكل. قل لي عن مشكلة اي مواطن يعنيك حتى احلها. وكان بهذا يحاول ان يجعل لي مصالح شخصية متميزة عن مصالح جمهرة المواطنين. وقد فشل هذا الاسلوب لاني لم اقع في الشرك. واخذ الحكم العسكري يخلق لي مشاكل بسيطة مع مواطنين حتى الجأ اليه لحلها، فكنت صبورا ولم الجأ اليه. وصار يدفع اعوانه لخلق مشاكل في المدينة لا يحلها الا هو حتى استعين به. ولكنني ظللت صبورا وهادئا اواجه المشاكل بغير اللجوء اليه حتى ولو اقتضى حلها شهورا، وبهذا كنت اريد ان ابعد المواطن عن اللجوء الى السلطة المحتلة بقدر الامكان، وان ابتعد انا ايضا بقدر الامكان حتى لا يضعني الحاكم في موقع المساومة، على طريقة واحدة بواحدة. وانتهجت هذا الاسلوب، خصوصا حين كان الامر يتعلق بمخالفات قانونية يقوم بها احد المواطنين، فقد كنت اعمد الى اقناع المواطن بدل استخدام السلطة. لم اقبل ان تصبح السلطة عونا لي على اهلي مهما كانت الاسباب. وبهذا النهج ايضا نجحت في كسب ثقة المواطنين الذين شعروا بانني لا اسعى لفرض القوة على المدينة بمساعدة ارهاب السلطة. وبالاجمال استطعنا ان نحقق الكثير بالتعاون المباشر بين البلدية والمواطنين.

وفي الوقت نفسه، كان لا بد من بداية العمل على المستوى الاكبر وهو المستوى الوطني.

**س: متى بدأتم ذلك؟ وكيف قيمتم ضرورات العمل على مستوى الضفة الغربية؟**

ج: بعد حوالى ٩ اشهر بدأت اتحرك في الضفة الغربية. قبل ذلك، كنت اتحرك في المناسبات وحدها وظلت حركتي قليلة. ثم اخذت احدد اتجاها لتحركي بحيث لا يظل مرهونا بالمناسبات. وقد بدأت اتبادل الزيارات مع الاخ بسام الشكعة، رئيس بلدية نابلس، الذي لم اكن اعرفه معرفة شخصية قبل الانتخابات، ولم يكن بيننا اي نوع من العلاقة. وصرنا نتداول معا وندرس الاوضاع، ووجدنا افكارنا متلاقية. وانضم الينا الاخ كريم خلف رئيس بلدية رام الله. وكان بمقدورنا نحن الثلاثة ان نضع تصورا لعمل مشترك ينمو مع الايام حتى يصبح كبيرا. وادركنا انه لا بد من ان ينضم الينا الآخرون. وهكذا اشترك معنا الاخوة حلمي حنون رئيس بلدية طولكرم وابراهيم الطويل رئيس بلدية البيرة. وصرنا نحن الخمسة نجتمع في اوقات متقاربة او متباعدة، حسب الظروف.

**س: هل اعطيتم لاجتماعاتكم صفة رسمية؟**

ج: كنا نجتمع بشكل غير رسمي، ومعظم اجتماعاتنا كانت تتم في اوقات الغداء اما في بيوتنا او في المطاعم. نجلس ونتحدث في الموضوعات التي تهمنا جميعا، وننتهي الى صياغة مواقف محددة وموحدة بشأنها. مثلا: فيما يتعلق بعمل البلديات مع السلطة اتفقنا على رفض التوقيع على الاتفاقات التي تريدنا ان نوقع عليها.

**س: اي نوع من الاتفاقيات؟**

ج: كل مشروع نحتاج فيه الى معونة سلطات الاحتلال، كانت هذه تفرض علينا ان نوقع على اتفاقيات بشأنه. وفي هذه الاتفاقيات، يرد النص على ان اللغة العبرية هي اللغة الاساسية، وعلى ان كل خلاف يطرأ يوجب اللجوء الى محكمة القدس بوصفها «عاصمة اسرائيل»، ولهذا، ولاسباب اخرى مماثلة كنا نرفض التوقيع. واول بلدية تنبهت لهذه النصوص كانت بلديتنا ثم نبهنا الآخرين.

**س: تقصد ان نوعا من التنسيق قام بينكم على مستوى عمل البلديات، فهل نسقتم على المستوى السياسي ايضا؟**

ج: نسقنا، في الوقت نفسه، على المستوى السياسي انما بشكل غير معلن. اتخذنا، مثلاً، قرارا بتنظيم الاضراب من غير ان نعلن اننا اتخذناه، فتصرف كل منا، في بلديته، وكأنه قراره الشخصي. اخذنا ندخل حقل النشاط السياسي شيئاً فشيئاً ويوما بعد يوم. وكنت ادرك ان معركتنا مع الاحتلال طويلة، فكنت ادعو لتجنب الحدة والانفعالات؛ حيث يتوجب ان نعمل بهدوء لاحباط مخططاته بقدر المستطاع، دون ان نقف علنا للتصدي المباشر العنيف. وكان الاحتلال يحاول كسب ولائنا بالاغراءات المتنوعة، وحين ادرك انه فشل في هذا الاسلوب انتقل الى الارهاب غير المعلن. حاولت سلطاته ان تعطل مشاريع البلدية، وخلق الظروف التي تمنعنا من الالتقاء بالمواطنين وحجب التصاريح عنا. وكان هذا ما يفعله الى ان جاءت عملية انور السادات التي لم يكن اي منا يتوقعها، فقد فوجئنا كما فوجيء العالم العربي بالسادات في القدس، وهنا حاول الاحتلال بكل وسائله ان يجرنا اليه. واذكر ان الحاكم العسكري استدعاني حين وصل السادات الى المطار وحاول اقناعي، خلال ثلاث ساعات، بأن اشترك في استقباله.

**س: هل طلب منك ان تعلن تأييدا لسياسة السادات؟**

ج: لم يقل ذلك بل قال: قابله وقل ما تريد. كان يريد مجرد حضوري اذ ان فيه تكريما للسادات.

**س: هل جرت محاولات مماثلة مع رؤساء البلديات الآخرين؟**

ج: بلى، لقد جرت مع رؤساء البلديات ومع آخرين. وخلال الزيارة، لم تنقطع ضغوطهم لحملي على مقابلة السادات، استخدموا كل الوسائل، وجاءني القائد العام مكررا ما قاله الحاكم العسكري: قابله وقل ما تريده، قل له: لا نريد الاحتلال، نريد كذا، وكذا... اردوا مجرد اللقاء كنوع من التأييد، وقد رفضت. بعض العناصر قابلته للاسف، متذرعة بأنها ارادت ان تضع امامه مطالب الشعب الفلسطيني كأن هذه المطالب ليست معروفة! الم يكن السادات على علم تام بمطالب م.ت.ف. قبل مجيئه للقدس. كنا نجابه منطق الذين قابلوه ونفضح دوافعهم ومساعيهم للبحث عن مراكز شخصية.

**س: ما الذي فعلته سلطة الاحتلال بعد رفضكم؟**

ج: كان لنا رأينا المحدد بمبادرة السادات، وهو رأي معروف، وقد اعلناه واوضحنا

منطلقاتنا لرفضها. وقد تداعينا لعقد مؤتمر واسع تم في مجمع النقابات في بيت حنينا اسميناه مؤتمر القدس، وتوسعنا في تكتيل العناصر الوطنية من الشخصيات الرسمية وغير الرسمية من ممثل الاوقاف، والغرف التجارية، والنقابات العمالية، والمهنية، والبلديات، والجمعيات الخيرية، وغيرهم.

وبهذا الاعداد حضر المؤتمر ١١٧ شخصية، وصدر بيانه المعروف، وشكلنا «لجنة المتابعة» لتنظيم المقاومة لسياسة السادات، بعد تأكيدنا الواضح على رفض المبادرة، وعلى اعتبار م.ت.ف. الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، وعلى المطالب الوطنية الاخرى المعروفة. هذا البيان وقعه جميع الحاضرين، وهم الذين اختاروا «لجنة المتابعة» المكونة من ١٦ شخصية. وكنا نفكر بالجبهة الوطنية. كانت هناك قبل ١٩٧٦ جبهة وطنية تضم عددا من الفئات والعناصر الفلسطينية. وحتى ذلك الوقت كان معظم اعضائها قد سجن او طرد، وجرى التفكير بانشاء جبهة وطنية جديدة.

**س: تقصد اعادة التجربة؟**

ج: نعم اعادة التجربة، وللامانة كنت انا ارفض ذلك، وانا الوحيد الذي وقف امامها في تلك المرحلة.

**س: لماذا؟**

ج: لانني لم اؤمن بالعمل السياسي السري ما دام العلني متاحا.

**س: ولو بقيود؟**

ج: ولو بقيود، فلماذا نلجأ للعمل السياسي السري بنتائجه الخطيرة. لكن زملائي لم يقبلوا رأيي وحاولوا العمل بعيدا عني ولم اهتم. وبعد ان شكلوا الجبهة الوطنية باسبوع او اسبوعين كانت سلطات الاحتلال قد عرفتهم جميعا. وهنا صدقت نظريتي: ان العمل السياسي السري امر ليس سهلا.

**س: هل تجده غير مجد؟**

ج: حين شكلنا لجنة الـ ١٦ كان المؤتمر الذي اختارها علنيا، وهي علنية، ثم غيرنا اسمها من لجنة المتابعة الى لجنة التوجيه الوطني، بدأنا بـ ١٦ وتوسعنا.

**س: هل تذكر متى تم ذلك؟**

ج: اعتقد انه تم في شهر آب او ايلول ١٩٧٨. وقد ضمت اللجنة ستة من رؤساء البلديات، ومعهم ممثلون عن الاوقاف، والغرف التجارية، والطلاب والعمال والنساء، والمهنيين، وآخرون.

**س: ما هي نشاطات اللجنة؟**

ج: كان الهدف، في البداية، التصدي لمبادرة السادات، وجعلناها تتعاطى مع مشاكل

المجتمع ككل، تم ذلك بالتدريج، وكانت القوة المؤثرة في اللجنة، في الواقع، هي البلديات؛ فهي التي كانت تقرر وهي التي كانت تنفذ. وكانت لنا اجتماعاتنا الدورية.

**س: هل كانت الاجتماعات علنية؟**

ج: الاجتماعات علنية، ولم نكن نهتم بأن يعرف او لا يعرف ما يدور في الجلسات؛ اذ اننا لم نكن نتطرق لامور امنية. كنا نتناول شؤونا سياسية عامة، ونحن معروفون بمعاداتنا للاحتلال ولا نخشى ان نعلن ذلك. كنا ندرس كيف نصلب الجبهة الداخلية ونتصدى لمخططات كامب ديفيد ولممارسات سلطات الاحتلال ولسياسة الاستيطان، الخ..

**س: لا شك في ان سلطات الاحتلال لم تكن راضية عن مثل هذه النشاطات فكيف واجهتها؟**

ج: عند بداية تشكيل اللجنة، كانت للسلطات نظرة مزدوجة ازاءها: التخوف والامل بأن تكون البديل.

**س: تقصد البديل لقيادة م.ت ف.؟**

ج: كانت السلطات تراهن على هذا، وتصور البعض انهم لو افسحوا مجال العمل للجنة فيمكن، في المستقبل، ان تصير هي البديل لـ م.ت.ف. في الداخل. وتمنت ان يقع التنافس والخلاف بينهما، وان تنشق الثورة الفلسطينية والقيادة الفلسطينية. وكنا نحن نلحظ ذلك، لكننا لم نكن نخشاه لاننا نعرف انفسنا جيدا ونترك سلطات الاحتلال تعيش في اوهامها. عملنا بصمت، ولم نهتم بما يقوله الاحتلال. لم يكن الاحتلال يتحدث عن آماله علنا، ونحن لم نكن نرد عليه، حتى لا نعطيه الذرائع للبطش باللجنة. وواصلنا التصدي، وبدأنا نشكل لجان التوجيه الوطني في المدن والقرى حتى نوسع القاعدة الى اقصى مدى ممكن. وادخلنا رئيس بلدية حلحول محمد ملحم ورئيس بلدية غيتا وحيد الحمد الله الى لجنة الـ ١٦؛ وذلك في اواخر ١٩٧٩؛ كما ادخلنا عناصر اخرى كبشير البرغوتي رئيس تحرير **الطليعة**، ومأمون السيد رئيس تحرير **الفجر** وصحافي ثالث من جريدة **الشعب**. صار العدد، في لجنة التوجية الوطني المركزية ٢٢، ورفعنا مستوى التصدي وبدأت اللجنة تظهر انها صاحبة القرار في الضفة الغربية.

**س: هل كانت فعلا كذلك؟**

ج: اؤكد لك ان اللجنة كانت، في نهاية المرحلة، قادرة على كل شيء.

**س: ماذا تقصد بنهاية المرحلة؟**

ج: نهاية ١٩٧٩. كانت اللجنة تقرر وتنفذ ما تقرر.

**س: باعتبارها قيادة محلية؟**

ج: سميناها: احد اذرع م.ت.ف..

**س: تسمية علنية؟**

ج: علنية. ومنذ اطلقنا هذه التسمية بدأ الاحتلال يفصح علنا عن رغبته في ان تصبح اللجنة هي القيادة البديلة. وهنا كان لا بد من دحض ادعائه فاعلنا اننا لن نكون، ابدا، البديل لـ م.ت.ف. انما نحن ذراع من اذرعها الضاربة في الداخل. وادرك الاحتلال مدى خطورة هذه اللجنة عليه، واخذ يعمل لتصفيتها.

**س: هل تقصد، حسب فهمك، ان الاحتلال تأكد من فشل المراهنة على مسألة القيادة البديلة.**

ج: مئة بالمئة. وقد ثبت لديه ان اللجنة لن تكون القيادة البديلة، ولذا قرر ان يتصدى لها، لكن كيف يتصدى. لم يرد ان يتصدى بشراسة؛ اذ كان يعرف مدى شعبيتها فلجأ اى اساليب المداورة: يعرف ان هناك اجتماعا يوم كذا، فيمنعنا من الوصول الى مكان الاجتماع، او يضع جنوده امام المبنى الذي سنجتمع فيه. فأخذنا بدورنا نطور اساليبنا ونتحايل حتى نعقد الاجتماعات، ولم يكن عملنا مع ذلك سريا؛ اذ كنا نعلن قراراتنا بعد الاجتماعات، كنا نحتفظ فقط بسرية موعد ومكان الاجتماع، ثم نعلن عنه بعد عقده. وصعّد العدو خطواته فكانت معركة محاولة طرد بسام الشكعة، رئيس بلدية نابلس. وبقرار الطرد انهى العدو مرحلة محاولة تطويع رؤساء البلديات بالترغيب. وابتدأ مرحلة جديدة، وهي ارهاب الآخرين بالبطش ببعضهم؛ وتنفيذ الارهاب وليس مجرد التلويح به. كان الاحتلال يشعر بأنه ليس بحاجة الى البطش بالجميع في وقت واحد، وبأنه لو بطش بالبعض فستخاف الاطراف الاخرى، وتسكت: نطرد بسام الشكعة، ونقول لفهد القواسمة ستلقى المصير ذاته اذا لم تسكت. وكنا امام امرين: اما ان نتابع مسيرة التصدي، او ان نسكت ونستسلم. وكنا على يقين بأن عملية الطرد ليست موجهة ضد الشكعة بل ضد العناصر الوطنية كلها.

**س: ولذلك قررتم التصدي.**

ج: من هنا قررنا ان نتصدى، فإما ان نطرد جميعا او ان نبقى جميعا. وحبذا لو ان الدول العربية تنتهج هذا الاسلوب. اجتمعنا في لجنة التوجيه الوطني، في الوقت الذي كانت فيه الدعاية والتهديدات الاسرائيلية ضد بسام الشكعة في اوجها، وقررنا ان تستقيل المجالس البلدية كافة اذا نفذ قرار طرده، والمحنا الى موقفنا هذا في الصحافة على طريقة ان البلديات تفكر بالاستقالة فيما لو طرد؛ وذلك في محاولة منا لحمل سلطات الاحتلال على اعادة النظر في قرارها. لكن الاحتلال توهم اننا متمسكون بكراسينا فأخذ تهديدنا بالاستقالة على انه نوع من التكتيك، ولم يعتقد اننا سننفذه بالفعل. وهكذا اعلن قرار طرد بسام الشكعة واعطيت له فسحة اربعة ايام فقط لكنه استطاع الحصول على امر احترازي من محكمة العدل العليا بعدم طرده. فالقي القبض عليه واودع في السجن بدلا من طرده. فاجتمعنا نحن وقررنا الاستقالة، وقد اتخذت القرار بلديات الضفة الغربية وقطاع غزة كلها. رئيس بلدية مدينة غزة وحده استمهل لمدة يوم واحد قبل تنفيذ القرار لانه كان على موعد مع وزير الدفاع الاسرائيلي واراد ان يفتح معه موضوع اعتقال بسام

فإذا لم يستجب الوزير لطلب الافراج عنه فإن رئيس البلدية سيستقيل. وكان ثمانية آخرون من رؤساء البلديات، انا منهم، قد ابرقوا يطلبون موعدا عاجلا للغرض ذاته مع الوزير. وقد التقى وفد من رؤساء البلديات، بضمنهم انا، مع الوزير في اليوم التالي، في مكتبه في تل – ابيب وانذرناه بأنه اذا لم يفرج عن الشكعة، خلال ساعات، فإن المجالس البلدية ستعلن استقالتها. وقد لاحظت ان موقف الوزير كان متناقضا، وبدا لي، وكأنه لا يريد تنفيذ قرار الطرد. وقد طلب منا ان نؤجل الاستقالة لبعض الوقت. غير ان بعض الزملاء اعلنوا الاستقالة وتمهلت ١٨ بلدية بانتظار تراجع السلطات. وانهالت الاتصالات من الخارج، وحدثت بلبلة، استقالت عشر بلديات وتمهلت ثماني عشرة؛ وكان لا بد من حسم الموقف. في بلدية الخليل، تمهلنا حتى اليوم التالي لمقابلة الوزير، فلم يصدر عنه شيء. وكان ينبغي ان ننفذ انذارنا بالاستقالة في الوقت الذي كانت فيه البلديات التي لم تستقل تتصل بنا لتقول ان م.ت.ف. لا تريد منا ان نستقيل ونخلي مواقعنا. بالنسبة لي كان الامر صعبا ومررنا بفترة بلبلة، لم تطل على اية حال. وقد اجريت بنفسي اتصالا بـ م.ت.ف. ثم التقينا جميعا واعلنا استقالة جميع البلديات بغير استثناء. وسلمت اوراق الاستقالات الى الحاكم العسكري في كل منطقة. ونشطت المحاولات الاسرائيلية والضغوط لحملنا على سحب الاستقالات غير اننا كنا متضامنين نشد ازر بعضنا بعضا بحيث بقي موقفنا موحدا.

**س: والمظاهرات الشعبية كيف كان تأثيرها؟**

ج: كان هناك برنامج للنشاط سميناه برنامج الشعب. وكان لكل مدينة حرية اختيار البرنامج الذي يلائم ظروفها. في الخليل كان لنا برنامج رائع، من فقراته نوع من الاضراب كنا نستخدمه لاول مرة، وهو ان تغلق البلدة انشطتها من الساعة ١١ الى ١٢,٣٠. في مرات سابقة تعودنا ان نضرب لمدة يوم بكامله او لايام، اما الاضراب لمدة محدودة من النهار فكان تجربة جديدة ركز الاحتلال جهده لافشالها، وركزنا جهدنا لتنظيمها بحيث تحقق اتم نجاح. وكان شيئا رائعا ان تقف وسط المدينة لتجدها في دقيقة محددة تتوقف عن النشاط. الحوانيت تغلق في لحظة واحدة والسيارات تتوقف عن الحركة، وفي غضون خمس دقائق، تصبح الشوارع خالية تماما بعد ان كانت تعج بالحركة. والشيء ذاته يحدث عند نهاية مدة الاضراب؛ حيث كانت الحركة تعود بكاملها خلال لحظات. هذا التنظيم، وهذا الالتزام الجماعي من المواطنين كافة، اذهل الاحتلال. كانوا دائما يراهنون على قاعدة: فرق تسد، وكانوا، في الماضي، يراهنون على الخليل وتميزها عن غيرها، واذا بالخليل تتكاتف مع نابلس وتحميها. وكانوا يعرفون ان الخليل لو تخاذلت فسيصبح بامكانهم احداث شق في الصف الوطني والنفوذ من خلاله. وللخليل، في العادة، تأثيرها؛ واذ اتخذت موقفها الصلب في قضية الشكعة فقد اعطت الانموذج الذي ارهب المحتلين.

**س: هل تعتقد ان اجراءاتكم هي التي حملت العدو على التراجع؟**

ج: طبيعي. ان الذي غير قرار الاحتلال ومنعه من طرد الشكعة هو حركة الداخل بالتعاون طبعا مع التحركات التي جرت في الخارج.

**س: يبدو ان الاحتلال تعلم من قضية بسام الشكعة، ولذلك عندما طردكم نفذ قراره فورا، الا توافقني؟**

ج: مائة بالمائة. وبعد عودة بسام الشكعة، صار قرارهم طرد رئيس بلدية الخليل. والطريقة السريعة في تنفيذ هذا القرار تعني انهم تعلموا شيئين: ان الضربة القاضية يجب ان توجه لبلدية الخليل، وان التنفيذ ينبغي ان يكون فوريا قبل ان تنتبه الجماهير وتتحرك. بعد اعتقال الشكعة والوقفة الحازمة التي وقفتها البلديات وجماهير الضفة الغربية، اضطر الاحتلال لاعادة بسام الشكعة الى موقعه. حركة الجماهير كان لها تأثيرها الكبير. وكذلك استقالة البلديات التي خلقت لهم اشكالا كبيرا: استقلنا، وحاولوا ثنينا عن الاستقالة ففشلوا، وصاروا امام احد امرين، اما قبول الاستقالات واما الافراج عن بسام. ولو قبلوا استقالاتنا فسيواجهون مشاكل عديدة، اذ سيتوجب عليهم، في هذه الحال، ان يضعوا لجانا معينة، او ان يعطوا صلاحيات المجالس البلدية لضباط عسكريين. اللجان المعينة من المحتم فشلها، وهناك تجارب سابقة، اذ لم يسبق ان وجدوا اشخاصا يكفون للتعاون من اجل تعيين لجان محل مجالس منتخبة ولها شعبيتها. وفي العادة، يخشى الناس قبول المنصب بالتعيين اما بدوافع وطنية او خوفا من نقمة الجمهور عليهم. وتعيين ضباط عسكريين يتولون صلاحيات البلديات امر يتنافى مع ادعاءات سلطات الاحتلال حول الديمقراطية والاحتلال المريح. يضاف لذلك ان البلديات مرهقة بالاعباء المالية. وكان في مقدور المجالس البلدية المنتخبة وحدها ان تتدبر الامور. اما تعيين حكام عسكريين لها فسيرتب على الاحتلال اعباء جديدة مالية، فضلا عن مشاكله السياسية. هناك ايضا المشاكل الامنية العديدة التي سيخلقها وجود ضباط الاحتلال مكان المجالس المنتخبة. لهذا كله، ولغيره من الاسباب العديدة، كان لا بد ان ترضخ سلطات الاحتلال وتعيد بسام الشكعة رئيسا لبلدية نابلس. وقد عاد بالفعل. وما جرى له كنا نتوقعه.

**س: تحدثت عن نشاطات الضفة الغربية، والمعروف ان قطاع غزة كانت لـه نشاطاته، هل لك ان تحدثنا عن العلاقة بين بلديات الضفة والقطاع؟**

ج: علاقاتنا مع غزة كانت تسير ببطء؛ وذلك لسببين: الاول انه لم تجر، في قطاع غزة، انتخابات للبلديات، ومجالسها معينة تعيينا، ونحن نفضل التعامل مع المجالس المنتخبة حتى لا نساعد على ان يصبح التعيين قاعدة. والثاني اننا كنا نختلف، في وجهات النظر، اختلافا كبيرا مع رئيس بلدية غزة المعين، إن في طريقة التفكير ام في اسلوب العمل. كانت لنا علاقاتنا مع الحركة الوطنية في قطاع غزة ولم يكن هناك انسجام بين هذه الحركة والبلديات فيه. وكنا نحن ازاء خيارين، فإما ان نتعاون مع الحركة الوطنية، او مع البلديات المعينة؛ حيث تعذر التعاون مع الجانبين معا. لكن الحركة الوطنية نفسها، في غزة، لم تكن مترابطة كما ينبغي، وكما هو الحال في الضفة الغربية. وكنا نحن نحاول المساعدة على رص صفوفها، مع ان النجاحات في هذا المجال جاءت قليلة. كما كنا نحاول ايضا ان نوثق الروابط بيننا وبينهم. ثم جاءت استقالة البلديات والحملة ضد ابعاد الشكعة، واستقالت بلدية غزة مع البلديات الاخرى. وكان هذا حافزا جديدا لتنشيط الحوار مع غزة. وكنت انا اتساءل: لماذا لا نضم بلدية غزة ورئيسها رشاد الشوا الينا؟ وبدأت

اتحرك باتجاه غزة والتقي سرا مع رشاد الشوا، وذلك بمعرفة زملائي، وبغير علم السلطة، وبغير اعلان امام الجمهور. كانت لقاءاتنا تتم في الليل، اذهب لغزة ليلا. واخيرا استطعنا ان نربط غزة معنا. وبقيت مشكلة التآلف بين الحركة الوطنية والبلديات في القطاع حتى لا نظل نعمل على جبهتين. حاولنا تجميع الجهتين لكننا لم نتمكن. وانا اسأل الله ان يلتئم شملهم ويتوحدوا لان الوحدة ستقوي عزائمهم كما ستساعد على التحام القطاع مع الضفة.

**س: ما هو الدور الذي تلعبه البلديات بين الجماهير؟**

ج: البلديات، كما قلت، كانت صادقة والتزمت بمبدأ مفاده ان القيادة يجب الا تنفصل عن الجماهير، بل يجب ان تكون في مقدمتها وغير متسلطة عليها. عليها الا تصدر الاوامر دون مشاركة الجماهير في العمل. حين كنا نعلن الاضراب العام كانت البلديات تضرب، وبلدية الخليل، وفيها اكثر من ٤٠٠ موظف، كانت تغلق ابوابها ايام الاضراب، فتعطي للآخرين الدليل على صدقها. وحين كنا ندعو لمسيرة كان رئيس البلدية واعضاء مجلسها يتقدمون المسيرة، نحن الذين نقرر ونتصدى ونكون في مقدمة المنفذين. كنا نتحمل الكثير من المسؤولية، ولم تكن قرارات الاضراب سرية بل معلنة في بيانات تطبعها البلدية وتوزع علنا في الشوارع بتوقيع رئيس البلدية والمجلس. وكان هذا يعطي قوة اضافية للدعوة الى التصدي. وعلى هذا النحو كنا ايضا ندعو لمؤتمرات ونتحدث امام الجماهير لتعبئتها في الاتجاه المطلوب. لم نكن نفرض القرار فرضا بل نسترشد بارادة الجماهير بحيث يشعر المواطن ان هذا القرار هو قراره، ونحن ننفذه.

**س: هل تعتقد ان هناك دورا آخر يمكن ان تلعبه البلديات؟ وهل يمكنها الاستمرار في لعب هذا الدور؟**

ج: يعتمد الامر على الاشخاص وعلى قدرتهم على التحمل ومهارتهم في التكتيك والمناورة واستخدام اساليب جديدة في النضال. ولا شك في ان البلديات كانت بمثابة جيش، فهناك مقدمة ومؤخرة، وان كان الجيش كله يسعى لهدف واحد. البلديات هي المقدمة وهي قادرة على العطاء والتحدي. وهذا الدور ما زال بيد البلديات حتى هذه اللحظة، ووجود عناصر قادرة على القيام به امر ضروري. والاحتلال كان يتصور ان التخلص من بعض رؤساء البلديات سيفقدها هذه الميزة. الا ان ردود الفعل على خروجنا والنشاطات التي قمنا بها في اوروبا والولايات المتحدة، افقدته صوابه وبدأ يشعر بأنه اخطأ في قراره، لان ابعادنا اعطانا الفرصة كي نتحدث الى العالم ونفضح مزاعم الاحتلال الاسرائيلي. حتى ان بعضهم مضى لحد القول بأننا – اي الاسرائيليين – اخطأنا حين اعطينا، بهذا الابعاد، دفعة الى الامام، لـ م.ت.ف.

وقد فكروا في اسلوب آخر غير الابعاد، للتخلص من رؤساء البلديات، وهكذا وضعوا القنابل تحت سياراتهم لانهائهم جسديا. لكن الله افشل مخططهم هذا وسلم لنا بسام الشكعة وكريم خلف وابراهيم سليمان. ويشعر الاحتلال ان التخلص من رؤساء

البلديات ليس امرا سهلا. وقد بدأ يشدد ضغوطه المباشرة على المواطنين. وها هو ينفذ سياسة القبضة الحديدية، الارهاب الكامل ومنع رؤساء البلديات من التحدث او الخروج من مدنهم ومنع المواطنين من الوصول اليهم.

**س: كان الاحتلال يأمل بأن تتحول المجالس البلدية الى قيادات بديلة، هل تقصد بكلامك انه تخلى نهائيا عن مثل هذه الفكرة؟**

ج: الواقع ان الاحتلال لن يتخلى عن افكاره لكنه يضعها بصور مختلفة. كان يتصور انه يستطيع ان يحقق اهدافه بايجاد قيادات بديلة، معتقدا بأن هناك عناصر وطنية تميل الى ان تصبح في مراكز القوة والسلطة. وهو لم يجد مثل هؤلاء الناس في المجالس البلدية. الا انه لن يتخلى عن هذه الرغبة. وهو يعمل الآن لزرع روح اليأس بين الجماهير وخلق واقع جديد لصالحه. فهو مثلا، ممعن في عملية الاستيطان في المناطق المحتلة بالرغم من ان العالم كله يدين هذه العملية ومن النضالات القوية ضدها. وكأن الاحتلال يريد ان يقول: انظروا، رغم كل ثورتكم في الداخل، ونشاطاتكم في الخارج، ورغم الامم المتحدة والقرارات الدولية، فأنا انفذ الاستيطان، فلا فائدة من تصديكم، والافضل لكم ان تتعاملوا معي، وانا اوقف الاستيطان اذا تعاملتم معي. الاحتلال يريد ايهام الناس بهذا، فمثلا ان القدس لن تصبح قدسين الا عن طريق التعامل مباشرة مع الاسرائيليين، وكل قرارات الامم المتحدة والدول الاسلامية والدول العربية لم توقف الاسرائيليين عن تنفيذ قرارهم. اريد ان الاحظ ان القرار بشأن القدس منفذ منذ عام ١٩٦٧، وحين يعاد طرحه عام ١٩٨٠ فالقصد هو جرح كبرياء المواطن العربي وتيئيسه حتى يشعر بالعجز عن فعل اي شيء.

هذه، في رأيي، تجربة اخرى جديدة يحاولها الاحتلال لعله يزرع اليأس، لعل هذا اليأس يخرج قيادة تقطع الامل بالامة العربية وبالعالم وتقول: لامد مشكلتي مباشرة مع المحتلين. هذا هو ما يسعى اليه الاحتلال.

**س: فما الذي تراه بشأن المستقبل؟**

ج: لا اشك في ان الشعب الفلسطيني سوف ينتصر في النهاية. وكل ما نريد ان نعمله في هذه المرحلة ان نقلل من معاناته وان نقصر من امدها. انتصار الشعب الفلسطيني حتمية تاريخية. تقصير المعاناة يتجسد في العمل لتقريب يوم النصر وتحقيق الدولة الفلسطينية المستقلة. ولانجاز ذلك في اقرب وقت لا بد من ان نحقق اشياء كثيرة، ولا بد من مزيد من الاعتماد على النفس وعدم الاتكال على المجتمع الدولي والامة العربية، وان نحاول تجميع الصف وتوحيد الكلمة، هذا اولا. وعلينا الا نركض كثيرا وراء الحلول. فالحلول الصحيحة نحن الذين نضعها، وليس واشنطن ولا الامم المتحدة ولا المبادرات الاوروبية. نضالنا في الداخل وفي الخارج، هو الذي يضعها، وهو الذي يؤكدها بالطريقة التي نريدها نحن. ثم اننا نعمل في ساحة عربية عريضة وعلينا ان نركز على ساحة اضيق. فالوحدة العربية، وان كانت مطلبا جماهريا، تحقيقها ليس سهلا. ولا بد ان نقوي

علاقتنا مع بعض الدول العربية بحيث نخلق منها قاعدة ثورية وننطلق معها في ميادين النضال الحقيقي. ولا بد ان تكون لنا رؤية واضحة للمرحلة القادمة وكيف نواجه الاحتلال، ولا بد من تشديد النضال في الداخل وتشديد النضال الوطني الفلسطيني بوجه عام، لان آثاره لا تنعكس على القضية الفلسطينية وحدها بل على القضية العربية ككل. وكلما اشتد نضالنا في الداخل ازدادت درجة الغليان في العالم العربي واصبحت الانظمة العربية في مواقف محرجة امام جماهيرها. حتى نضغط على هذه الانظمة لكي تتحدث وتعمل لا بد من قاعدة شعبية نبنيها بمزيد من النضال في الداخل. انني اعتقد ان الاحتلال الذي حاول ضرب القيادات الوطنية في الداخل وضرب الثورة في الخارج سوف يستمر في المحاولة لان الداخل والخارج يشكلان جسرا واحداً، اذا ضرب احد اطرافه فسوف ينهار الطرف الآخر. ولا بد من ان نكون يقظين وبالذات في هذه المرحلة، لان المؤمرات اشتدت فيها.

**س: ما هو الدور المميز الذي يمكن ان تلعبه القوى الفلسطينية الموجودة في الخارج لخدمة الداخل؟**

ج: الداخل والخارج متشابكان، وضعف اي منهما يؤثر على الآخر، ففي اللحظة التي كنا فيها نتصدى للاحتلال، كان موقف الخارج يقدم لنا دعما رائعا وكان الاخ ابو عمار يشرح للعالم كيف يقارع الشعب الفلسطيني الاحتلال بالاجساد وبالحجارة، وكان يبين للعالم مطالب هذا الشعب الذي ينشد حقه ويريد دولة مستقلة، بينما يتمسك الداخل بموقفه حول كون م.ت.ف. الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني باسره، ولا حل بدون الشعب الفلسطيني وتحقيق مطالبه. وبمقدار ما يدعم موقف الجماهير في الداخل مطالب منظمة التحرير بمقدار ما يدعم نضال الخارج الجماهير في الارض المحتلة. ان صمود الخارج يعطي قوة لا تقدر لصمود الداخل والعكس صحيح. الخارج والداخل جسم واحد.

# القضيّة الفلسطينية والمؤتمرات الاسلاميّة ١٩٦٩ـ١٩٧٩

## القمة الاسلامية الاولى بين الفشل والنجاح

بدأت فكرة عقد مؤتمر اسلامي خلال مؤتمر القمة العربي الثالث الذي عقد في الدار البيضاء، في أيلول ١٩٦٥. وقد تبنى الملك فيصل، عاهل السعودية هذه الفكرة مدعوماً من شاه ايران، وذلك خلال زيارة رسمية قام بها الملك السعودي لايران في كانون الأول ١٩٦٥؛ إذ دعا البيان الختامي لهذه الزيارة الدول الاسلامية إلى عقد مؤتمر «لتقوية وحدتهم، ولحماية مصالحهم المشتركة». وقد قام الملك السعودي بزيارة، في هذا الخصوص، خلال عام ١٩٦٦، لكل من الاردن، والسودان، وباكستان، وتركيا، والمغرب، وغينيا، ومالي، وتونس، معلناً، في بداية العام نفسه، «ان هدف المؤتمر هو تقوية الروابط بين الدول الاسلامية وحماية الأماكن المقدسة الاسلامية، ومحاربة العقائد الغريبة». وقد جاءت هذه الدعوة في ذروة المجابهة بين مصر والسعودية، وفي وقت كان الخلاف، حول اليمن، حاداً بينهما. وكان الملك فيصل يريد إنشاء تكتل اسلامي، بزعامته، يواجه به عبد الناصر، رئيس الجمهورية العربية المتحدة، الذي كان يمثل خط التحرير والوحدة العربية. لذا اتخذت هذه الدعوة صيغة مناهضة للخط التقدمي الذي كان يمثله عبد الناصر، وقد عارضها هذا الاخير لانها، كما ذكر «موجهة لضرب الدول العربية التقدمية» وقد ادى الخلاف بين الرئيس المصري والعاهل السعودي إلى طي فكرة عقد المؤتمر إلى ما بعد مصالحتهما التي تمت إثر حرب العام ١٩٦٧ (١).

وبعد ساعات من احراق المسجد الاقصى، في القدس المحتلة في ٣١ آب ١٩٦٩، والذي أثار غضب المسلمين كافة، دعا الملك حسين، ملك الاردن، الملوك والرؤساء العرب «إلى لقاء عاجل يخرجون به مما هم فيه من حيرة وضياع ويرسمون طريقهم الجديدة»(٢). كما دعا الأمين العام للجامعة العربية وزراء الخارجية العرب إلى اجتماع طارىء، عقد في ٢٥ آب في القاهرة. وبعث الملك فيصل برسالة إلى الملك حسين يقترح فيها بدلاً من القمة العربية، عقد قمة اسلامية «لأن الدعم الاسلامي هو الاساسي في هذه القضية بالذات»، ثم تبنى مؤتمر وزراء الخارجية العرب، في ٢٦ آب، الدعوة إلى القمة الاسلامية مؤكداً أهمية عقد

هذا المؤتمر، وعهد إلى السعودية والمغرب باجراء الاتصالات اللازمة لذلك. وخلال عقد مؤتمر وزراء الخارجية العرب، وجه الرئيس عبد الناصر رسالة إلى الملك فيصل يؤيد فيها عقد القمة الاسلامية.

وفي ١٨ ايلول اجتمعت، لجنة تحضيرية مؤلفة من وزراء خارجية السعودية والمغرب وماليزيا وايران والصومال والنيجر وباكستان، في الرباط واقرت مكان المؤتمر وزمانه وسمت الدول التي يجب أن تدعى إليه. وقبل الاتفاق على مكان المؤتمر، أراد الملك فيصل أن يعقد في السعودية تعزيزاً لنفوذه كقائد لهذا التكتل الاسلامي؛ وذلك «لأن الفكرة فكرته ولأن مملكته هي ارض الاسلام وفيها الكعبة وقبر الرسول،» وأراد الملك الحسن الثاني ملك المغرب، أن يعقد المؤتمر في بلاده لأسباب سياسية في الدرجة الأولى. ورأى فيصل في ذكرى الاسراء والمعراج التي توافق الزمان المقترح لعقد المؤتمر (٧ - ٨ تشرين الأول) مناسبة تبرر عقده في مكة. ولكن كان من شأن ذلك أن يحصر تمثيل لبنان بوفد مسلم، لأن المسيحي، كما هو معروف، لا يستطيع دخول مكة، في الوقت الذي كان فيه المؤتمرون حريصين على أن يتمثل لبنان في المؤتمر بوفد مسيحي اسلامي، وهذا ما جعل الرباط مكاناً أفضل لاستضافة المؤتمر(٣).

عقد مؤتمر القمة الاسلامي الأول، في الرباط، بين ٢٢ و٢٥ أيلول ١٩٦٩، «من أجل بحث التطورات في الشرق الاوسط، والخطوات التي يجب اتخاذها لحماية الاماكن الاسلامية المقدسة»(٤). وحضره مندوبو ٢٥ دولة من أصل ٣٦. فقد قاطع المؤتمر فريقان، الأول كان يخشى من الاشتراك فيه، ويتمثل ببعض الدول الافريقية، ذات العلاقة الوثيقة باسرائيل، كسيراليون، وساحل العاج، وغانا، وفولتا العليا، ونيجيريا، وتنزانيا، وغيرها. والثاني كان لا يرى فيه فائدة كسوريا والعراق، فقد اعتذرت الاولى عن الحضور بحجة أن علاقاتها الدبلوماسية مقطوعة مع المغرب، لكن هذا السبب لم يكن كافياً، وبخاصة أن الحسن الثاني كان قد دعا مختار ولدداده، رئيس موريتانيا، إلى الاشتراك في المؤتمر على الرغم من خلافاتهما السياسية. ويعتقد أن السبب الحقيقي وراء عدم اشتراك سوريا يعود إلى شكوكها بدوافع السعودية فضلاً عن أن مقاطعتها لمؤتمر القمة الاسلامي شكلت استطراداً لمقاطعتها لمؤتمر القمة العربي أيضاً.

أما العراق فقد اعتذر عن الحضور بحجة «أنه من العبث حضور مؤتمر كهذا لأن في المؤتمر دولاً لها علاقات دبلوماسية ومصالح مشتركة مع اسرائيل... وارتباطات معروفة بدوائر الاستخبارات الاميركية». ودعا إلى ضرورة تحديد موقف من الاعتداءات والانتهاكات المستمرة للأعراف الدولية والمقدسات. وظل العراق مصراً على رأيه القائل «ان المؤتمر يخدم الامبريالية العالمية، وينعش الرجعية العربية، ويسيء الى المفاهيم الثورية العربية وإلى القضية الفلسطينية أكثر من خدمة القضية بشكل عام». هذا مع العلم ان اشتراك دول كالسودان وليبيا ومصر في تلك الفترة، يدحض هذه الحجة(٥).

وقد غاب الرئيس عبد الناصر عن المؤتمر لأسباب صحية. ويعتقد أنه غاب لأكثر

من سبب واحد. «فهو لا يريد أن يقوم في المنطقة تحالف اسلامي قد يتحول إلى حلف؛ وذلك أمر خاض، في السابق، حرباً ضده. ثم أنه، لو حضر المؤتمر فسيواجه شاه ايران. ومن الطبيعي أن تكون المواجهة صريحة إلى حد أنها قد تقسم المؤتمر إلى مؤتمرين»[٦]، بالنظر لعمق الخلافات التي كانت قائمة بين مصر وايران في ذلك الوقت، وخصوصاً بسبب استمرار علاقات هذه الاخيرة مع اسرائيل برغم عدوان حزيران.

وقد أحدث الحضور الفلسطيني إرتباكاً، وذلك أن رؤساء وفود الدول العربية كانوا يضغطون لمنح عرفات، رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، حق العضوية الكاملة في المؤتمر، بينما كانت وفود الدول الاسلامية، وفي مقدمتها ايران، تعارض هذا الاقتراح. وقبل ثلاثة أيام من افتتاح المؤتمر، توجه سفير المغرب في بيروت إلى عمان، تلبية لطلب الحسن الثاني، ثم وجه دعوة شخصية من الملك المغربي لقيادة المنظمة كي تقوم بزيارة المغرب، خلال عقد المؤتمر. وحضر الوفد الفلسطيني إلى الرباط برئاسة خالد الحسن، عضو اللجنة التنفيذية لـ م. ت. ف. بدلاً من عرفات الذي لم يحضر لأنه كان يدرك أن الاشتراك الرسمي لن يتم[٧]. وفي ٢٣ ايلول، ثاني أيام المؤتمر، منحت م. ت. ف. مركز مراقب[٨]. وبمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الاسلامي الأول، وجه الوفد الفلسطيني نداء طالب فيه تجسيد النقاط التالية:

«أ – تشكيل لجان لدعم قضية فلسطين.

«ب – فتح مكاتب لهذه الغاية في كافة البلدان الاسلامية.

«جـ – شن حملة اعلامية واسعة، لتجنيد الرأي العام.

«د – مقاطعة المنتجات الصهيونية.

«هـ – تسجيل متطوعين من كافة البلدان الاسلامية. وهاجم النداء الصهيونية بشدة، وأدان المعتدين الذين يقومون بهدم المساجد وتحويلها إلى أماكن متعة وخلاعة»[٩].

وطالب الوفد الليبي الدول المشتركة في المؤتمر والتي تقيم علاقات دبلوماسية أو اقتصادية، سرية أو علنية أو مبطنة مع اسرائيل بأن تقطع هذه العلاقات. وكان من شأن التمسك بمطلب كهذا أن يشق المؤتمر ويفشله، فتمت مداخلات، من ضمنها مداخلة للوفد الفلسطيني، الذي رأى أن الظرف لم يكن مهيئاً لتحقيق هذا المطلب، فركز على ضرورة انجاح المؤتمر وحمله على اتخاذ ما يمكن اتخاذه من قرارات مؤيدة للشعب الفلسطيني مع تجنب الموضوعات الحساسة. وقد اعتقد الوفد الفلسطيني انه من المهم ايصال كافة اعضاء المؤتمر الى تفهم عام يكون اساساً لقرارات معقولة لصالح القضية الفلسطينية[١٠].

من جهة اخرى، كان الحسن الثاني حريصاً على أن تصل للمؤتمر برقية تأييد من البابا، لاعتقاده بأن مثل هذه البادرة، من قبل رئيس الكنيسة الكاثوليكية، ستكون بمثابة دعم جديد للقضية. وقد أرسل الحسن الثاني وزير خارجيته، قبل يومين من بدء المؤتمر أعماله إلى الفاتيكان؛ حيث قابل البابا. وعندما وصلت البرقية تبين انها لم تكن، على ما يبدو، كما كان يتوقعها ملك المغرب وقفة تأييد للمؤتمر؛ إذ كانت تحمل موقفاً

واقتراحات، فقد اقترح البابا فيها أن تسهر الديانات الثلاث، الاسلام والمسيحية واليهودية، على الأماكن المقدسة في القدس. ولهذا السبب، لم تقرأ البرقية في المؤتمر(١١).

أما شاه ايران، الذي كانت علاقته الودية باسرائيل سبباً في إضعاف نفوذ التحالف السعودي – الايراني، أمام الرأي العام العربي، والرأي العام في الدول الاسلامية، فقد انتهج في المؤتمر اسلوب المزايدة اللفظية دون أن يلتزم بأية خطوات عملية تقلل من مساندته لاسرائيل. فقد القى الشاه خطاباً أمام المؤتمر أعلن فيه أن بلاده على استعداد لحمل البندقية إذا لزم الأمر وانها تؤيد القضية الفلسطينية وتطالب بتنفيذ قرارات الامم المتحدة(١٢). ويبدو أن الشاه تكلم على هذا النحو ليدعم موقف الملك فيصل إزاء منافسيه من العرب التقدميين في المؤتمر.

وفي الختام اصدر مؤتمر القمة الاسلامي بياناً جاء فيه: «إن رؤساء الدول والحكومات الاسلامية وممثليهم يعتقدون أن الخطر الذي يهدد المقامات الدينية الاسلامية بمدينة القدس انما هو ناتج عن احتلال القوات الاسرائيلية لهذه المدينة، وان المحافظة على الصبغة المقدسة لهذه الأماكن وضمان حرية الوصول اليها، والتنقل فيها، يستلزم أن يسترجع القدس الشريف وضعه الذي استمر عليه طيلة ١٣٧٠ سنة في التاريخ. وبناء على ذلك، فهم يعلنون أن حكوماتهم وشعوبهم مصممة على رفض أي حل للقضية الفلسطينية لا يكفل للقدس وضعها السابق لاحداث حزيران ١٩٦٧. كما انهم يطالبون جميع الحكومات وبصورة خاصة، حكومات فرنسا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وبريطانيا بأن تأخذ بعين الاعتبار تمسك المسلمين القوي بمدينة القدس وعزم حكوماتهم الأكيد على العمل من أجل تحريرها. وانهم يشعرون بقلق عميق لاستمرار الاحتلال العسكري الاسرائيلي للأراضي العربية منذ شهر حزيران ١٩٦٧... ويهيبون بالحاح بجميع أعضاء الاسرة الدولية، وبخاصة الدول الكبرى، لكي تبذل المزيد من الجهود لتحقيق الانسحاب السريع للقوات الاسرائيلية من كافة الاراضي التي احتلتها بعد حرب حزيران ١٩٦٧. ونظراً لتأثرهم العميق بمأساة فلسطين فانهم يقدمون مساندتهم التامة للشعب الفلسطيني لاسترجاع حقوقه المغتصبة ولمواصلة نضاله من أجل تحرير وطنه، ويؤكدون تمسكهم بالحل السلمي شريطة أن يكون قائماً على العدل»(١٣).

وبالرغم من اشتراكها في المؤتمر واصلت القاهرة حملاتها وانتقاداتها، ليس على قراراته التي كانت لم تصدر بعد، وانما على فكرة عقده أساساً، هذا، مع العلم انها كانت من الموافقين على عقده.

وأخذت الصحف المصرية تهاجم المؤتمر باعتباره مؤتمراً عنصرياً دينياً لا يخدم المعركة مع اسرائيل لأنها معركة ضد الاستعمار وضد استغلال الدين(١٤). والواقع أن مصر كانت متخوفة من المؤتمر واتجاهاته. وقد حافظت بتلك الانتقادات على «خط العودة» وعلى موقفها الحذر والمتخوف.

وبالرغم من مجمل الانتقادات التي وجهت للمؤتمر، نجد فيه نواحي إيجابية هي:

أولاً: إن مجرد التمكن من جمع ٢٥ دولة اسلامية، للتباحث في قضية المسجد الاقصى وفلسطين، يعد بحد ذاته، نجاحاً؛ فلم يكن من الهين أن تشارك دول، كتركيا وايران وماليزيا وسواها؛ من الدول المعروفة باتجاهاتها المؤيدة لاسرائيل وبارتباطاتها الوثيقة بها، في مؤتمر قضيته الاولى فلسطين.

ثانياً: رفض اي حل للقضية الفلسطينية لا يكفل للقدس وضعها السابق لأحداث ٥ حزيران ١٩٦٧.

ثالثاً: ابداء عزم الحكومات المتمثلة في المؤتمر على العمل من اجل تحرير القدس.

رابعاً: المطالبة بتحقيق الانسحاب السريع للقوات الاسرائيلية من كافة الأراضي التي احتلتها بعد حرب ١٩٦٧.

خامساً: المساندة التامة التي أبدتها الحكومات المتمثلة في المؤتمر للشعب الفلسطيني لاسترجاع حقوقه المغتصبة، ولمواصلة نضاله من أجل تحرير وطنه.

وقد كان للمؤتمر نواح سلبية هي:

أولاً: لم يقرر المؤتمر الدعوة للجهاد المقدس؛ وهذا يتعارض مع بديهية اسلامية؛ إذ من البديهي للمسلم أن يعلن الجهاد عندما تغتصب مقدساته وارضه.

ثانياً: لم يعلن المؤتمر احتضانه للعمل الفدائي، كما انه لم يتعهد بمساعدته معنوياً ومادياً، ولم يقرر كذلك فتح مكاتب لمنظمة التحرير الفلسطينية في البلدان المشتركة.

ثالثاً: لم يطلب قطع العلاقات مع اسرائيل لأن بعض الدول المشتركة كتركيا وايران، رفضت هذا المطلب.

رابعاً: اعتبر المؤتمر عدوان ٥ حزيران حرباً لا عدواناً ولم تسجل قراراته ادانة صريحة ضده.

خامساً: لقد دخل شاه ايران ووزير خارجية تركيا الموضوع العربي، لكنهما ظلا حذرين وأبديا ملاحظات تحفظية على البيان الختامي كي لا يمس قرارات الامم المتحدة. وقد فشل العرب في تحويل وجهات نظر تركيا وايران وغيرهما، لصالح القضية الفلسطينية وهي قضية اسلامية.

سادساً: تفادى البيان الختامي للمؤتمر ادانة اسرائيل ادانة واضحة.

سابعاً: لم يطلب المؤتمر تحرير فلسطين باكملها؛ وهذا يعني في ظل وجود دول

معترفة باسرائيل، اعترافاً ضمنياً بحق اسرائيل في الوجود على الأرض العربية المحتلة قبل العام ١٩٦٧.

ثامناً: لم تأت قرارات المؤتمر جذرية في تأييدها للحق العربي وانما كانت معتدلة في ذلك.

تاسعاً: لقد ساوى المؤتمر، ضمناً في المسؤولية، بين دول الغرب الكبرى والاتحاد السوفياتي، بالرغم من موقف هذا الأخير الشاجب للعدوان الاسرائيلي، والمؤيد للحق العربي.

وبالرغم مما تقدم، فاننا، وبعد دراستنا للاوضاع القائمة في تلك الفترة؛ حيث كانت الثورة الفلسطينية في أوج قوتها العسكرية وكان نشاطها السياسي الدولي محدوداً، وفي بداية الطريق؛ نجد أن هذا المؤتمر أتاح لها فرصة المشاركة، في وقت كانت فيه الدول العربية، هي التي تضع القرارات حول القضية الفلسطينية وتتكلم باسم الشعب الفلسطيني في المؤتمرات الدولية. إذن، ففي مثل هذه الظروف، وفي ظل مشاركة الشاه وتركيا، يمكن عَد اي تأييد ولو جاء معتدلاً أو نسبياً، واي مكسب، أو انجاز ولو كان بسيطاً، انتصاراً وخطوة إلى الامام.

## مؤتمرات وزراء الخارجية (١٩٧٠ - ١٩٧٣)، من مساندة معنوية كلامية الى مساندة أكثر فعالية ومادية

على ضوء توصية مؤتمر القمة الاسلامي في الرباط، تم انعقاد مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية الاول في جدة، في ٢٣ آذار ١٩٧٠، بحضور مندوبين عن ٢٢ دولة اسلامية اضافة الى ممثل م. ت. ف. الذي اشترك في المؤتمر بصفة مراقب. وقد افتتح الملك فيصل المؤتمر داعياً الى توطيد العلاقات والتعاون والتآخي بين المسلمين. وحضر الجلسة الافتتاحية كل من سفير سوريا وسفير العراق بصفتهما مدعوين مع سفراء الدول الاسلامية، علماً ان سوريا والعراق لم تشتركا في هذا المؤتمر ايضاً(١٥).

وتقدمت الجزائر ومصر وليبيا والسودان، خلال المؤتمر، بمشروع قرار، رفض فيما بعد، يطلب من الدول الاسلامية قطع علاقاتها الدبلوماسية والاقتصادية مع اسرائيل، مكررين بذلك المطلب الذي سبق أن اثير في مؤتمر القمة. وقد رفضت تركيا، بشكل خاص، الموافقة على أي قرار لا يتطابق مع قرارات الامم المتحدة.

وأنشأ لمؤتمر أمانة عامة جعل من جدة مقراً مؤقتاً لها، «حتى تحرير القدس»، ودعا في بيانه الختامي المشتركين في المؤتمر لدعم عرب فلسطين مادياً ومعنوياً، كما طالب بتسهيل انشاء مكاتب لـ م. ت. ف. في أراضيهم. وأدان البيان اسرائيل لتعنتها ورفضها تنفيذ قرارات الجمعية العامة ومجلس الأمن، وادانها ايضاً لرفضها الانسحاب من

الاراضي العربية المحتلة ورفضها الغاء الاجراءات التي اتخذتها والتي تستهدف ضم مدينة القدس المقدسة وتغيير وضعها. وادان البيان الحركة الصهيونية بوصفها حركة عنصرية عدوانية وتوسعية معارضة لكل المثل العليا للبشرية، وخطراً دائماً على السلم العالمي. كما اعاد تأكيد كل القرارات التي اتخذت في مؤتمر القمة الأول(١٦).

ومن الجدير بالذكر، أن الدولتين الكبيرتين حاولتا التأثير على نتائج المؤتمر، بحيث أن كلاً منهما أرادت تجييره لصالحها. «فالولايات المتحدة [مثلاً] رأت أن أفضل وسيلة تستطيع ان تلجأ اليها، آملة تمييع قرارات المؤتمر وامتصاص حماسة المتحمسين من اعضائه ضد العدوان الاسرائيلي، هي ان تقف موقفاً مائعاً من قضية تسليم طائرات الفانتوم لاسرائيل، ولهذا لم تقرر اعطاءها لها، كي لا تتحمس الدول الاسلامية ضدها، وعللت موقفها بالحرص على ميزان القوى حين اعلنت أن قرار الرفض قابل لاعادة النظر بصورة مستمرة، وهكذا لا يمكن التغاضي عن محافظتها على خط الرجعة، بحيث تعود إلى اعلان موافقتها على تسليم الطائرات الحربية لاسرائيل بعد... انهاء مؤتمر جدة الاسلامي»(١٧). واعتبر بعض العرب أن إرجاء صفقة الفانتوم هذه هي تهديد معنوي لهم، في حين اعتبرها البعض الآخر «انتصاراً دبلوماسياً». أما الاتحاد السوفياتي فقد أعلن عن قيامه بارسال صواريخ جديدة،ارض – جو،للجمهورية العربية المتحدة وعن ارسال خبراء سوفيات بهذه الصواريخ يتولون مساعدة المصريين على استعمالها ضد الطائرات الاسرائيلية؛ وقد أراد الاتحاد السوفياتي من هذا العمل أن يظهر أنه لا يزال السند والمصدر الذي يمد العرب بالسلاح، وهكذا ضمن بقاء جميع الجسور منسوفة بين أميركا والعرب(١٨). ومما لا شك فيه أن المؤتمر حقق بعض المكاسب، فقد كان مناسبة لـ م. ت. ف. كي تخلق حواراً مع الدول الاسلامية. كما أن بيانه الختامي دعا إلى مساندة الشعب الفلسطيني سياسياً ومادياً ومعنوياً في كفاحه، وتسهيل إقامة تمثيل لحركة التحرير الفلسطينية في البلاد الاسلامية. وقد ابلغت اندونيسيا، فعلاً، الوفد الفلسطيني السماح بفتح مكتب لـ م. ت. ف. فيها وإن كان هذا المكتب لم يفتح إلى اليوم فذلك لأن اندونيسيا لم تطبق قرارها كما أن المؤتمر أقام يوماً سنوياً للتضامن مع كفاح الشعب الفلسطيني، وقد اختير يوم ذكرى احراق المسجد الاقصى موعداً لذلك اليوم.

ولا تعني هذه المكاسب أن المؤتمر خلا من السلبيات، فالواقع أن هذه كثيرة فيه، وقد تمثلت في بقاء قراراته في حدود العموميات، وفي فشله في اتخاذ قرار بقطع العلاقات مع اسرائيل بالرغم من تزايد الادانة العالمية لعدوانها على البلاد العربية، وفي عجز الدول العربية عن إقناع ايران وتركيا بالذات بمساندة القضية الفلسطينية، وإذا كان البيان الختامي للمؤتمر قد تضمن الدعوة لمثل هذه المساندة فإنه لم يحدد نوعها وكميتها مما أبقاها حبراً على ورق. ثم أن الخلاف العربي حول انشاء الامانة العامة برز وكأنه القضية الاولى التي تهم المسلمين في حين احتلت القضية الفلسطينية المرتبة الثانية من الاهتمام في المؤتمر.

وفي ٢٦ كانون الأول ١٩٧٠، افتتح مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية الثاني في

كراتشي بالباكستان بحضور مندوبين عن ٢٢ دولة اسلامية، وقد حضرت م. ث.ف. المؤتمر كمراقب، وتغيب عنه كل من العراق، وسوريا، والسودان، واليمن الديمقراطية[١٩].

واستعرض المؤتمر آخر تطورات الاوضاع في الشرق الاوسط، والاجراءات التي اتخذتها الدول الاعضاء في سبيل تنفيذ مقرارات المؤتمرات السابقة. وانطلقت وفود الدول العربية، ووفد م. ت. ف. في حملة نشيطة لحث الدول الاسلامية الاخرى على ضرورة تنسيق جهودها مع الدول العربية لجمع الطاقات كلها كي تكون في خدمة معركة التحرير. وقد تساءل البعض عن أسباب عدم اشتراك الدول الاسلامية في نظام مقاطعة اسرائيل الذي اعتمدته الدول العربية بنجاح منذ عام ١٩٤٩ تقريباً. وانطلاقاً من ذلك قدم الوفد الغيني إلى المؤتمر سؤالاً قال فيه: ما هو الدور الذي يجب أن تلعبه الدول الاسلامية في هذا المؤتمر تجاه القضية الفلسطينية؟ وجاء هذا السؤال الغيني، في معرض مناقشة المؤتمر لدراستين، الاولى قدمها الوفد الاردني إلى المؤتمر، يبين فيها انتهاكات اسرائيل للمقدسات الاسلامية، واستمرار التوسع الاحتلالي للأراضي العربية في مدينة القدس والمنطقة المجاورة لهـا بالارقام والوقائع والخرائط؛ والثانية قدمها وفد الجمهورية العربية المتحدة عن المراحل التي قطعتها محاولات استئناف المباحثات مع الدكتور غونار يارنغ المبعوث الدولي للشرق الأوسط، والمقترحات الاميركية للتسوية السلمية»[٢٠].

وقد أثارت الدعوة إلى توحيد مواقف الدول الاسلامية من قضية الشرق الاوسط جدلاً تركز حول تباين مواقف الدول العربية من هذه القضية. وكان هذا التباين قد بدا شديد الوضوح، في الجمعية العامة للامم المتحدة، أثناء التصويت على مشروع قرار يقضي بتمديد وقف اطلاق النار حتى الخامس من شباط عام ١٩٧١، على أن تستأنف المحادثات مع د. يارنغ. وقد طلبت الوفود الاسلامية من الدول العربية أن تحدد ما تريده هي أولاً وماذا تريد منها ثانياً. وكان الوفد المصري قد حث الدول الاسلامية على «أن تمارس ضغطاً معاكساً لضغط الصهيونية العالمية، وذلك لحمل البيت الابيض على وقف المساعدات العسكرية والاقتصادية لاسرائيل، أو على الاقل، لحثه على عدم التراجع عن مقترحاته السابقة لحل أزمة الشرق الأوسط سلمياً». وقرر المؤتمر تأييد الموقف المصري من مقترحات وزير الخارجية الاميركي روجرز، والتمسك بمواقفه السابقة سواء تجاه تحرير القدس أو بالنسبة لقرار مجلس الأمن الدولي[٢١]. وأكد البيان الختامي للمؤتمر، من جديد، القرارات السابقة للمؤتمرات الاسلامية، كما سجل تأييده لاتفاقي القاهرة وعمان المبرمين بعد حرب ايلول ١٩٧٠ بين م. ث. ف. والاردن. واوصى المؤتمر أن تسود الاخوة والتعاون علاقات الحكومة الاردنية وم. ت. ف. وبتنسيق كافة الجهود في وجه الصهيونية. وطلب منهما احترام الاتفاقات المعقودة بينهما نصاً وروحاً. وأشار البيان إلى دعم المسيحيين لقضية الدفاع عن الأماكن المقدسة والحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني[٢٢].

لم يأت المؤتمر بجديد، كما أنه لم يعلن، مرة أخرى، عن الخطوات العملية التي يجب اتخاذها لتنفيذ القرارت، هذا مع العلم انه كان قد انشأ امانة عامة لهذا الغرض. وهكذا

نرى أن قرارات هذا المؤتمر لم تتخط قرارات المؤتمرات الاسلامية السابقة، بل ظلت على نفس المستوى من التأييد. وقد كان هذا الوضع، في أحد جوانبه، انعكاساً للوضع العربي الذي كان يعيش آثار محنة ايلول، ولم تستطع المنظمة في ظل وضع كهذا أن تفرض ارادتها على المؤتمر.

وفي ٢٩ شباط ١٩٧٢، اجتمع المؤتمر الثالث لوزراء خارجية الدول الاسلامية في جدة بحضور مندوبين عن ٢٩ بلداً اسلامياً بينها سوريا والسودان وم. ت. ف. التي حضرت المؤتمر بصفة مراقب. أما العراق واليمن الديمقراطية فقد تغيبا عنه [٢٣]. وكانت سوريا تشترك لأول مرة في المؤتمرات الاسلامية؛ وذلك بعد ان اصبحت، ومنذ اواخر ١٩٧٠، قيادتها بيد الرئيس حافظ الاسد، الذي الغى اسلوب مقاطعة المؤتمرات العربية والاسلامية.

وقد القى الملك فيصل خطاباً افتتاحياً حث فيه الوفود على تحمل مسؤولياتها التاريخية الاسلامية، ومما جاء في الخطاب: «إن اخواننا الفلسطينيين سواء في لبنان أو في خلافه، ما قاموا بأي عمل إلا دفاعا عن حقهم المشروع ودفاعاً عن وطنهم وكرامتهم، ولذلك وجب علينا جميعاً أن نقف بجانب أخوتنا في لبنان واخوتنا في المقاومة الفلسطينية حتى نمكنهم من الصمود لاعدائهم والمكافحة عن حقوقهم وكرامتهم... لأن الكل مشتركون في المسؤولية، ولا شك أن العرب هم في المقدمة بالنسبة لقضية فلسطين... فشريعتنا وعقيدتنا دائماً تحض من يؤمن بالله أن يكافح ويناضل ويرد عدوان كل معتد، ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه» [٢٤]. وفي هذا المؤتمر قدم الوفد الفلسطيني مشروعاً، يتضمن:

أولاً: تأكيد القرارات السابقة لمؤتمرات وزراء الخارجية الاسلامية، بشأن دعم ومساندة نضال الشعب الفلسطيني، وبشأن تسوية الخلاف بين الثورة الفلسطينية والنظام الاردني، وتأييد الوساطة المصرية بهذا الخصوص.

ثانياً: انشاء لجنة للعمل على تنفيذ القرارات الصادرة عن مؤتمرات وزراء الخارجية الاسلامية لنصرة ودعم الشعب الفلسطيني، ولتطوير العلاقات بين حكومات وشعوب العالم الاسلامي وبين الثورة الفلسطينية.

ثالثاً: أن يحيي المؤتمر لبنان الذي يقف إلى جانب الثورة الفلسطينية بالرغم من الصعاب والاعتداءات الصهيونية.

رابعاً: التنديد بالانتخابات البلدية التي تعمل سلطات الاحتلال على إجرائها في الضفة الغربية وقطاع غزة لأنها غير شرعية، ودعوة جماهير الارض المحتلة إلى مقاطعتها.

خامساً: فتح باب التطوع في بلدان العالم الاسلامي للمشاركة في الجهاد ضد العدو الصهيوني، وانشاء صندوق للجهاد من أجل فلسطين، تجمع فيه التبرعات الشعبية والحكومية، وتحول إلى صندوق الثورة الفلسطينية، وابداء الرغبة بتخصيص مساعدات

سنوية مالية للثورة الفلسطينية، وإقامة اتصالات بين وزرات خارجية العالم الاسلامي وبين الثورة الفلسطينية، بهدف تبادل المشورة والمعلومات لمواجهة العدو الصهيوني ومخططاته، وانشاء لجان محلية في مختلف بلدان العالم الاسلامي لصالح النضال الفلسطيني وشرح اخطار الصهيونية والاستعمار على الشعوب الاسلامية(٢٥).

وقد اقر المؤتمر اقتراحاً جزائرياً يدعو إلى وضع «قضية فلسطين» كبند منفصل عن قضية الشرق الاوسط في جدول الاعمال، وإلى وضع بند آخر يدعو الى تضامن الدول الاسلامية مع الشعوب الافريقية المكافحة ضد الاستعمار والتمييز العنصري(٢٦).

وقد حدث في المؤتمر، مشادة كلامية عنيفة بين ممثل م. ت. ف. ومندوب الاردن، سرعان ما أوقفت بغية منع اتساع شقة الخلاف(٢٧).

ومن الجدير بالذكر، انه كان من الصعب ان تعرض قضية فلسطين، بتفرعاتها على المؤتمر، وأن يتبناها هذا بلونها العربي القومي، والسياسي؛ وذلك لانه كان يضم دولاً ترتبط باسرائيل دبلوماسياً، وهي غير مستعدة لتجاوز مقررات الامم المتحدة واتخاذ مواقف تتناقض مع ارتباطاتها هذه. لهذا تقرر أن يحصر البحث في موضوع القدس وحدها بصفتها مدينة مقدسة، تجتمع فيها مقدسات اسلامية ومسيحية ويهودية ؛ فوافق المندوبون على الوقوف صفاً واحداً في وجه اسرائيل، ضد ضم القدس وتهويدها(٢٨)؛ ومما ساعد الوفد الفلسطيني في مهمته أن المؤتمر كان قد تلقى مذكرة بشأن تهويد القدس من المؤتمر الاسلامي السابق يؤكد فيها على معارضة ضم المدينة المقدسة أو تهويدها.

وبعد أن تدارس المؤتمر مشكلة الشرق الأوسط، وقضية فلسطين، تم التوصل لوضع قرارات عملية بصدد هاتين القضيتين المترابطتين واللتين تشكلان تهديداً للسلام العالمي. فأعيد تأكيد القرارات التي اتخذت في المؤتمرات السابقة، واتخذ قراران جديدان يدعو الاول منهما الى القيام باجراءات سياسية واقتصادية جذرية ضد اسرائيل، وإلى انشاء صندوق للجهاد، ويدعو الثاني إلى وقف تهويد القدس وارسال برقية تأييد لرؤساء لبنان وسوريا وم. ت. ف. اثر الاعتداءات التي قامت بها اسرائيل على كل من لبنان وسوريا. ولاحظ البيان الختامي بالتقدير دور المسيحيين في الدفاع عن الاماكن المقدسة وعن حقوق الشعب الفلسطيني(٢٩). وبالرغم من ان الحرب الباكستانية – الهندية، التي كانت ناشبة آنذاك، قد شغلت انظار وبال المجتمعين والمراقبين، وبالرغم من أن المؤتمر لم يقرر قطع العلاقات مع اسرائيل ولم يحدد طبيعة الاجراءات الجذرية التي ستتخذ ضدها، فقد كان وبخاصة عبر بيانه الختامي بمثابة تأييد أكبر وأشمل، وتفهم أعمق للقضية الفلسطينية ولطبيعة الكيان الصهيوني حتى إن بعض الاعضاء «طالب المؤتمر باتخاذ اجراءات عملية تتجاوز القرارات السياسية، كفرض عقوبات اقتصادية وسياسية»(٣٠). وقد قام المؤتمر بالخطوة العملية الاولى، منذ البدء بعقد المؤتمرات الاسلامية، إذا انشأ صندوقاً للجهاد، لصالح الثورة الفلسطينية، بعد أن كانت هذه الأخيرة لا تلقى منه سوى المساندة المعنوية.

وفي ٢٤ آذار ١٩٧٣، افتتح المؤتمر الرابع لوزراء خارجية الدول الاسلامية في بنغازي بحضور مندوبي ٢٨ بلداً، وكانت اليمن الديمقراطية ممثلة فيه، وغابت عنه سوريا، أما ايران والاردن والمغرب فلم تحضره بسبب خلافاتها مع ليبيا. وقد حضره العراق وم. ت. ف. كمراقبين[٣١].

وتقدم مندوب م. ت. ف. بمشروع قرار يؤكد فيه على أن دعم الدول العربية والاسلامية لكفاح الشعب الفلسطيني لتحقيق حقوقه الوطنية المشروعة، واعادة اراضيه المغتصبة هو واجب يمليه التضامن الاسلامي ومبادىء العدالة والسلام. ويطالب بالاعتراف بـ م. ت. ف. كممثل وحيد وشرعي للشعب الفلسطيني. ويدعو المؤتمر إلى أن يتفهم رفض الثورة الفلسطينية للقرار (٢٤٢)، وإلى اتخاذ قرار ينص على ضرورة انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي العربية المحتلة[٣٢]. وقد أكد البيان الختامي للمؤتمر القرارات الاسلامية السابقة بخصوص القضية الفلسطينية واعتبر م. ت. ف. الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. واعلن التزام المؤتمرين بتقديم المساندة المادية والسياسية والمعنوية للشعب الفلسطيني من اجل ان يستعيد ارضه المحتلة، وكي يحبط المحاولات الهادفة إلى تصفية الثورة الفلسطينية. وطالب الدول الاسلامية بأن تفتح مكاتب للمتطوعين من أجل القتال لتحرير الاراضي المقدسة وبان توضح موقفها تجاه الوجود الصهيوني، وجدد النداء الداعي الى قطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع الكيان الصهيوني. كما جدد رفض المؤتمر لكل الاجراءات الاسرائيلية، داخل الارض المحتلة واعتبارها باطلة ولاغية [٣٣].

هذه القرارات، فيما يرى عدد من المراقبين، غيرت اتجاه المؤتمرات الاسلامية التي كانت، حتى ذلك الوقت، واقعة تحت هيمنة القوى الرجعية. وبها اصبحت المنظمة الاسلامية اداة سياسية أميل إلى دعم حركات التحرر في الدول الاسلامية وغيرها، خصوصاً في افريقيا. وقد انعكس هذا التحول في البيان الختامي والقرارات الصادرة عن المؤتمر؛ إذ يعترف مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية، لأول مرة، بـ م. ت. ف. كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني، وكان هذا أول اعتراف دولي بها. على هذا الاساس؛ ولأول مرة ايضاً يطلب فتح مكاتب للتطوع وينادى بقطع العلاقات مع اسرائيل.

وقد جاء هذا التطور السياسي نتيجة للحملة العربية الواسعة التي قامت بها مصر وسوريا وليبيا والجزائر وغيرها، في ذلك الوقت، بهدف عزل اسرائيل دولياً وتوسيع الاعتراف الدولي بمنظمة التحرير.

## مؤتمر القمة الاسلامي الثاني

بدأ مؤتمر القمة الاسلامي الثاني أعماله، في ٢٢ شباط ١٩٧٤، في لاهور. ومما لا شك فيه أن الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة التي حدثت في تشرين الأول ١٩٧٣، والتي استخدم العرب فيها سلاح النفط، وخرجوا منها بانتصار معنوي، قد ساعدتهم على الظهور كقوى اقتصادية سياسية في المنطقة، باستطاعتها فرض بعض المطالب السياسية

في المؤتمرات الدولية. كما أن م. ت. ف. ظهرت في المنطقة بعد حرب ١٩٧٣، كقوة عسكرية وسياسية فعالة لا يمكن التغاضي عنها.

افتتح مؤتمر القمة الاسلامي الثاني، الذي سُبق بمؤتمر تمهيدي لوزراء الخارجية[٣٤] بحضور مندوبي ٣٧ بلداً، ولأول مرة تمثلت الدول العربية كلها في المؤتمر، ولأول مرة ايضاً دُعيت م. ت. ف. لحضور المؤتمر «كعضو كامل الحقوق دون الاشارة إلى ذلك في نص معين، وبذلك وضعت (فلسطين) ضمن الدول المشاركة في المؤتمر. وعلى هذا الاساس، شارك وفدها في أعمال المؤتمر مشاركة فعالة في مختلف اللجان والهيئات»[٣٥]. ففي مؤتمر وزراء الخارجية الذي سبق مؤتمر القمة وفي لجنة كبار المسؤولين التحضيرية لعب الوفد الفلسطيني دوراً هاماً في تعديل تسمية الموضوع الذي ورد في ورقة العمل الباكستانية، فاستبدلت التسمية التالية: «الوضع في الشرق الاوسط واستعادة حقوق المسلمين في القدس» بـ «الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية وتمسك المسلمين القوي بمدينة القدس وعزم حكوماتهم الاكيد على العمل من أجل تحريرها». وحملت ورقة العمل الباكستانية ما يلي: طلب رئيس م. ت. ف. الاشتراك في مؤتمر القمة، وعلى وزراء الخارجية، طبقاً للقواعد السابقة، البت في هذا الطلب. وقد اعترض الوفد الفلسطيني على النص، إذ أن تمثيل م. ت. ف. في المؤتمرات السابقة كان تلقائياً، بصفتها عضواً في هذه المؤتمرات، ولم يطلب رئيس المنظمة الاشتراك في هذا المؤتمر. وقد جرى تعديل الفقرة المذكورة بحيث أصبحت: «وجهت الدعوة إلى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية للاشتراك في مؤتمر القمة الاسلامي الثاني»[٣٦].

أما في إطار لجنة الصياغة، فقد حمل الوفد الفلسطيني مشروع قرار يدعو إلى الاعتراف ب م. ت. ف. كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني، والاعتراف بحق الشعب الفلسطيني بتقرير مصيره على أرضه، وحقه في الكفاح المسلح من أجل تحريرها كما يدعو الدول الاسلامية إلى قطع علاقاتها بالكيان الصهيوني على جميع المستويات، وإلى ادانة الولايات المتحدة الاميركية لمواقفها العدائية ازاء القضية الفلسطينية ودعمها لاسرائيل. وكان الوفد السوري قد قدم مشروع قرار شاملاً عن الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية. فاعتبر المشروعان اساساً للبحث، مما استدعى، للخروج بمشروع موحد، تشكيل لجنة صياغة مصغرة، اشترك فيها الوفد الفلسطيني.

وفي الكواليس، اتضح أن عدة دول تعترض على بعض فقرات مشروع قرار لجنة الصياغة المصغرة وبخاصة تلك التي تتعلق بقطع العلاقات مع اسرائيل وإيقاف شحن النفط إلى كل من البرتغال وروديسيا وجنوب افريقيا، وادانة الولايات المتحدة الاميركية. وقد جرت عدة محاولات، لكن بدون جدوى لاسقاط هذه الفقرات أو تعديلها. ووصل مشروع القرار إلى مؤتمر وزراء الخارجية كاملاً كما وضعته لجنة الصياغة المصغرة.

وكانت ايران من الدول التي اعترضت على تلك الفقرات، فقد اعلن مندوبها أن

القرار يعتبر تدخلاً في الشؤون الداخلية للدول الاعضاء، وهذا يتعارض مع الميثاق الاسلامي للمؤتمر، وان «قضية العلاقات بين ايران واسرائيل هي من صميم السياسة الايرانية العليا الخاصة. أما بالنسبة لايقاف شحنات النفط عن بعض الدول العنصرية والاستعمارية، فإن ذلك لا يخضع للسياسة الايرانية بل انه من طبيعة عمل الشركات التي تتسلم النفط الايراني وتتولى توزيعه». واعلن المندوب الايراني ايضاً تحفظ بلاده على تلك الفقرات مهدداً بأن ايران ستضطر لتعليق عضويتها في المؤتمر الاسلامي، ان كان هناك اصرار على ابقاء مشروع القرار كما هو. واعلن المندوب الاندونيسي، بدوره، انه يرفض اي قرار يعرض المؤتمر او وحدة المسلمين الى الاهتزاز. واعترضت بعض الدول العربية وباكستان على ادانة الولايات المتحدة الاميركية، واقترحت حذف كلمة «الولايات المتحدة» لتصبح الفقرة عامة دون اي تحديد. لكن الوفد الفلسطيني، مدعماً من الجزائر وموريتانيا والصومال واليمن الديمقراطية وبعض الدول الاخرى، اصر على إبقاء الادانة واضحة وقوية، واضعاً المؤتمر أمام خيار وحيد وهو قبول النص كما ورد في مشروع القرار. وقد افلحت الباكستان في اقناع كل من ايران وتركيا واندونيسيا باللجوء إلى اسلوب آخر في مجابهة الفقرات المعترض عليها. وهكذا تحفظت ايران وتركيا على الفقرات المذكورة، بعد اقرار القرار وقبوله، في مؤتمر وزراء الخارجية، متضمناً النصوص الاساسية التي وضعها الوفد الفلسطيني[٣٧]. وقد تضمن القرار فيما يتعلق بالشرق الأوسط والقضية الفلسطينية، تأكيداً لكل القرارات الاسلامية السابقة، فأيد العرب في نضالهم من أجل تحرير اراضيهم كما أيد حقوق الشعب الفلسطيني بما فيها حقه في تقرير المصير، وشرعية كفاحه. وادان اسرائيل لانتهاكها قرارات الامم المتحدة، واحتلالها أراضي عربية في حرب ١٩٦٧ وطلب منها الانسحاب من تلك الاراضي. كما ادانها بسبب الاجراءات التي تتخذها في الاراضي المحتلة، وبخاصة تهويد مدينة القدس، واعتبر تلك المدينة عربية مسلمة ورفض اي حل لا يعيد وضعها الى ما كان عليه قبل ٥ حزيران ١٩٦٧. وقرر «مواصلة الجهاد في سبيل تحرير مدينة القدس الشريفة». وجاء في القرارات، تأكيداً لمطالب م. ت. ف. ما يلي: يعرب المؤتمر «عن يقينه ان الدعم العسكري والاقتصادي والسياسي والادبي الذي تقدمه بعض الدول، بالأخص الولايات المتحدة الاميركية، لاسرائيل يمكنها من مواصلة تنفيذ سياستها العدوانية وترسيخ احتلالها للأراضي العربية». واكد المؤتمر ان م. ت. ف. هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، ونضاله المشروع. وطالب بفتح مكاتب للمنظمة في الدول الاعضاء. وطلب من الدول الاسلامية ان تقطع علاقاتها باسرائيل، في كافة المجالات تدعيماً للتضامن الاسلامي[٣٨].

ومن الجدير بالذكر، أن الوفد الاردني ابدى تحفظه على الفقرة المتعلقة بتمثيل م. ت. ف. للشعب الفلسطيني ونضاله المشروع، إلا أن هذا التحفظ جاء بعد اعلان الموافقة على القرار، فقرة فقرة، من قبل رئيس المؤتمر، وهكذا سقط التحفظ الاردني.

ومن الجدير بالذكر ايضاً، أن الانتصار المعنوي الذي حققه العرب في حرب ١٩٧٣ قد ساعد على أن يكون المؤتمر أكثر ايجابية من السابق، لذا اظهرت قراراته، على حد

تعبير احد المراقبين، «تماسك مواقف الدول الاسلامية شبه الموحد، ازاء القضية الفلسطينية والعربية، لدرجة أنها تعتبر نقلة نوعية هامة، إذا ما قورنت بقرارات مؤتمرات وزراء الخارجية الاربعة السابقة». ويستدرك المراقب قائلاً: «ولكن القيمة العملية لهذه القرارات ستبقى محدودة إذا لم يسع الى تطبيقها»[٣٩].

والواضح حتى هذا التاريخ، أن قرارات المؤتمرات الاسلامية لم تتعد قرارات الامم المتحدة وخصوصاً قرار مجلس الامن الدولي (٢٤٢) الذي اتخذ عام ١٩٦٧ بشأن الانسحاب الاسرائيلي، أي أن المؤتمرات لم تتخذ قراراً بادانة اسرائيل يتعدى حدود إدانة عدوان عام ١٩٦٧، ولم تذكر القرارات المعنية ولو مرة واحدة، إن فلسطين، بكاملها، بلد عربي مسلم.

## مؤتمرات وزراء الخارجية بين ١٩٧٤ و١٩٧٩

شهدت منطقة الشرق الأوسط في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٧٤ و١٩٧٩، عدة أحداث وتقلبات سياسية؛ ففي هذه الفترة حققت م. ت. ف. جملة انتصارات سياسية دولية، وفيها تبلورت مبادرة السادات التي ادت إلى رضوخ رئيس جمهورية مصر العربية الكامل لاسرائيل؛ هذا الرضوخ الذي تمثل بالاعتراف بالعدو الاسرائيلي وانهاء حالة الحرب معه، وفيها ايضاً حدثت الحرب الفلسطينية – الاسرائيلية، في الجنوب اللبناني وتصاعد العمل العسكري الفلسطيني داخل الارض المحتلة مما اعطى لـ م. ت. ف. زخماً عسكرياً سياسياً متزايدين، وتوج هذا بسقوط شاه ايران، حليف اميركا واسرائيل، وانتصار الثورة الاسلامية في ايران. وبطبيعة الحال، كان لكل هذا انعكاساته داخل المؤتمرات الاسلامية.

وفي ٢١ حزيران ١٩٧٤، عقد مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية الخامس، في كوالالامبور، بحضور مندوبين عن ٣٦ بلداً. وقد حضرت م.ت.ف. المؤتمر، لأول مرة، كعضو كامل وبصفة رسمية لا لبس فيها، وقد تحدث باسم فلسطين في المؤتمر فاروق القدومي، رئيس الدائرة السياسية في م. ت. ف. فاتهم الولايات المتحدة بأنها وراء اسرائيل ذات الطبيعة العدوانية، وأكد معارضة المنظمة للقرار (٢٤٢)، وأشار إلى عدم تنفيذ قرارات المؤتمرات الاسلامية السابقة[٤٠].

وقد كانت قرارات هذا المؤتمر تكراراً لقرارات المؤتمرات الاسلامية السابقة، فلم تأت بأي جديد على صعيد القضية الفلسطينية؛ إذ كانت قضية الفليبين، والتفجير النووي الهندي الشاغل الاكبر للمؤتمر الذي كان عادياً جداً.

وفي ١٢ تموز ١٩٧٥، عقد المؤتمر السادس في جدة بحضور مندوبي ٣٨ بلداً[٤١] ومن الجدير بالذكر، أن هذا المؤتمر جاء بعد اعتراف الجمعية العامة للامم المتحدة ب م. ت. ف. كممثل شرعي للشعب الفلسطيني، ومنحها صفة عضو مراقب في المنظمة الدولية، وبعد الانتصارات السياسية الاخرى التي حققتها م. ت. ف.

افتتح الأمير سعود الفيصل، وزير الخارجية السعودي المؤتمر الاسلامي، فألقى

بالنيابة عن الملك خالد، كلمة كرر فيها أمنية الملك فيصل بأن «نصلي جميعاً في المسجد الاقصى وقد عادت القدس عربية»، وحث على العمل بالقرارات التي اتخذتها المؤتمرات الاسلامية السابقة. وكان الملك خالد قد أصر على أن يحضر ياسر عرفات بنفسه، المؤتمر، وارسل إلى دمشق طائرة خاصة كي تنقل رئيس اللجنة التنفيذية لـ م. ت. ف. إلى جدة. وقد عكست مبادرة الملك خالد هذه الوزن السياسي المتحقق لمنظمة التحرير بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، وتمتعها بالتأييد الاجماعي في كتلة عدم الانحياز، فضلاً عن الدول الاسلامية، كما عدها بعض المراقبين تأييداً لزعامة عرفات[٤٢].

وقد خصصت لجنتان، من اللجان الأربعة التي أنشأها المؤتمر، للقدس وفلسطين. وأثناء المناقشات كان حسن التهامي، الأمين العام للمؤتمر ورئيس الوفد المصري قد أثار عاصفة من النقد وذلك بعد تلاوته تقريراً مطولاً دعا فيه إلى انشاء كتائب كفاح مسلحة من الدول الاسلامية غير العربية، والقيام بزحف سلمي مقدس إلى مدينة القدس. وكما لا يخفى، فالاقتراحان متناقضان. ودافع الخولي عن توجهه المتمشي مع اسلوب التفاهم الدولي، حول اوضاع الشرق الاوسط كلها، مطمئناً بأن هذا التوجه بحث مع الرئيس الاميركي فورد، قبل قمة سالز بورغ التي جمعت بينه وبين الرئيس السوفياتي بريجينيف[٤٣]. وهكذا جاء اقتراح التهامي بعيداً عن الاقتراح المطلوب الذي ينص على تجسيد الطاقات من أجل التحرير، وعلى الدعوة إلى الجهاد، وتجنيد إمكانيات الشعب المسلم لانقاذ مقدساته. من الطبيعي ألا يرفض وفد م. ت. ف. الفكرة الاولى من الاقتراح، بالرغم من ادراكه لاستحالة تنفيذها، فرحب فاروق القدومي بأي دعم لنضال الثورة الفلسطينية سواء كان مادياً أم عسكرياً أم بشرياً. لكن معظم الوفود الاخرى رأت ان الفكرة قد تسبب انقسامات، بين الدول الاعضاء، وأن م. ت. ف.، ودول المواجهة، تحتاج إلى السلاح والدعم المادي، أكثر مما تحتاج إلى العنصر البشري. أما بالنسبة لفكرة الزحف السلمي، فقد استبعد فوراً، لعدة اسباب، منها أنها ليست سهلة التنفيذ وقد تستفيد منها اسرائيل دعائياً، إذا سمحت للمسيرة بالوصول إلى القدس، وهكذا سقط اقتراح الامين العام فوراً.

ومن الجدير بالذكر، أن الاجتماع الذي كان مقرراً عقده بين مصر وسوريا والاردن وم. ت. ف. لاجراء مصالحة بين الآخرين، بغية تعزيز التنسيق بين قوى المواجهة، قد تأجل مراراً[٤٤].

ونشط الوفد الفلسطيني في المؤتمر، فتقدم بمذكرتين ومشروع قرار. تتحدث المذكرة الاولى عن محاولة الانروا التخلص من ادائها خدماتها، وتبحث الثانية في وضع القدس تحت الاحتلال الصهيوني وتنتهي إلى حث المؤتمرين على اتخاذ التدابير والاجراءات لمنع تهويد المدينة المقدسة[٤٥]. ويحتوي مشروع القرار الخاص بقضية فلسطين اقتراحاً بطرد اسرائيل من الجمعية العامة للامم المتحدة، والاقتراح هذا يلتقي مع اقتراح تقدم به الوفد السوري، للمؤتمر. وأثناء تداول المؤتمرين في الأمر هدد كيسنجر، وزير الخارجية الاميركية، العالم الثالث بقطع الدعم عنه، في حال اتخاذه قراراً بهذا الخصوص، كما

حذر من استعمال الأمم المتحدة كاداة سياسية «بدلاً من أن تكون مكاناً لفض النزاع ولتحسين مستوى الانسانية»(٤٦).

ونحدى المؤتمر تهديدات كيسنجر واتخذ قراراً «يدعو الدول الاعضاء للعمل في المحافل الدولية على طرد اسرائيل من المنظمة الدولية لانتهاكها المتكرر مبادىء وميثاق الامم المتحدة ورفضها تنفيذ قرارات هذه المنظمة» وطالب المؤتمر الدول الاعضاء «التي لا تزال لها علاقات سياسية أو ثقافية أو اقتصادية مع اسرائيل بأن تقطع هذه العلاقات في كافة المجالات، تدعيماً للتضامن الاسلامي». وقرر المساندة الكاملة والفعالة للشعب الفلسطيني في نضاله المشروع لاسترجاع حقوقه الوطنية بما فيها حقه في العودة وفي تقرير المصير وفي السيادة على أرضه واقامة سلطته الوطنية المستقلة. واكد المؤتمر أن مسؤولية تمويل وكالة الغوث هي مسؤولية دولية، وأدان كل محاولة للتخلي عنها. وجدد اعترافه ب م. ت. ف. كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني، واعتبر اجراءات اسرائيل في تهويد مدينة القدس باطلة، كما اكد عزيمة المسلمين على تحريرها(٤٧). وقد وافق المؤتمرون وبينهم ايران وتركيا على هذه القرارات بالاجماع ودون أي تحفظ. فاعتبرت الموافقة عل تلك القرارات، من قبل بعض الدول، التي لا تزال على علاقات جيدة مع اسرائيل، تغييراً في خطها السياسي. ففي الماضي، بقيت ايران وتركيا بعيدتان عن النزاع العربي الاسرائيلي. ولكنهما اخذتا في هذه الفترة تظهران ميلاً جزئياً إلى العرب، وذلك بسبب الروابط الاسلامية، واساساً ، بسبب المصالح السياسية والاقتصادية. فلإيران مصالح امنية في الخليج تعتمد على التعاون مع عرب المنطقة. كما ان لها مصالح اقتصادية في تقوية منظمة الدول المصدرة للنفط الاوبيك (OPEC)، إذ أن سبعة من اعضائها عرب؛ لهذه الاسباب كانت إيران تسعى لتحسين علاقاتها مع جيرانها العرب، فصارت تؤيد مواقفهم وقراراتهم في المؤتمرات الدولية(٤٨). أما تركيا فقد انحرف اتجاه خطها السياسي، بحدة، نحو البلاد العربية الغنية، بغية الحصول على المساندة الاقتصادية والسياسية، وذلك منذ ارتفاع اسعار النفط بعد حرب ١٩٧٣. وهناك سبب آخر لهذا الاتجاه الجديد، فتركيا تسعى، منذ أن غزت قبرص، إلى تأمين الدعم العربي والاسلامي للقبارسة الاتراك. ومما لا يخفى على أحد انها، في موافقتها على القرار الاسلامي بطرد اسرائيل، تحدت، وهي العضو في حلف «الناتو»، الولايات المتحدة(٤٩).

أما الامتحان الفعلي للنوايا الايرانية والتركية، ولبعض الدول الافريقية، فكان في تطبيق القرارات التي توصي بقطع العلاقات مع اسرائيل وبطردها من الامم المتحدة. فلدى تركيا علاقات دبلوماسية كاملة مع اسرائيل، وهناك اتصال وثيق بين عشرين الف يهودي ما زالوا مقيمين، في تركيا وبين مئتي الف تركي يهودي هاجروا إلى الدولة الصهيونية منذ العام ١٩٤٨. أما ايران فظلت حتى، سقوط عهد الشاه تبيع النفط لاسرائيل وترسله إلى المتوسط، عبر الانابيب الاسرائيلية في خليج العقبة.

وقد اعتبرت دول المعسكر الغربي، وخصوصاً الولايات المتحدة، انه لا يحق للجمعية العامة، حسب ميثاق الامم المتحدة، طرد اي عضو. لكن البلاد الاسلامية رأت انه من الممكن ان تحصل على

اغلبية الاصوات، من قبل العالم الثالث، مما يشكل ضغطاً دولياً لدعم العرب والفلسطينيين منهم خاصة. وهذا ما عبر عنه عبد المحسن ابو ميزر الناطق الرسمي باسم اللجنة التنفيذية عندما قال: ان هذا القرار هو جواب العالم الاسلامي على تهديدات كيسنجر[٥٠].

ومن الجدير بالذكر، أن القرار دعا الدول الاعضاء «للعمل»، في المحافل الدولية، على طرد اسرائيل من المنظمة الدولية. وقد فسره البعض على أساس أن المطالبة بطرد اسرائيل لن تثار في دورة الجمعية العامة للعام نفسه، واعتقد أن القصد منه توفير الجو الملائم لتعليق عضوية اسرائيل[٥١]. على اي حال، فقد فازت فلسطين بنصيب كبير من جهد المؤتمر، وجاءت القرارات، وإن بقيت تفتقر إلى التنفيذ، نصراً كبيراً لها.

وفي ١٢ ايار ١٩٧٦، عقد، في اسطنبول، المؤتمر السابع لوزراء خارجية الدول الاسلامية بحضور مندوبين عن ٤١ بلداً[٥٢]. وبالرغم من أن المؤتمر لم يتطرق إلى كون تركيا معترفة باسرائيل، وأنها ترتبط معها بتمثيل دبلوماسي ؛ ومن أن «البعض تعامل مع هذه القضية كأمر واقع، إلا أن ظل العلاقات التركية الاسرائيلية كان يخيم على المناقشات ويعكر صفوها باستمرار» وقد أوضح المسؤولون في الخارجية التركية موقفهم قائلين: «نحن مستعدون للحد من علاقاتنا مع اسرائيل، إذا وجدنا ان لنا مصلحة أكبر في التعامل مع العرب، وعليهم أن يثبتوا لنا ذلك». وكان الموقف التركي قد تحدد بوضوح منذ اللحظات الاولى للمؤتمر، إذ قال ديميريل، رئيس الوزراء التركي، في كلمته التي افتتح بها المؤتمر: «أن تركيا تؤيد الفلسطينيين ومنظمة التحرير ممثلة لهم، وتريد من العرب أن يؤيدوا موقفها في قبرص». وكان الكلاج، أمين وزارة الخارجية التركية، قد أعلن هذا الموقف في الجلسة الاولى للجنة التحضيرية. ومما جاء في كلمة ديميريل: «نحن ندرك تماماً انه لا يمكن تحقيق السلم أو العدالة باغفال الظلم والمحن التي يتعرض لها الشعب العربي الفلسطيني، والجالية التركية المسلمة في قبرص»[٥٣] ومنذ الجلسة الافتتاحية، وافقت الحكومة التركية على فتح مكتب لـ م. ت. ف. في انقرة، إرضاء منها للعرب. وقد اتخذت السلطات الايرانية، الخطوة نفسها في ١٥ أيار من العام نفسه[٥٤]. ولكن تركيا لم تقطع علاقاتها مع اسرائيل.

وقد اتخذ المؤتمر الذي تركز نشاطه على قضيتي فلسطين وقبرص، عدة قرارات يتعلق أحدها بمشكلة الشرق الاوسط عموماً ويتناول الثاني القضية الفلسطينية خصوصاً، وقد اكد هذا القرار، القرارات السابقة بما فيها حق الشعب الفلسطيني في العودة، وتقرير المصير، واقامة دولته المستقلة في فلسطين. واتخذ المؤتمر قراراً آخر ادان فيه الصهيونية كعقيدة استعمارية توسعية عنصرية امبريالية تشكل خطراً مباشراً يهدد السلم والامن الدوليين، وادان اسرائيل لسجنها واعتقالها ونفيها المواطنين العرب المناضلين في الاراضي المحتلة ولسوء معاملتها اياهم، وطالب باطلاق سراح المعتقلين فوراً. واتخذ المؤتمر قراراً، بشأن المسجد الاقصى والحرم الابراهيمي، اعتبر فيه أن جميع التدابير التي اتخذتها اسرائيل بخصوصهما باطلة ولاغية. كما اتخذ قراراً، بشأن دعم صمود ونضال الشعب العربي في الاراضي المحتلة، منذ عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧، وأكد

تضامنه معه من أجل التحرير واستعادة حقوقه، وقرر تخصيص جزء من رصيد صندوق التضامن الاسلامي لدعم الشعب العربي في الاراضي المحتلة، منذ عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧، حتى يتم التحرير[٥٥]. وقد نال هذا القرار الاجماع رغم ذكر الاراضي المحتلة منذ العام ١٩٤٨ كما لم يتردد المندوبون بالكلام عن تلك الاراضي[٥٦] وقد كان هذا اول قرار اسلامي حولها؛ ومما لا شك أنه يمثل انتصاراً سياسياً مهماً للقضية الفلسطينية.

أما المؤتمر الثامن لوزراء خارجية الدول الاسلامية، الذي عقد في طرابلس، في ١٦ ايار ١٩٧٧، بحضور مندوبي ٣٨ بلداً، والذي تغيبت عنه كل من مصر والسودان وايران لخلافها السياسي مع ليبيا، فقد اعاد تأكيد القرارات السابقة، وطالب دول العالم بوقف دعمها لاسرائيل مهدداً، الدول التي تستمر في هذا الدعم، باتخاذ مواقف منها واعرب المؤتمر عن اسفه الشديد لاستعمال الولايات المتحدة حق النقض، في مجلس الامن في ٢٩ حزيران ١٩٧٦، لاسقاط مشروع قرار بخصوص حقوق الشعب الفلسطيني. واكد المؤتمر حق م. ت. ف. في رفض التسويات الاستسلامية الاميركية والمشاريع التصفوية، وحقها في الاشتراك بصورة منفصلة، وعلى قدم المساواة، في الجهود السلمية الدولية. واقترح بأن تقوم جميع البلدان الاسلامية باصدار طابع بريدي خاص لمصلحة فلسطين[٥٧].

اما المؤتمر التاسع لوزراء الدول الاسلامية الذي عقد في داكار، في ٢٤ نيسان ١٩٧٨، بحضور كل الاعضاء، اي ٤٢ بلداً[٥٨]، فقد انعقد مسبوقاً بحدثين بارزين لكل منهما دلالته المختلفة، بل والمتناقضة. أول هذين الحدثين زيارة الرئيس المصري آنور السادات للقدس المحتلة، التي تمت في تشرين الثاني ١٩٧٧؛ وثانيهما الحرب الفلسطينية الاسرائيلية التي نشبت في الجنوب اللبناني في آذار ١٩٧٨، والتي ظهرت فيها قوة الثورة الفلسطينية ومقدرتها على التصدي، مما عزز مكانتها في المنطقة كقوة لا يمكن إغفالها بأي شكل من الاشكال، وهكذا انعقد المؤتمر في ظل ادانة عربية شاملة لما سمي بمبادرة السادات. لكن هذا الجو لم يمنع حدوث مناقشة حامية سبقت إقرار مشروع القرار الخاص بفلسطين، بسبب ما تضمنه من ادانة للولايات المتحدة الاميركية، نظراً للمساعدات العسكرية والاقتصادية التي تقدمها لاسرائيل. وهذا ما عارضه مندوبا السعودية والسنغال، فقد طالبا في حال ادينت اميركا، بادانة الاتحاد السوفياتي بحجة موافقته على هجرة كثير من اليهود السوفيات إلى اسرائيل، مما يعني امدادها بالعنصر البشري. وقد تم التوصل إلى حل وسط باضافة فقرة إلى مشروع القرار تدين اية دولة تمد اسرائيل باي شكل من المساعدات. وقد تمت الموافقة على القرار لكن مصر وتشاد تحفظتا على الفقرة التي تتعلق بادانة الولايات المتحدة.

ومما يجدر ذكره هنا، أن مؤتمر القمة الاسلامي الثاني كان قد أدان الولايات المتحدة بسبب علاقتها الخاصة باسرائيل.

ووجه المؤتمر بصيغة غير رسمة، نداء إلى الولايات المتحدة يطلب فيه منها الاعتراف بـ م. ت. ف.، وما لبث هذا النداء أن تحول، بعد الجلسة الاخيرة والموسعة، إلى قرار[٥٩].

وقد اعاد المؤتمر تأكيد القرارات السابقة، وحيا صمود الثورة الفلسطينية، ومقاومتها للغزو الاسرائيلي في جنوب لبنان. واكد «ان قضية فلسطين هي جوهر مشكلة الشرق الاوسط، وانه لا يمكن تجزئة القضية، ولا اتخاذ حل انفرادي، كما اكد على ضرورة الحفاظ على وحدة القضية، ووحدة الصف، لدي معالجة قضية فلسطين، ومشكلة الشرق الاوسط». واكد ايضاً على «ان أي جهد يبذل لاقامة سلم عادل ودائم في الشرق الاوسط، يجب آن يقوم على أساس الانسحاب من جميع الاراضي العربية المحتلة، والاعتراف بالحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني». وفي قرار آخر مماثل أكد المؤتمر من جديد أن «قضية فلسطين هي جوهر الصراع في منطقة الشرق الأوسط، وأن أي تجاهل لهذه الحقيقة لا يخدم قضية السلام في العالم، كما أن كل المحاولات التصفوية والاستسلامية التي تقودها الولايات المتحدة الاميركية، خدمة لمصالحها، في المنطقة، ومحافظة على الوجود الصهيوني العنصري في فلسطين المحتلة، باعتماد الحلول الثنائية، أو القفز عن جوهر القضية، لن تؤدي الى اي حل عادل. ولهذا يدينها المؤتمر، ويرفضها، ويدعو الى مقاومتها بكل الوسائل والاساليب؛ كما يدين كل السياسات والممارسات التي تشكل مساساً بقرارات مؤتمرات الدول الاسلامية او خروجاً عليها...» وأكد حق م. ت ف. برفض جميع التسويات الاستسلامية الاميركية، وكافة المشاريع التصفوية، واكد تأييد الدول الاعضاء للمنظمة، ودعا العالم إلى دعمها في هذا السبيل(٦٠).

وهكذا اتضح موقف المؤتمر الاسلامي، بأغلبية أعضائه، وعبر قراراته، وهو موقف رافض لأي حلول منفردة مع الكيان الصهيوني. وكان هذا الموقف نصراً سياسياً ل م. ت. ف. وللدول العربية التي وقفت ضد المبادرة.

أما المؤتمر العاشر لوزراء خارجية الدول الاسلامية فقد انعقد في ظل حدثين شديدي الاهمية، الحدث الأول سلبي بتأثيره على القضية الفلسطينية. فقد أكمل السادات دربه ووقع اتفاقات كمب ديفيد ومعاهدة الصلح المنفردة بين مصر واسرائيل، في ايلول ١٩٧٨ وآذار ١٩٧٩، مخالفاً ومتنكراً، بذلك، لكل القرارات الدولية، بما فيها قرارات المؤتمرات الاسلامية التي كانت تنادي دائماً بأن م. ت. ف. هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، وتؤكد حق هذا الشعب في تقرير المصير وباقامة دولته المستقلة، وتطالب اسرائيل بالانسحاب الفوري، غير المشروط من الاراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧. والاتفاقات التي وقعها السادات اشارت إلى مستقبل الاراضي الفلسطينية المحتلة، وبهذا اعطى السادات لنفسه حقاً، لم يخوله اياه الفلسطينيون، وقدم سلسلة تنازلات منها قبوله «الحكم الذاتي» للفلسطينين تحت الاحتلال الاسرائيلي، والسلام الدائم مع اسرائيل. وهذا يعني أن السياسة المصرية انتقلت من موقعها العربي في القارة الافريقية والامة الاسلامية، إلى أحضان اميركا واسرائيل مبتعدة عن جذورها الاسلامية، خالقة فجوة في التضامن الاسلامي والعربي. والحدث الثاني ايجابي فقد انتصرت الثورة الاسلامية، بقيادة الامام اية الله الخميني، في ايران في بداية عام ١٩٧٩، وانتقلت ايران، بعدهذا الانتصار، من الموقع المعادي للعرب والمؤيد لاسرائيل إلى موقع الحليف والسند للثورة الفلسطينية.

وقد انعقد المؤتمر العاشر في فاس، في ٨ أيار ١٩٧٩، بحضور مندوبي ٤٠ بلداً، وقد تم استبعاد مصر من المؤتمر[٦١] الذي تمحورت نقاشاته حول الأوضاع التي نجمت عن المعاهدة الاسرائيلية المصرية.

وكان قرار اللجنة التحضيرية لمؤتمر وزراء الخارجية الخاص بتعليق عضوية مصر، قد أثار غضب القاهرة فوصفته بأنه قرار طائش وعملية تخريب.

وفي أول جلسة كاملة له، اتخذ المؤتمر قراراً اجماعيا بتعليق عضوية مصر في منظمة المؤتمر الاسلامي إلى اجل غير مسمى. ولم تشترك في التصويت ، من الدول العربية، كل من سلطنة عمان والسودان وست دول افريقية كانت تنتظر موقف منظمة الوحدة الافريقية. وقد شمل القرار تعليق عضوية مصر، في جميع الهيئات والمؤسسات واللجان المنبثقة عن المنظمة، مع التأكيد على استمرار التعاون مع شعب مصر عدا المتعاونين مع اسرائيل منه. كما انه شجب زيارة السادات للقدس، وتوقيعه اتفاقية كامب دايفيد ومعاهدة الصلح مع اسرائيل، باشراف وتوجيه مباشر من الولايات المتحدة الاميركية، وعلى حساب عروبة القدس والحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني[٦٢].

وقد قوبل هذا التوجه بالارتياح والتأييد فرأى عبد الحليم خدام، وزير خارجية سوريا، أن المؤتمر الاسلامي كان على مستوى المسؤولية. كما اعتبر فاروق القدومي، رئيس الدائرة السياسية لـ م. ت. ف. «ان الاسباب التي دعت إلى تعليق عضوية مصر هي من أجل أن تعود الينا مصر وان تكون بجانبنا»[٦٣]. وأعلن محمد بوستة وزير خارجية المغرب ورئيس المؤتمر، عن تصحيح اسم الدورة الحالية فصارت تحت اسم «دورة فلسطين والقدس الشريف»، واعتبار العام الهجري ١٤٠٠ عام القدس والمسجد الاقصى[٦٤]. واقترحت الجماهيرية الليبية إقامة حلف عسكري للدفاع عن الاسلام وقدم وزير الخارجية السعودي، سعود الفيصل، اقتراحاً بتشكيل لجنة عليا لتحرير القدس، تضم عدداً من وزراء الخارجية، برئاسة الملك الحسن الثاني للعمل على اقناع العالم بضرورة عودة القدس إلى السيادة العربية، واجراء الاتصالات مع كافة الدول والحكومات من أجل تحقيق هذه الغاية. ودعا اقتراح الفيصل، أيضاً، إلى اعتبار أن القدس هي قضية اسلامية جوهرية[٦٥]. وقبل المشروع السعودي، فشكلت اللجنة وعين الملك الحسن رئيسها[٦٦].

وقد اتخذ المؤتمر عدة قرارات بشأن القضية الفلسطينية والشرق الأوسط أعاد فيها التأكيد على القرارات السابقة وبخاصة على حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة، كما انه قرر العمل على وضع استراتيجية تستهدف تحرير فلسطين، وممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه الوطنية، وأكد ضرورة منح ممثلي م. ت. ف. في الدول الاسلامية، «جميع الحقوق والمزايا والحصانات الممنوحة للبعثات الدبلوماسية». وفيما يتعلق بمساعي الولايات المتحدة جاء في قرارات المؤتمر: «إن محاولات ومساعي الولايات المتحدة الاميركية، لخدمة مصالحها ونفوذها في المنطقة، ولتصفية قضية فلسطين المحتلة،

بتشجيعها الحلول الثنائية والجزئية، وتجاهل جوهر القضية، لن تؤدي الى حل عادل؛ لذا فان المؤتمر يدين هذه المحاولات والمساعي، ويدعو الى مقاومتها، كما يدين جميع هذه السياسات والممارسات والتنازلات التي تشكل مساساً بقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة، ومؤتمرات الدول الاسلامية». أما اتفاقيات كامب ديفيد فقد ادانها المؤتمر واعتبرها انتهاكاً للشرعية الدولية وقرارات الامم المتحدة، ورفض جميع نتائجها، بوصفها حلاً ثنائياً تجاهل جوهر قضية الشرق الاوسط المتمثل بقضية فلسطين، ومحاولة لتصفية الحقوق الفلسطينية، ودعا إلى مقاومتها. مؤكداً حق م. ت. ف. برفض واسقاط جميع اشكال التسويات والمشاريع التصفوية والاستسلامية وبخاصة مشروع الادارة الذاتية. واكد المؤتمر ايضاً حق م. ت. ف. في الاشتراك المستقل والمتكافىء، في جميع المؤتمرات والمحافل والنشاطات الدولية المعنية بقضية فلسطين، وبالصراع العربي الصهيوني(٦٧).

وكما ذكرنا سابقاً، فيما يتعلق بالقرارات التي كانت تصدر عن المؤتمرات الاسلامية، يمكن اعتبار القرارات هذه، وإن لم تقدم شيئاً عملياً، بمثابة انتصار سياسي ل م. ت. ف.، إذ حظيت بموقف سياسي مساند لمواقفها من الدول الاسلامية الممثلة في المؤتمر الاسلامي.

---

(١) Fiches du Monde Arabe (F.M.A.), «*The Islamic* conferences» (1) 1- Up to 1970, IV- 37, general subjects politics «**وكالة انباء الشرق**» Beirut.

(٢) فؤاد مطر، «القمة الاسلامية الأولى: لم تنجح ولم تفشل. لماذا طلب الفلسطينيون من ليبيا سحب اقتراحها قطع علاقات الدول الاسلامية باسرائيل؟» «**النهار**»، بيروت، ٢ / ١٠ / ١٩٦٩.

(٣) **المصدر نفسه**.

(٤) «**الحياة**»، بيروت، ٢٣ / ٢ / ١٩٧٢.

(٥) «النهار»، **مصدر سبق ذكره**، محمد علي مكي، «**دولتنا وموقفها من الدول المعاصرة**»، بيروت، الكويت، دار التوجيه الاسلامي، ١٩٧٩، ص ٤٥ – ٨٥.

(٦) «النهار» **مصدر سبق ذكره**.

(٧) **المصدر نفسه**؛ محمد علي مكي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٥ – ٨٥.

(٨) F. M. A, *Op., cit.*

(٩) محمد علي مكي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٥ – ٨٥.

(١٠) «النهار»، **مصدر سبق ذكره**.

(١١) **المصدر نفسه**.

(١٢) محمد علي مكي، **مصدر سبق ذكره**.

(١٣) محمد محمد الفحام، «**المسلمون واسترداد بيت المقدس**»، مجمع البحوث الاسلامية، سلسلة البحوث الاسلامية، تموز ١٩٧٠.

(١٤) محمد علي مكي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٥ – ٨٥.

(١٥) مطيع النونو، «السقاف يدعو إلى اغلاق ابواب آسيا وأفريقيا في وجه الصهيونية»، «**الحياة**»، ٢٤ / ٣ / ١٩٧٠.

(١٦) حنا غصن، «فلسطين في مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامي» «**الاسبوع العربي**»، بيروت، ٣٠ / ٣ / ١٩٧٠؛ F.M.A, *op. cit.*

(١٧) ابو البشر الكاتب، «صواريخ روسيا وفانتوم اميركا، تمثيلية تخريبية على مؤتمر جدة»، «**الحياة**»، ٢٣ / ٣ / ١٩٧٠.

(١٨) **المصدر نفسه**.

(١٩) F.M.A. *Op., cit.* F.M.A. «*The Islamic Conferences (2)*» IV 38 general sugjects, Politics، وكالة الانباء الشرق Beirut,

(٢٠) محمد السماك، «ثالث تحرك اسلامي لدعم القضية الفلسطينية»، «**الاسبوع العربي**» ٤ / ١ / ١٩٧١.

(٢١) **المصدر نفسه.**

(٢٢) جهاد الخازن، «قرارات اجماعية تؤيد حق الشعب الفلسطيني ووجوب انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي المحتلة»، **«الحياة»** ٢٩ / ١٢ / ١٩٧٠.

(٢٣) F.M.A. *Op., cit.*

(٢٤) كمال ناصر برهم «القضية الفلسطينية في المؤتمر الاسلامي الاخير» **«الرأي العام»**، الكويت، ١٧/٣/١٩٧٢.

(٢٥) **المصدر نفسه.**

(٢٦) **«النهار»**، ١٢ / ٣ / ١٩٧٢.

(٢٧) **«النهار»**، ٣ / ٣ / ١٩٧٢.

(٢٨) حنا غصن «القدس البند الاول في مؤتمر وزراء خارجية»، **«الاسبوع العربي»** ٦ / ٣ / ١٩٧٢.

(٢٩) **«الحياة»** ٥ / ٣ / ١٩٧٢.

(٣٠) «الرأي العام»، **مصدر سبق ذكره.**

(٣١) *Op., cit.*

(٣٢) *(l,orient le jour* 27 Mars 1973.

(٣٣) **العلم**، المغرب، ٢٨ / ٣ / ١٩٧٣.

(٣٤) F.M.A. *Op., cit.* F.M.A. *(Islamic Conferences) (3)* general subjects, Politics, IV - 39.

(٣٥) نبيل الرملاوي، «مؤتمر القمة الاسلامي الثاني والقضية الفلسطينية» (تقرير خاص)، **«شؤون فلسطينية»** بيروت، مركز الابحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، العدد ٣٢، ص ١٩٤.

(٣٦) **المصدر نفسه.**

(٣٧) **المصدر نفسه.**

(٣٨) **المصدر نفسه.**

(٣٩) **المصدر نفسه.**

(٤٠) F.M.A , *The Islamic conferences»* -3- from June 1978 to 1968, general subjects, Politics, IV- 39. «وكالة انباء الشرق» بيروت.

(٤١) F.M.A. *(Op., cit.)*.

(٤٢) **«النهار»**، المقال ١٣ / ٧ / ١٩٧٥.

(٤٣) نشأت التغلبي، «مؤتمر لفاجآت الخمس»، **«الحوادث»** بيروت، ٢٥ / ٧ / ١٩٧٥؛ **«الاهرام»**، القاهرة، ١٢/٧/١٩٧٥، **«الحياة»**، ١٤/٧/١٩٧٥.

(٤٤) **المصدر نفسه.**

(٤٥) **«النهار»**، ١٣ / ٧ / ١٩٧٥.

(٤٦) *(NY Times)* 16 July 1957

(٤٧) **«الحياة»**، ١٦ / ٧ / ١٩٧٥،

(٤٨) *(NY Times)* (17 July 1975)

(٤٩) **المصدر نفسه**، 17 *(Financial Times)* July 1975.

(٥٠) **المصدر نفسه.**

(٥١) نشأت التغلبي، **مصدر سبق ذكره.**

(٥٢) F.M.A. *(Op. cit.)*

(٥٣) **الاهرام**، ٢١ / ٥ / ١٩٧٦.

(٥٤) *Le Monde* , 18 Mai 1976

(٥٥) General Assembly, A; 31 / 237, 4 October 1976.

**قرار رقم ٧/١٧ سي بشأن مشكلة الشرق الاوسط؛**

**وقرار رقم ٧/١٣ سي بشأن قضية فلسطين؛**

**وقرار رقم ٧/١ سي بشأن العنصرية والصهيونية؛**

**وقرار رقم ٧/١٥ سي بشأن دعم وصمود ونضال الشعب العربي في الاراضي المحتلة؛**

**وقرار رقم ٧/٩ سي بشأن المسجد الاقصى الشريف والحرم الابراهيمي.**

(٥٦) *(Le Monde, 18 Mai 1976, opcit).*

(٥٧) **«السفير»**، ٢٣ / ٥ / ١٩٧٧،

(٥٨) (UN.General Assembly A-31-235 7 oct 1977 **قرار رقم ٤ / ٨ س بشأن فلسطين؛ قرار رقم ٥ / ٨ س بشأن مشكلة الشرق الاوسط.** (F.M.A. *(The IslamicConferences)* IV 94 From 1977 to 1979. general Subjects, Politics

**«وكالة أنباء الشرق»** بيروت، ١٣ / ٦ / ١٩٧٩.

(٥٩) **«السفير»**، ٣٠/٤/١٩٧٨.

(٦٠) «قرارات اسلامية هامة بشأن قضية فلسطين والقدس» **«فلسطين»** الهيئة العربية العليا، العدد ١٨٨، ١٨ / ٩ / ١٩٧٨

(٦١) **«السفير»** ١٩ / ٥ / ١٩٧٩.

(٦٢) **«السفير»** ١٠ / ٥ / ١٩٧٩.

(٦٣) **المصدر نفسه.**

(٦٤) **المصدر نفسه.**

(٦٥) **«السفير»** ١١ / ٥ / ١٩٧٩، *(Le Matin (Paris)* 12 Mai 1979).

(٦٦) *(Le Monde)* (7 Juillet 1979, **(Le figaro)** (Paris) 14 Mai 1979).

(٦٧) **«البعث»** دمشق، ١٣ / ٥ / ١٩٧٩.

فيصل حوراني

# الرفض العربي الرسمي لإسرائيل
## ١٩٤٤-١٩٥٠

يمكن القول، من غير خشية الوقوع في الخطأ، ان زمام المبادرة انتقل الى أيدي الدول العربية، فيما يتعلق بتحديد المواقف العربية في المسألة الفلسطينية، منذ سنوات الحرب العالمية الثانية. وكان من شأن قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية، فيما سبق من سنوات، ان تأخذ بعين الاعتبار الشديد مواقف الدول العربية، او ان ترضخ لها في عدد غير قليل من المرات، الا ان الأمر اختلف اثناء الحرب وبعدها. واصبحت الدول العربية، على نحو ما ، هي صاحبة القرار العربي، تأخذ بعين الاعتبار موقف قيادة الحركة الوطنية، او لا تأخذه، وزمام المبادرة، في الحالتين في يدها.

وكان لهذا الانتقال، بطبيعة الحال، اسبابه؛ وأخصّها الصلة بين الحركات الوطنية في بلدان المشرق العربي، التي انبثقت عن حركة عربية قومية واحدة، وامتداد هذه الصلة عبر السنين برغم تجزيء الحركة الى حركات منفصلة، وحاجة الفلسطينيين الى السند العربي في كل الاوقات أمام حملة الاعداء الكثيرين والمقتدرين، وايمان فرقاء الحركة العربية القومية بأن مصير فلسطين يؤثر بمقدار او بآخر، على مصائرهم ومصائر بلدانهم كافة، وصلة هؤلاء الفرقاء كافة بالدول الغربية وحاجتهم لعونها وتبعيتهم لها، مما جعلهم على تماس مباشر ومشترك بسياستها ازاء فلسطين ايضاً. ويمكن، بعد هذا، ان نشير الى العامل الذي استجد اثناء الحرب وبعدها، وهو بروز وزن الدول العربية المستقلة ونمو مصالحها، بعد ان اصبح الاتجاه الى الاستقلال وتوطيده، في ظل نمو البرجوازيات العربية المحلية، تياراً قوياً، حفزه الانتصار الهائل للقوى الديمقراطية في العالم ضد جبهة الفاشية. هذا العامل كانت له تأثيرات متعددة على المسألة الفلسطينية برمتها، متعددة ومتداخلة ومتعارضة في واقع الأمر. وانصبت التأثيرات كلها في اتجاه نقل زمام المبادرة نهائياً الى ايدي الدول العربية، تحت تأثير تطور قدرتها على مساندة عرب فلسطين من جهة، وحاجتها الى ضبط حركتهم وحركة صراعهم مع الصهيونية والاستعمار البريطاني ثم مع

اميركا، بحيث لا يؤدي هذا الصراع الى احراج الدول العربية في علاقات التعاون القائمة بينها وبين بريطانيا والولايات المتحدة، كلما امكن ذلك من جهة اخرى.

ولا شك في ان غياب قادة الحركة الوطنية الفلسطينية عن البلاد في ظروف الحرب وقوانينها الاستثنائية، اضافة الى تجمعهم في عدد من العواصم العربية، كان من بين الاسباب التي يصح ايرادها لتفسير هذا الانتقال، لكنه لم يكن السبب الجوهري، ولم يكن حتى سبباً جوهريا؛ فوزن الدول العربية المتزايد وطبيعة مصالحها هما اللذان اوجبا هذا الانتقال.

واقترن بهذا العامل، عامل آخر تفرع عنه، يتصل بالصراعات العربية، العلنية والسرية، التي احتدمت مع تمايز الدول وترسخ مصالح الكيانات المنفصلة والأسر والكتل الحاكمة والطبقات التي تسندها، وحاجات كل منها لكسب تأييد الرأي العام العربي المتعاطف مع مطالب الشعب الفلسطيني، من خلال تقديم العون له حين تبيح القدرات او الاعتبارات السياسية ذلك، ومن خلال التضليل في احيان كثيرة. وهذا العامل، بدوره، وبوجهيه السلبي والايجابي، ادى، من جهة، الى تشدد الدول العربية في التدخل في المسألة الفلسطينية ولعب دور اكبر فيها. وادى، من جهة اخرى، الى تحسين أساليب التحايل، والتضليل، وبالتالي الى المزايدة من اجل ستر الفروق الكثيرة بين الوعود التي تزجى لأوساط الرأي العام، وبين القدرات والنوايا الفعلية.

وقد رأينا، بسبب هذا كله، ان الدول العربية، منذ انتقل اليها زمام المبادرة بكامله، صارت تتبنى، علنا، المطالب ذاتها التي اجمعت عليها غالبية الشعب العربي الفلسطيني والأساليب ذاتها، وتقع في الاخطاء ذاتها ايضاً، وفي التناقضات المتمثلة في التمسك بمطالب الحركة الوطنية الفلسطينية بالرغم من التبدل الكبير في الظروف من جهة، والاصرار على تلبية هذه المطالب من خلال مزيد من التبعية لبريطانيا، ثم للولايات المتحدة الاميركية، التي دفعتها نتائج الحرب الى مركز قيادة العالم الغربي الرأسمالي، من جهة اخرى.

شهدت الفترة التي امتدت بين انشاء «جامعة الدول العربية» في العام ١٩٤٤ واتمام توقيع اتفاقات الهدنة الدائمة مع اسرائيل في العام ١٩٥٠، جملة التطورات الحاسمة التي ادت، في وقت واحد، الى اعلان قيام اسرائيل، وتغييب الدولة العربية الفلسطينية وتشتيت الشعب الفلسطيني وتجزيء فلسطين وتغييب اسمها ذاته عن الخارطة الجغرافية للشرق الاوسط، وعجز الدول العربية، حتى برغم دخولها حرباً رسمية مع اسرائيل، عن منع قيامها او منع الاعتراف بها من غالبية المجتمع الدولي، مع استمرار شعارات الرفض التقليدي ضد الصهيونية واستطراداً ضد اسرائيل، ثم ضد الاعتراف باسرائيل وضد التفاوض معها على تسوية وبالتالي ضد الصلح.

والحق انه من المفيد ان نتوقف بعض الشيء، عند تفصيلات الاحداث الهامة التي تواترت بسرعة شديدة في هذه الفترة، لانها هي التي شهدت صياغة اسس السياسة

العربية المشتركة والسياسات العربية المنفردة، لحقبة امتدت عملياً، على نحو او آخر، الى العام ١٩٦٧، وما زالت تأثيراتها قائمة الى اليوم. والحاجة الى تقصي دلالات هذه التفصيلات الهامة لن تجعلنا نخوض في بحث تاريخي بشأنها، فمثل هذا ابعد ما يكون عن غرض هذه الدراسة. وانما نجد أنفسنا بحاجة، فقط، الى النظر في مدلولات الوقائع المعروفة والمثبتة، التي تسهم في القاء الضوء على مظاهر واسباب الرفض العربي في الحقبة التي امتدت الى اليوم الذي وافقت فيه غالبية الدول العربية، حين اقترب عدد المستقل منها من العشرين، على قرار مجلس الأمن الدولي ذي الرقم ٢٤٢ الذي اصدره في العام ١٩٦٧ اثر الحرب العربية – الاسرائيلية الثالثة، ودعا فيه الى الاعتراف باسرائيل وبحدود آمنة لها، مقابل كفها عن التوسع على حساب الدول العربية[١].

ويمكن ان نعود اذن الى الفترة التي تم فيها تشكيل جامعة الدول العربية ووضع ميثاقها في العام ١٩٤٤، ووضع ملحق بالميثاق خاص بفلسطين. واذا كانت الجامعة قد ضمت الدول العربية السبع التي حصلت على الاستقلال واستثنت البلاد العربية غير المستقلة، بانتظار ان تستقل حتى تكتسب العضوية، فقد ميزت فلسطين بوضع «ملحق» خاص، جاء فيه: «اذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال [بالنسبة لفلسطين] ظلت محجوبة لاسباب قاهرة فلا يسوغ ان يكون ذلك حائلاً دون اشتراكها في مجلس الجامعة. ولذلك ترى الدول العربية الموقعة على ميثاق الجامعة العربية انه نظراً لظروف فلسطين الخاصة، والى ان يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلاً **يتولى مجلس الجامعة أمر اختيار مندوب عربي من فلسطين** للاشتراك في اعماله»[٢]. وباعطاء مجلس الجامعة نفسه حق اختيار مندوب فلسطين ومصادرة هذا الحق من قيادة الحركة الوطنية كرست الدول العربية المستقلة، رسميا، واقع الحال المتمثل في رغبتها في امتلاك زمام المبادرة، وغيبت حتى هذا المظهر البسيط من مظاهر الاستقلال الفلسطيني. ثم مضت الى اكثر من ذلك، فقد قرر مجلس الجامعة، في العام التالي، من جانبه، تشكيل الهيئة العربية العليا، وبعبارة ادق، اعادة تشكيلها، وهي القيادة السياسية العليا للحركة الوطنية الفلسطينية. وتشكل وفد عربي ترأسه جميل مردم رئيس وزراء سوريا، زار فلسطين في تشرين الثاني من ذلك العام، وحصل على تفويض من زعماء الاحزاب المحلية بتسمية اعضاء الهيئة، واختار منها وفداً مثل فلسطين في اجتماعات مجلس الجامعة[٣] وبهذا التفويض استجابت الحركة الوطنية الفلسطينية لرغبة الدول العربية هذه بل استسلمت امامها.

وكرر مجلس الجامعة مجدداً قراره هذا عندما اجتمع في بلودان في حزيران ١٩٤٦، وقرر «تنظيم تمثيل فلسطين بهيئة جديدة ودعوة اهل فلسطين الى التضامن والاتحاد وتوصية الحكومات العربية بمد الهيئة الجديدة بالمساعدات اللازمة واضطلاع هذه الهيئة بمختلف شؤون القضية من دعاية ومقاطعة وتنظيم»[٤] ولكنه لم يبح لها حق ممارسة مسؤوليات القيادة السياسية او العسكرية في البلاد. وجرى ذلك في وقت كانت فيه وفود الدول العربية، وليس من بينها وفد فلسطيني، تستعد للتفاوض مع الحكومة البريطانية

حول مستقبل فلسطين، وفي وقت كان فيه مطلب استقلال فلسطين تحت السيادة العربية مرفوعاً من قبل دول الجامعة، الى جانب شعارات تنادي برفض الوجود او الكيان اليهودي او الانفصال في كيان يهودي مستقل في فلسطين. وهذا يشير الى ان دول الجامعة، كما سيظل حالها لوقت طويل، كانت، وهي تتشدد في رفض مطالب الجانب الصهيوني، تُغيّب الوجود السياسي المستقل والمقتدر للجانب العربي الفلسطيني الذي كان عليه ان يجابه الوجود الصهيوني.

وحين التأم «مؤتمر لندن» في ايلول ١٩٤٦، وضم وفودا على مستوى رفيع من الدول العربية ووفداً بريطانياً رفيع المستوى هو الآخر، رضيت الحكومات العربية بان تتفاوض مع بريطانيا حول مستقبل فلسطين بغياب الهيئة العربية العليا ممثلة الشعب العربي الفلسطيني، ورضخت بهذا الموقف لبريطانيا التي رفضت توجيه الدعوة للهيئة واكتفت بتوجيه دعوات لأفراد منها بصفتهم الشخصية، ولم تضع الدول العربية وجودها كشرط للشروع في المفاوضات، على الرغم من أنها طلبت ذلك في البداية، ثم تخلت عن طلبهاامام اصرار بريطانيا(٥).

واستمر موقف الجامعة العربية، بدولها كافة، على حاله في تجاهل الاستقلال الفلسطيني عملياً، حتى بعد ان سمحت الظروف للصهيونية بالاعلان عن قيام دولتها في فلسطين في الخامس عشر من أيار ١٩٤٨، وبعد ان بدأ العرب الفلسطينيون انفسهم يتنبهون، بصورة أجلى، الى ضرورة اعلان استقلالهم ويطالبون به. بل ان استجابة دول الجامعة العربية لهذا المطلب كشفت عن الحقيقة بأكثر مما فعل تجاهلها لأهميته، فحين قرر مجلس الجامعة العربية، آخر الأمر، تشكيل ادارة عربية فلسطينية سماها «الادارة المدنية المؤقتة في فلسطين» حدد صلاحياتها حصراً بـ «تسيير الشؤون المدنية العامة والخدمات الضرورية». ونص قراره ذاته، منعاً لاي التباس، «على ان لا يكون من اختصاصها في الوقت الحاضر، الشؤون العليا»(٦) التي صارت بيد الدول العربية. ثم ان هذه الادارة المؤقته ذات الصلاحيات غير السياسية، وغير العسكرية بطبيعة الحال، لم تر النور، ولم يقدر لمشروع الجامعة العربية بشأنها ان يتحقق.

ولما اجتمعت اللجنة السياسية للجامعة العربية في اوائل ايلول ١٩٤٨، جددت البحث في موضوع انشاء الادارة الفلسطينية، أمام مطالبة الهيئة العربية العليا باعلان دولة عربية في فلسطين، رداً على اعلان قيام الدولة الصهيونية. وكان مجرى الاحداث قد بين سداد واهمية والحاح هذا المطلب، كما أن الضغط كان قد اشتد من اجل وضعه موضع التنفيذ. وكشفت مناقشات الجامعة العربية عن ان الدول العربية، مراعاة منها لموقف ملك الاردن المعارض للاستقلال الفلسطيني، لم تجرؤ على تحقيق هذا المطلب. واكتفت اللجنة السياسية بتقرير سداد الفكرة وقررت، في الوقت ذاته، تأجيل تنفيذها. ويبدو ان ذلك قد استفز الهيئة العربية العليا، التي اعلنت من جانبها، في اواخر ايلول، عن تشكيل حكومة عموم فلسطين برئاسة احد اعضائها احمد حلمي باشا. واعلنت ان «فلسطين بأجمعها وحدودها المعروفة قبل انتهاء الانتداب البريطاني دولة مستقلة»(٧)

ودعت – حين كانت الحرب العربية – الاسرائيلية الاولى قد مزقت البلاد وقطعت اوصالها – مئة شخصية لعقد «مجلس وطني» التأم بالفعل في غزة بحضور تسعين منهم برئاسة رئيس الهيئة العربية العليا محمد امين الحسيني وقد اكد هذا المجلس «استقلال فلسطين كلها... واقامة دولة حرة ديمقراطية ذات سيادة يتمتع فيها المواطنون بحرياتهم وحقوقهم، وتسير هي وشقيقاتها الدول العربية متآخية في بناء المجد العربي وخدمة الانسانية...»[٨]، الخ..ووضع دستورا وسمى القدس عاصمة للبلاد، وثبت تعيين حكومة عموم فلسطين. واذا كان من الحق ان هذا كله قد جاء متأخراً بحيث لم تعد له فائدة كبيرة في تبديل واقع الحال، فإن موقف دول الجامعة من الاجراءات التي أعلنها مجلس غزة الوطني كان الموقف السابق نفسه وهو وليد أسباب تتصل بهذه الدول، وقد حالت دون تثبيت دولة عربية فلسطينية في فلسطين. لقد قبلت الجامعة العربية ان يمثل احمد حلمي فلسطين في مجلسها، ولكنها حالت دون أن تتمتع حكومته بأية صلاحيات او مسؤوليات داخل فلسطين، في وقت كانت فيه مناطقها، التي لا تسيطر عليها القوات الصهيونية، موزعة بين جيوش الدول العربية. كما لم تبذل هذه الدول أي مجهود للحصول على اعتراف دولي بفلسطين العربية المستقلة. ووصل الأمر حداً تجاهلت فيه الجامعة العربية توجيه الدعوة الى احمد حلمي لحضور اجتماعات مجلس الجامعة، عندما انعقد في تشرين الاول عام ١٩٤٩، مراعاة للمملكة الاردنية الهاشمية[٩]. وكانت هذه قد شرعت بالفعل في اجراءات ضم ما يليها من أرض فلسطين.

وانتهى الأمر بأن اضمحلت هذه الحكومة تدريجيا. وانحصر وجودها كله في شقة من شقق احدى عمارات القاهرة، جاورتها بعد سنوات قليلة رابطة الطلبة الفلسطينيين، واخذت تتبادل معها اقتراض النقود لتغطية نفقات ايجار الشقة والماء والكهرباء، الى أن مات أحمد حلمي وخلفه عام ١٩٦٤ احمد الشقيري بقرار من مجلس الجامعة نفسه ايضا، ولم تسمه جهة فلسطينية.

وعلى الرغم من ان الخطب والقرارات العربية الرسمية، كما هو معروف ومتداول، لم تتخل عن حدتها في التأكيد على عروبة فلسطين واستقلالها وتقديم المساعدة لشعبها، فإن الدول العربية، اضافة لما فعلته في مجال تقليل الوزن السياسي لفلسطين العربية وتغييب دور قيادتها الوطنية، لم تقدم للحركة الوطنية الا اقل المساعدة، حتى ان رقم معوناتها المالية للهيئة العربية العليا، خلال السنتين الممتدتين بين منتصف حزيران ١٩٤٦ و١٩٤٨، اللتين شهدتا العمل لقيام اسرائيل وقيامها، بلغت بالتحديد ١٤٣,٥ الف جنيه دفعت منها سوريا ١٠٣ آلاف ومصر ٢٠ الفا ولبنان ١٥ الفاً واليمن ٤ آلاف ونصف. ودفع مصدر لم يشأ ان يعلن عن اسمه مبلغ ٤٦ الف جنيه زيادة على ذلك، وتبين، فيما بعد، أنه عبد العزيز بن مسعود ملك العربية السعودية. اما العراق والاردن فلم يدفعا شيئاً[١٠] وعلى النقيض من ذلك، نجح عبد الله ملك المملكة الاردنية الهاشمية في ضم الجزء الذي يليه من فلسطين الى مملكته، وهو الجزء الذي لم تسيطر عليه اسرائيل، وصار منذ ذلك الوقت يعرف باسم الضفة الغربية، بمقابل الضفة الشرقية لنهر الاردن

التي كانت قبل الضم تشكل المملكة الاردنية الهاشمية. كما نجح في إيقاف دول الجامعة عن اتخاذ اية اجراءات ضده على الرغم من تعارض الضم مع قرارات صريحة سبق لمجلس الجامعة ان اصدرها بموافقة اعضائه جميعاً.

هذا الملك كان هو نفسه قد هتف في نيسان ١٩٤٨: «انه لنطق كريم فاه به ملك كريم»، مؤمنا على ما اعلنه في ذلك الوقت فاروق الاول ملك مصر حين اكد ان فلسطين، بعد تحريرها من قبل الجيوش العربية، سوف «تسلم الى اهلها ليحكموها كما يريدون»[١١].

واتضح، فيما بعد، ان عملية الضم كانت جانبا من صفقة عقدها ملك الاردن مع بريطانيا، ومع قادة صهيونيين[١٢]. اما في ذلك الوقت فلم يكن الأمر واضحاً. وكانت المملكة الاردنية، مثلها مثل الدول العربية الاخرى، تشترك في تأييد المطالب العربية في فلسطين وفي الاعلان عن رفض مطالب الصهيونية ورفض الاعتراف باسرائيل. وكانت، مثلها أيضا، تزايد في رفع اكثر الشعارات تشدداً، حتى ان الملك عبد الله رفض مقترحات صاغها الوسيط الدولي، الكونت برنادوت، في تموز العام ١٩٤٨، دعت الى تشكيل دولة واحدة اتحادية في فلسطين تضم دولتين: عربية ويهودية لكل منهما استقلالها الذاتي، وتضم العربية منها جزءا من فلسطين ضمنه مدينة القدس وشرقي الاردن[١٣]. وقال الملك عبد الله وهو يعلن رفض المقترحات: «احسن برنادوت بهذه المقترحات، اذ ساق العرب الى التشدد فيما اعتزموه واضرام الحرب مرة اخرى، لأنها [المقترحات] جاءت اعنف واسوأ من التقسيم الذي قالت به منظمة الامم»[١٤] وانضم الى الدول العربية التي رفضت المشروع، ودعا الى تجديد القتال ضد اسرائيل. وكان هو القائد الاعلى للقوات العربية مجتمعة التي حاربت في فلسطين. وفعل ذلك كله في الوقت ذاته الذي ابتدأ فيه خطواته الفعلية من اجل ضم ما يليه من فلسطين الى مملكته. فقد عارض الاردن بشدة، كما رأينا آنفاً، وجود حكومة عموم فلسطين التي انبثقت عن مؤتمر غزة الوطني، وتحفظ، قبلها، في الجامعة العربية حتى على انشاء الادارة الفلسطينية المؤقتة. وعندما دعت الهيئة العربية للمؤتمر الوطني في غزة نشطت، برعاية السلطات الاردنية، حملة معارضة له في الضفة الغربية، واستقبل الملك عبد الله وفوداً فلسطينية بايعته بالولاية على فلسطين. أما بعد ان توقف القتال في العام ١٩٤٩، فقد سعى الملك رسمياً لتحقيق الضم، وقام في أيلول من ذلك العام بجولة زار خلالها بريطانيا؛ حيث يبدو انه اجرى اللمسات الاخيرة على مشروعه. وتتالت، بعد عودته، اجراءات الضم فصدرت اولى القرارات بالغاء الجمارك وتأشيرات الدخول، تم صدر قرار بمنح الجنسية الاردنية لسكان الضفة الفلسطينيين، ووحدت الادارات في الضفتين، ثم اعلن عن حل مجلس النواب والدعوة لانتخابات جديدة تشمل الضفتين معاً، وتخصيص عشرين مقعداً لكل منها في مجلس النواب، وستة في مجلس الاعيان. وجرت الانتخابات بالفعل في شهر نيسان من عام ١٩٥٠. وفي الرابع والعشرين منه اجتمع المجلسان في جلسة مشتركة وصدر قرارهما باعلان الضم، واعترفت بريطانيا بهذه الخطوة بعد ثلاثة ايام فقط من صدور القرار[١٥].

ولم يعبأ الملك بموقف دول الجامعة العربية الاخرى، التي تبارى اعضاؤها- باستثناء العراق، حيث كان صفيه نوري السعيد قد صار رئيسا لحكومتها -في التعبير عن رفض الضم تحت ضغوط الرأي العام الحريص على إبقاء اسم فلسطين. واكتفى الملك عبد الله بأن ابلغ مجلس الجامعة حين التأم قبل ايام من اجراء الانتخابات، بأن «الضم لا يؤثر على التسوية النهائية لقضية فلسطين، وانه حريص على بقاء الاردن عضواً في الجامعة، وانه مستعد للدخول في حرب مع اسرائيل مرة اخرى اذا رأت الجامعة ذلك»(١٦).

وظل النقاش دائرا بين دول الجامعة خلال الشهور التي تلت. وارتفعت أصوات طلبت الغاء عضوية الأردن. تم انتهى الأمر كله بتسوية عبر عنها قرار صدر عن الجامعة العربية في حزيران ١٩٥١، اظهر استحسان دولها لما اعلنته حكومة الاردن من ان «ضم الجزء الفلسطيني اليها انما هو اجراء اقتضته الضرورات العملية، وانها تحتفظ بهذا الجزء وديعة تحت يدها، على أن يكون تابعا للتسوية السياسية لقضية فلسطين عند تحرير اجزائها الاخرى، بكيانها الذي كانت عليه قبل العدوان، وعلى ان تقبل بشأنه ما تقرره دول الجامعة العربية»(١٧).

واذ اخضع قطاع غزة في الوقت نفسه، للإدارة العسكرية المصرية، وواجه في ظلها، ثم في ظل الادارة الخاصة التي عززتها، مصيراً منفصلاً عن مصير الضفة الغربية، فقد تم تغييب الاستقلال الفلسطيني، وتمت تجزئة فلسطين، وغابت، ليس من الواقع فقط، بل من الاذهان ايضاً، المطالبة بالدولة العربية الفلسطينية على مدى ربع قرن لاحق. الى ان احياها مجددا، بعد انشاء منظمة التحرير الفلسطينية، المجلس الوطني الفلسطيني في العام ١٩٧٤. وعلى هذا النحو بينّ مجرى الاحداث انه في ظل الرفض العربي لاسرائيل، في ظل اعلى الاصوات واكثرها حدة في المطالبة بعروبة فلسطين واستقلالها، تم تقطيع اوصال الوطن الفلسطيني وتشتيت الشعب وتغييب اسم الوطن. وصارت الشعارات الرافضة التي ترفعها الدول العربية ستاراً غطى مصالحهما الحقيقية ومطامعها في الحصول على حصتها من اشلاء الهزيمة.

في الوقت نفسه، ومنذ اخذت الدول العربية زمام المبادرة السياسية في سنوات الحرب، سارت على النهج نفسه الذي سارت عليه الحركة الوطنية الفلسطينية في البداية في المساومة مع بريطانيا. ولم تأخذ هذه الدول بعين الاعتبار ان هذا النهج الذي مورس خلال ثلاثين سنة، قبل ذلك، لم يؤد الى اية نتيجة مرضية. خصوصا ان هذه الدول تمسكت من جانبها، بما تمسكت به الحركة الوطنية الفلسطينية من رفض لأي وجود او كيان سياسي يهودي منفصل او حتى متمايز، في الوقت الذي لم تكن فيه على استعداد لاتخاذ اية خطوة عملية تضغط جدياً على بريطانيا، او على اميركا، او على دول الغرب الرأسمالي الاخرى التي تؤيد جميعها المطالب الصهيونية بهذا المقدار او ذاك. وظلت الدول العربية تطمع بامكانية تحصيل المطالب العربية عن طريق التعاون مع دول الغرب. ولم تقم، شأنها في ذلك شأن الحركة الوطنية الفلسطينية ايضا، بأي مبادرة من جانبها للاتصال بالمعسكر الاخر الذي يتزعمه الاتحاد السوفياتي، ولم تستجب لمبادراته بالرغم

من أنه كان يؤيد المطالبة العربية بفلسطين الموحدة، وبمنحها الاستقلال وبجلاء القوات البريطانية عنها. وعندما حاول المندوب السوفياتي الاتصال بالمندوبين العرب في الامم المتحدة في عام ١٩٤٦، رفض هؤلاء الاستجابة. وكان موقفهم هذا، كما لاحظ بسداد محمد عزه دروزه، «نتيجة للالتزامات العهدية التي تقيد اكثر الدول العربية بالانجليز، وتفادياً للتوتر والجفاء الذي قد يؤدي الى إخفاق الامل الذي كان مندوبو العرب يعلقونه على دورة مؤتمر لندن الثانية»[١٨]. وتكرر الموقف ذاته عام ١٩٤٧ بالرغم من ان آمال الدول العربية بشأن مؤتمر لندن كانت قد تبخرت، وان الاتحاد السوفياتي حمل في اجتماع الجمعية العامة حملة شديدة على السياستين البريطانية والامبريالية المؤيدة للصهيونية في فلسطين وأيد، من جانبه، المطالبة العربية باجلاء القوات البريطانية عن فلسطين، وناشد العرب واليهود الموافقة على قيام دولة ثنائية مشتركة بينهما، كما ايد مطلب الدول العربية في اعلان استقلال فلسطين.[١٩]

اما في مؤتمر لندن، أي في سياق مساومة الدول العربية لبريطانيا، فقد تكررت على نحو ما، المواقف التي ميزت تاريخ المساومات السابقة معها. وكانت الدول العربية قد اعلنت، قبل ذلك، تباعاً وقوفها الى جانب الحلفاء في الحرب ضد دول المحور، وتوالت تصريحات مسؤوليها وخطبهم ورسائلهم التي تشيد بالصداقة العربية – البريطانية، وتؤكد على المصالح المشتركة بين الجانبين. وقالوا انهم بذلك سيكسبون تأييد بريطانيا للقضايا العربية واخصها قضية فلسطين، مكررين ما حدث في الحرب العالمية الاولى. وارسلت الحكومات العربية، عشية انتهاء الحرب في كانون الثاني ١٩٤٦، مذكرة موحدة الصياغة الى كل من الحكومتين البريطانية والاميركية أكدت فيها انها ترغب في ان يسود بينها وبينهما أحسن علاقات المودة، وأنها وهي «الحريصة على دوام الصداقة والعلاقات الطيبة بين بريطانيا والدول العربية ترجو الا يتخذ اي قرار في صدد المسألة الفلسطينية من شأنه ان يسيء الى علاقات المودة القائمة او يعكر صفو السلام والامن في فلسطين وغيرها من البلاد العربية»[٢٠]. الا ان قرارات كهذه اتخذت برغم ذلك، حين وافقت الحكومتان، كلتاهما، على مقترحات اللجنة الاميركية البريطانية المشتركة. وعقد مجلس الجامعة العربية، اثر ذلك، دورة استثنائية في بلودان، صارت واحدة من اشهر دوراته، حضرها رؤساء حكومات ووزراء خارجية، وقرروا «طلب المفاوضة مع الحكومة البريطانية لأجل انهاء الحالة في فلسطين، وعرض القضية على هيئة الامم المتحدة اذا لم تنته المفاوضات الى نتيجة»[٢١].

هذا الطلب الذي استجابت له بريطانيا انتهى بانعقاد مؤتمر لندن. ولم تبد بريطانيا في المؤتمر اي ميل للاستجابة للمطالب العربية بشأن مستقبل فلسطين. وانفض المؤتمر الذي فشل من غير ان يعلن اي من اطرافه هذا الفشل رسمياً، بل اعلن، كتعبير سافر عن عدم قطع الامل ببريطانيا، عن انه سينعقد في دورة ثانية، لم يقدر لها بعد ذلك، ان ترى النور. واكدت بريطانيا انها ستحيل القضية برمتها الى الامم المتحدة. وشاع انها بصدد الدعوة لتشكيل لجنة تحقيق دولية. فاجتمع مجلس الجامعة، في أوائل العام ١٩٤٧، وقرر رفض اللجنة، والتمسك بالمطالبة باستقلال فلسطين، وبوقف الهجرة اليهودية اليها. وارسل

احتجاجاً لبريطانيا التي أذنت بالهجرة الرسمية وسهلت الهجرة غير المشروعة. وأثير في الاجتماع اقتراح باعلان استقلال فلسطين من الجانب العربي، فتحفظ الاردن. وقالت مذكرة منه صراحة انها لا تعارض «فكرة الدفاع عن قضية فلسطين امام الامم المتحدة طالما اختارت بريطانيا عرض القضية على تلك المنظمة». وسجلت وهي تعارض اقتراح الاستقلال «انها تحتفظ لنفسها بحرية العمل المستقل في سياستها نحو فلسطين»، ولم تنس ان تنسب ذلك الى حرصها على «صيانة عروبة هذا القطر المقدس والمحافظة على حقوقه المشروعة وتحقيق مطالبه القومية»[٢٢].

واثيرت في الاجتماع ايضاً مسألة تنفيذ القرارات السرية التي سبق لاجتماع بلودان ان اتخذها (وفيها قرارات ذات طبيعة عسكرية، سنعرض لها لاحقاً) وبينها قرار يتعلق بالامتناع عن تنفيذ اتفاقات منح الامتيازات النفطية للبريطانيين والاميركيين في كل من المملكة العربية السعودية والعراق ووقف منح امتيازات جديدة[٢٣]. وتكرر بحث مسألة الامتيازات النفطية هذه في اجتماعات الجامعة في العامين ١٩٤٧ و١٩٤٨. وأثار صالح جبر رئيس وزراء العراق المسألة في اجتماع اللجنة السياسية للجامعة في ايلول ١٩٤٧. واعلن استعداد حكومته لتحمل التضحية الجسيمة وقطع النفط اذا تضامنت المملكة العربية السعودية وقطعت نفطها. ودار الهمس بأن العراق انما يريد الاحراج. ورد المندوب السعودي الشيخ يوسف ياسين بأن حكومته مستعدة للتضامن مع دول الجامعة العربية في تنفيذ اي قرار يتخذه مجلسها. وطالب بأن يصدر القرار عن مجلس الجامعة، وليس عن لجنتها السياسية، والى ان ينعقد المجلس طالب بتشكيل لجنة فنية تدرس الموضوع من جوانبه كلها. فلما التأم المجلس في تشرين الاول ١٩٤٧ اتخذ بهذا الصدد قرارا عاما اعتبرت بموجبه قرارات بلودان (١٩٤٦) سارية المفعول «في حالة تطبيق اي حل من شأنه ان يمس بحق فلسطين في ان تكون دولة عربية مستقلة»[٢٤]. غير ان هذه القرارات ظلت حبراً على ورق حتى بعد ان قامت اسرائيل وتشتت الشعب العربي الفلسطيني. وفي شباط من عام ١٩٤٨ اتخذت اللجنة السياسية للجامعة العربية قرارا نص صراحة على «الامتناع عن منح امتيازات جديدة بتمديد انابيب البترول او بتنفيذ الامتيازات التي منحت سابقاً بتمديد الانابيب داخل البلاد العربية لمصلحة شركات اجنبية تنتسب لدول تعمل على تقسيم فلسطين وتنفيذه».[٢٥]

إلا ان هذا القرار ايضا، مثله مثل قرارات وقف ضخ النفط، ووقف منح امتيازات الاستثمار ووقف تنفيذ الامتيازات الممنوحة سابقاً، لم ينفذ في يوم من الأيام، فقد ربطت الحكومة العراقية تنفيذها للقرارات بتنفيذ المملكة العربية السعودية لها، واستطاعت السعودية ان تميع المسألة في كل مرة كانت تثار فيها، وتمكنت آخر الامر من استرضاء المعارضين حين وافقت، بعد جلاء القوات البريطانية عن فلسطين واعلان قيام اسرائيل، على وقف ضخ النفط في الانابيب التي تنقل نفط العراق الى ميناء حيفا الذي صار خاضعاً لسلطة اسرائيل. واعطيت الامتيازات من الحكومات السعودية والعراقية والسورية واللبنانية لشركات الدول الاميركية والبريطانية والاخرى الحليفة لها لتمد خطوط انابيب، تصل حقول النفط في العراق والسعودية بموانىء لبنان وسوريا. ورضيت الدولتان

الاخيرتان بحصتهما من رسوم مرور النفط عبر اراضيهما ولفلفت المسألة كلها، وغاب عن الساحة سلاح النفط العربي، وصار بيد مويدي المطالب الصهيونية واسرائيل، وبيد اسرائيل ذاتها التي ظل بمقدورها ان تحصل، عبر هؤلاء، على حاجاتها من النفط العربي. ومن اطرف ماقيل في معرض تفسير استمرار الامتيازات النفطية التصريح الذي ادلى به عبد العزيز بن سعود ملك العربية السعودية في عام ١٩٤٦ معللاً ذلك بأن اتفاقات الامتيازات، «عقد وعهد وان الدين الاسلامي قد امر بالوفاء بالعهود والعقود وحماية من هم في ذمة سلطان المسلمين» [٢٦]. اما الرفض العربي الرسمي لمطالب الصهيونية، ولاسرائيل، بعد قيامها، فانه لم يتوقف ولم تخفت حدته وقد صار له هدف مستجد هو التغطية على النهب الغربي للثروات العربية واهمها النفط.

وهكذا رفضت الحكومات العربية تباعاً اي مشروع ينطوي على امكانية تقسيم فلسطين الى دولتين منفصلتين او دولتين تتمتعان بحكم ذاتي وتشتركان في اتحاد، سواء عرضت هذه المشروعات مصادر بريطانية أم اميركية ام منظمة الامم المتحدة. ورفضت، بطبيعة الحال، الاعتراف باسرائيل بعد اعلان قيامها وأي شكل من اشكال التعامل معها. ووضعت، فيما بعد، استطراداً للمقاطعة الاقتصادية التي سبق ان اعلنها ممثلو عرب فلسطين ضد المؤسسات الصهيونية، نظاماً للمقاطعة الاقتصادية شمل، من الناحية الرسمية، المنتجات الاسرائيلية كافة ومنتجات الشركات التي تتعامل مباشرة مع اسرائيل او التي تعرف الدول العربية ان الرأسمال الاسرائيلي او الصهيوني يملك اسهما فيها، ولكنه لم يشمل الدول التي تقيم علاقات مع اسرائيل[٢٧] سياسية او اقتصادية، وانشئت في العواصم العربية مكاتب للاشراف على المقاطعة والتأكد من تطبيق انظمتها. وشاعت في الادبيات العربية، منذ قيام اسرائيل، عبارات من نوع اسرائيل المزعومة ودولة العصابات، كما شاع ايضا وضع كلمة اسرائيل بين أقواس، كلما فرض السياق إيرادها بغير الاوصاف التي تؤكد عدم الاعتراف العربي بوجودها.

وتمسكت الحكومات العربية تجاه اسرائيل بموقف يشبه موقفها من الصهيونية، اي برفض اي شكل من اشكال التفاوض بقصد الوصول الى تسوية معها. وابرز مجرى الاحداث هذا الرفض اول مرة، في أيلول العام ١٩٤٨، عندما عرض الوسيط الدولي الذي عينته الامم المتحدة أثناء الحرب العربية – الاسرائيلية الاولى، وهو السويدي برنادوت، مشروعاً للتسوية، اقترح فيه انشاء دولة اتحادية عربية – يهودية قائمة على الاتحاد الاقتصادي بين الجانبين، مع تحسينات في الحدود بين طرفيها لصالح العرب، جعلته افضل من مشروع التقسيم الذي اقرته الامم المتحدة. وقد حضر برنادوت بنفسه واحداً من اجتماعات اللجنة السياسية للجامعة العربية ليعرض مشروعه. إلا ان اللجنة رفضت المشروع،[٢٨] كما رفضت التفاوض مع الجانب اليهودي عبر هذا الوسيط، الذي دفع حياته، بعد قليل، ثمناً لاتهامه من قبل الصهيونية بأنه انحاز الى الجانب العربي، فاغتالوه لأن مشروعه نص ايضا على عودة اللاجئين الفلسطينيين، وعلى اعتبار القدس جزءاً من الدولة العربية.

والمرة الثانية التي تأكد فيها الرفض العربي للصلح او التفاوض، جاءت بعد ان شاع انَّ الملك عبد الله اجرى اتصالات تمهيدية لعقد صلح منفرد مع اسرائيل. وصرح هو بنفسه، في صيف ١٩٤٩ «انه مصمم على ايجاد الحالة السلمية المقتضية للحيلولة دون احداث أعمال تسبب تكرر الشكوى والخصام، واتباع الخطة التي تبعث على احترام هذه المملكة المحبة للسلام المدافعة عنه في ان تحيا حياة لا عدوان فيها مع كل من جاورها»[٢٩]. وحدت بالفعل انه فاوض سرياً بهدف ابرام «ميثاق عدم اعتداء مع اسرائيل» تحت شعار العمل لتعديل اتفاق الهدنة المعقود معها. وحاول، خلال المفاوضات، أن يحصل منها على مزايا اقليمية مقابل مزايا قدمها لها بالفعل حين دفع الجيش الاردني الى الانسحاب من مناطق كان يسيطر عليها، فلم يستطع ان يحصل على مزايا كهذه[٣٠]. كما حاول ان يجعلها تقبل بعودة اصحاب الاملاك الفلسطينيين مؤقتاً الى المناطق التي اجلاهم عنها عدوان اسرائيل لتصفية املاكهم مومِلاً ان يسترضيهم بهذا فيكسبهم الى جانبه، ولم يستطع. وظل مع ذلك راغباً في ابرام التسوية. وحين حاول ان يدفع حكومته التي يرئسها توفيق ابو الهدى لابرامها، تهيب هذا ازاء المسؤولية فاستقال، وتشكلت حكومة جديدة برئاسة سمير الرفاعي الذي سبق ان اشترك في المفاوضات السرية بنفسه. ولكن ضغوط الرأي العام ورفض الحكومات العربية افشلت المشروع برمته، وتعرض الاردن لهجوم الدول العربية عليه، فوجهت حكومته رسالة الى الجامعة العربية قالت فيها انها «لم تعقد أي معاهدة، او اتفاق، او أي شيء من أجل الصلح او عدم الاعتداء، او اجراء تسوية، او إعادة التعامل الاقتصادي والتجاري، او اي امر جوهري آخر، وان النية كانت متجهة في اواخر شباط [١٩٤٩] الى اجراء تعديلات في اتفاقية الهدنة... وقد صرف النظر عن التفكير فيها»[٣١]. الا ان الدول العربية لم تصرف نظرها عن الاهتمام بالمحاولات الاردنية، التي كانت تغذيها بريطانيا والولايات المتحدة ورغبة الملك في ان يستقر في مملكته المتوسعة بعد ضم الضفة الغربية اليها. وانتهت مداولات الحكومات العربية، القلقة من تزايد ضغط الرأي العام الرافض لاسرائيل وللصلح معها، باصدار قرار حاسم اتخذه مجلس الجامعة في نيسان ١٩٥٠ اكد أنه «لا يجوز لأية دولة من دول الجامعة العربية ان تتفاوض في عقد صلح منفرد، او اي اتفاق سياسي او عسكري او اقتصادي مع اسرائيل، او ان تعقد فعلاً مثل هذا الصلح او الاتفاق معها. وان الدولة التي تقدم على ذلك تعتبر مفصولة عن الجامعة العربية طبقا للمادة الثامنة عشرة من ميثاق الجامعة»[٣٢]. وحدد قرار الجامعة العربية هذا العقوبات السياسية والاقتصادية في حال المخالفة. وصوت مندوب الاردن بالموافقة على هذا القرار وطويت مسألة المفاوضات والصلح من الجانب العربي، الى ان فتحتها من جديد مقترحات اعلنها رئيس جمهورية تونس الحبيب بورقيبة في العام ١٩٦٤. ثم فتحتها مرة ثالثة نتائج الحرب العربية – الاسرائيلية الثالثة في حزيران ١٩٦٧. وتحددت منذ قيام اسرائيل، لاءات الرفض العربية الثلاث: لا اعتراف، لا مفاوضات، لا صلح، مع اسرائيل.

وإن كان هذا كل ما نجم عن الجانب السياسي والاقتصادي في الموقف العربي ازاء الصهيونية واسرائيل، في فترة العمل لتأسيس وتثبيت إسرائيل، فإن التدخل العربي

العسكري جرى في السياق ذاته، فلم يأت احسن تنظيما او اكثر فعالية، كما انه لم يقد الى نتائج افضل. وقد أشرنا سابقا، الى ان مجلس الجامعة العربية الذي التأم في بلودان في العام ١٩٤٦، اتخذ قرارات ذات طبيعة عسكرية. وعندما اكتسب مشروع تقسيم فلسطين موافقة الجمعية العامة للامم المتحدة، في تشرين الثاني ١٩٤٧، اذاعت الحكومات العربية بياناً موحد الصياغة في كانون الاول من هذا العام، اعلن ان رؤساء وممثلي هذه الحكومات قرروا «في اجتماعهم في القاهرة ان التقسيم باطل من أساسه وقرروا كذلك، عملاً بارادة شعوبهم، ان يتخذوا من التدابير الحاسمة ما هو كفيل، بعون الله، باحباط مشروع التقسيم الظالم ونصرة حق العرب... وقد وطدوا العزم على خوض المعركة التي حملوا عليها حتى نهايتها الظافرة باذن الله...»[٣٣] واتخذ الاجتماع المشار اليه هنا قراراً بتوزيع عشرة آلاف بندقية، وأوجب تسليمها، على الفور، الى اللجنة العسكرية العربية، التي شكلتها الجامعة لقيادة الكفاح المسلح ضد الصهيونية، وارسال ٣٠٠٠ متطوع من الدول العربية، وتخصيص مليون جنيه للانفاق على العمل المسلح. كما تقرر تعيين اللواء اسماعيل صفوت، العراقي، قائداً عاماً للقوات المؤلفة من المجاهدين الفلسطينيين ومن المتطوعين العرب وايكال ادارة دفة الاعمال الوطنية كافة اليه[٣٤]. والقرار الوحيد الذي نفذ من بين هذه القرارات، هو تعيين اللواء صفوت، بما يعنيه ذلك من اخذ الدول العربية لزمام المبادرة، في القرارات العسكرية ايضاً، ومصادرته من القيادة الوطنية الفلسطينية، بعد أخذها لزمام المبادرة السياسية كما رأينا. اما القرارات الخاصة بالبنادق والاموال والمتطوعين، فما أشد ما وضعت العراقيل في وجه تطبيقها، وما اشد ما عاناه اللواء صفوت وامثاله من العسكريين العرب الوطنيين وهم يسعون لتنفيذها.

وقد خصصت هذه المساعدات في وقت كان الجانب الصهيوني فيه يملك ما لا يقل عن ٦٠ الف مقاتل مسلحين تسليحاً حسناً ومنتظمين في منظمات عسكرية، وفي وقت كان لديه فيه اسلحة اوتوماتيكية جديدة، ومعامل لانتاج الذخيرة، وكوادر جيدة التدريب من الضباط الذين تمرسوا بالعمل العسكري النظامي وشبه النظامي، ومصادر خارجية للأموال والسلاح تعادل مقدرة الحركة الصهيونية العالمية واستعداد الدول الرأسمالية لمساندتها. في حين كان السلاح الذي بيد العرب الفلسطينيين ضئيلا، فضلاً عن عدم صلاحه وعدم توفر الذخيرة له، وغلاء اسعاره وشح مصادره، وعن قلة التدريب والاستعداد والتنظيم[٣٥].

وقررت الجامعة العربية ايضا بعد صدور قرار التقسيم، حشد بعض قوات دولها العسكرية على حدود فلسطين الشمالية والشرقية والجنوبية، لتكون على استعداد لملء الفراغ الذي سيحل بعد جلاء القوات البريطانية، وذلك «حتى لا يتعرض عرب فلسطين لفتك اليهود الفوري... وان تسارع الى تدريب وتنظيم وتجهيز الشباب العرب الذين هم في مناطق اكتظاظ اليهود وعلى حدودها... وتنظيم وتجهيز الشباب الذين هم في الخط الثاني... وان تشكل حالاً قيادة عربية عاملة كاملة الاركان...»[٣٦] وقرارات اخرى مماثلة لم تجد طريقها للتطبيق.

اما قرار التدخل العسكري المباشر في فلسطين، فقد اتفقت عليه دول الجامعة في نيسان ١٩٤٨، فقط، بعد أن كانت قوات المنظمات الصهيونية قد بسطت سيطرتها الفعلية، كلياً او بنسبة غالبة، على المناطق التي خصها بها قرار التقسيم، وامتدت الى مناطق اخرى. وبعد أن بلغ ضغط الرأي العام العربي ذروته، تحت تأثير القلق الشديد من امتداد الهيمنة الصهيونية على ارض فلسطين وتزايد انباء المذابح التي ترتكبها القوات الصهيونية فيها، وبعد ان تأكد ان القوات البريطانية ستجلو عن فلسطين بالفعل في شهر ايار التالي.[٣٧]. وقال الملك عبد الله، الذي عين بناء على الحاحه، قائدا أعلى للقوات العربية: «قلت لوفد الجامعة العربية حين زارني بعمان في الخريف الماضي: ان جنح القوم، اعني يهود فلسطين، إلى السلم فسنجنح لها، وان دعينا للدفاع عن فلسطين فسنفعل، وهو الواقع اليوم. ولا يزال السلم في يد اليهود ان شاؤوا ونزلوا عن غلوائهم ورضوا بما يمكن ان يكون مرضياً للعرب، وهو الاينازعهم [لا ينازع العرب] في سيادة البلاد منازع، على ان يمنح للآخرين حقوق لا مركزية في المناطق الخاصة بهم»[٣٨]. وإذاعت الحكومات العربية، عشية دخول قواتها فلسطين في الخامس عشر من ايار نص المذكرة التي وجهتها الى الامم المتحدة بين يدي هذا التدخل وركزت فيها على أن حبل الامن في فلسطين قد اضطرب «وادى العدوان الصهيوني الى نزوح ما ينيف على ربع مليون من سكانها العرب عن ديارهم والتجائهم الى البلاد المجاورة»، وأن هذه الحالة تهدد «بالانتشار في البلاد العربية المجاورة، حيث الشعور ثائر، بسبب الاحداث الواقعة في فلسطين...[و] أن حكومات الدول العربية مسؤولة عن حفظ الأمن والسلم في ساحتها بوصفها اعضاء في الجامعة العربية... [و ] لذلك، ونظراً لان أمن فلسطين وديعة مقدسة في عنق الدول العربية، ورغبة في وضع حد لهذه الحالة، وفي منعها من ان تتفاقم وتتحول الى فوضى لا يعلم مداها احد، ورغبة في منع امتداد الاضطراب والفوضى من فلسطين الى البلاد العربية المجاورة، وفي سد الفراغ الحادث في الجهاز الحكومي بفلسطين نتيجة لزوال الانتداب وعدم قيام سلطة شرعية تخلفه، رأت حكومات الدول العربية نفسها مضطرة الى التدخل في فلسطين، لمجرد مساعدة سكانها على اعادة السلم والأمن وحكم العدل والقانون الى بلادهم »[٣٩]. وهذه الكلمات التي تضمنها البيان كافية للافصاح عن المبررات التي قدمتها الدول العربية امام الدول الغربية؛ الأمر الذي لم يثر حماس اي من الولايات المتحدة وبريطانيا لوقف التدخل العسكري العربي في فلسطين، ولم يجعلها في حاجة للتدخل مباشرة في منعه، طالما ان المشروع الصهيوني الذي تدعمانه كان قيد الانجاز الفعلي، نتيجة هيمنة القوات الصهيونية، وطالما ان اعلان قيام الدولة اليهودية[٤٠] تم في اليوم ذاته الذي دخلت فيه الجيوش العربية فلسطين واعترفت بها الدولتان، وان القوات العسكرية العربية الداخلة (١٥ الف جندي) والتي تُمَون جميعها بالسلاح من مصادر غربية، لا تستطيع ان تحول دون تثبيت الدولة اليهودية، ولكنها تستطيع ان تحول دون امتداد روح الثورة العربية العارمة في فلسطين والسخط المحتدم ضد الغرب الى الدول العربية المجاورة.

والحقيقة ان مجريات القتال في الحرب العربية – الاسرائيلية الاولى هذه بينت على نحو لا يدع مجالاً للشك، ان دخول الجيوش العربية تم لاغراض من هذا النوع،

وكان، في ما عدا ذلك، تظاهرة هدفها استرضاء الرأي العام العربي الذي يغلي بالسخط. فقد بسطت القوات العربية المصرية والسعودية والعراقية والاردنية، التي دخلت فلسطين من ثلاث جهات، سلطتها على المناطق التي لم تكن القوات الصهيونية تملك فيها وجوداً يعتد به، وهي اقل من المناطق المخصصة للعرب في قرار التقسيم. ولم تتمكن القوات العربية من استعادة اي مدينة او بلدة سبق للصهيونيين أن سيطروا عليها فعلا، باستثناء جزء من مدينة القدس وقليل جداً من المواقع على اطراف منطقة السيطرة الصهيونية. ثم لم تلبث الدول العربية ان وافقت خلافا لنصائح عسكرييها على دعوة مجلس الأمن لتطبيق هدنة لمدة اربع اسابيع، حصل فيها الصهاينة على امدادات جديدة من السلاح. وعندما استؤنف القتال تراجعت الجيوش العربية كلها عن مناطق وجودها السابقة، وانسحب الجيش الاردني من مدينتي اللد والرملة العربيتين تنفيذاً لصفقة عرف، فيما بعد، انها ابرمت ثمنا لموافقة بريطانيا واسرائيل على ضم الضفة الغربية الى مملكة شرق الاردن[٤١]. وثارت الشكوك بين دول الجامعة العربية، واعتقد المصريون أن انسحاب الجيش الاردني هدفه تعريض الجيش المصري للخطر، والتأثير على موقف مصر في مفاوضاتها مع الانجليز من اجل الجلاء عنها[٤٢].

اما بريطانيا فانها لم تدع مجالاً للالتباس حول موقفها من اصدقائها العرب، فأعلنت انها ستوقف مدهم بالسلاح اذا تجاوزوا منطقة التقسيم العربية.

وانتهت الحرب العربية الاسرائيلية الاولى بتوقيع سلسلة من الاتفاقيات حول هدنات دائمة بين اسرائيل وكل من مصر والاردن وسوريا ولبنان حددت حدود وقف اطلاق النار فيما بينها. وقدر لهذه الحدود، مع تعديلات طفيفة تمكنت اسرائيل من تحقيقها لصالحها في ظروف مؤاتية في مقبل السنوات، ان تظل حدودا ثابتة حتى العام ١٩٦٧. اما العراق فلم يوقع اتفاقية للهدنة، ونظرا لانه لا يرتبط بحدود مع اسرائيل فان الحاجة لم تكن ملحة لها. وصارت اسرائيل عضواً في الامم المتحدة تعترف بها غالبية دولها وحين فشلت الدول العربية في حمل الولايات المتحدة وبريطانيا، حتى على تأييد تسوية تقوم على اساس التقسيم، كما سنرى، احتفظت بشعارات رفضها الثلاث: لا اعتراف ولا صلح ولا مفاوضات، بينما اخذت اسرائيل تتقوى بالمعونات الهائلة التي اغدقتها عليها بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا ثم المانيا الغربية وبقية دول التحالف الغربي. وصار بمقدورها ان تشكل اداة الضغط الاولى المقتدرة ضد الدول العربية، والمطرقة التي تهدد بالاعتداء عليها، واخذت تمارس هذا الاعتداء كلما اوجبت مطامعها التوسعية ومصالح الغرب ذلك. اما الدولة العربية الفلسطينية فقد غابت في ظل هذا كله، وحصل الشعب الفلسطيني، بدلاً من ذلك، على ما هو معروف من تجزئة وطنه وتشتت جموعه وبؤسها، ومن غياب شبه كامل لحركته الوطنية امتد لعدة سنوات لاحقة.

وقعت مصر مع اسرائيل، باشراف الامم المتحدة، اتفاقاً للهدنة في شباط ١٩٤٩.

وحذا حذوها في ذلك كل من الاردن ولبنان وسوريا التي وقعت الاتفاقات المماثلة في تموز من العام نفسه(٤٣). اما العراق فلم يشترك في مفاوضات الهدنة، واكتفت السعودية بأن اعلنت انها ستقبل بالقرارات التي تجمع عليها دول الجامعة العربية، فيما يتعلق بالحالة في فلسطين، واعتذرت عن الاشتراك في هذه المفاوضات لأن قواتها لا تتصل مع القوات الاسرائيلية في جبهة مستقلة. وأعلنت اسرائيل، انها بعد ابرام الاتفاقات، ستتمكن من دخول الامم المتحدة. غير أن معارضة قوية انتصبت في وجهها واستندت الى حقيقة ان اسرائيل رفضت تطبيق قرار للامم المتحدة نص على عودة اللاجئين العرب او التعويض عليهم، كما انها نفذت قرار التقسيم على نحو يجعل التنفيذ بمثابة المخالفة للقرار؛ إذ انها احتلت اراضي تتجاوز ما حدده لها. ووجدت اسرائيل ومؤيدوها انفسهم بحاجة الى مبادرة تعفي اسرائيل من هذا الحرج. وقامت لجنة التوفيق، التي عينتها الجمعية العامة في اواخر العام ١٩٤٨ وضمت ممثلي اميركا وبريطانيا وفرنسا وتركيا، بمبادرة من جانبها، انتهت بانعقاد مؤتمر «لوزان» الذي حضره مندوبون اسرائيليون وعرب يمثلون مصر وسوريا ولبنان والاردن، كما حضره مراقب عراقي. وجرت في المؤتمر مفاوضات غير مباشرة، عرضت اسرائيل خلالها برنامجاً للتسوية يقوم على أساس احترام الحدود المقررة في التقسيم مع تعديلات طفيفة تقتضيها الاعتبارات الفنية، وتدويل القدس، وتطبيق قرار الامم المتحدة الخاص بعودة اللاجئين العرب. وقبل مندوبو الدول العربية هذا العرض ووقع على ضوئه ما عرف باسم ميثاق لوزان(٤٤). وأبلغت الامم المتحدة بذلك فورا، فقبلت جمعيتها العامة عضوية اسرائيل في اليوم ذاته، بعد ان حصلت هذه ضمنا، على موافقة العرب على قرار التقسيم، الذي سبق ان عارضوه، من خلال موافقتهم على اعتباره اساساً للبحث في التسوية. ثم دخلت مفاوضات مؤتمر لوزان، في دورتيها الأولى والثانية، في المتاهات التي قادت المؤتمر اليها المناورات الاسرائيلية والاميركية والبريطانية. وتراجعت اسرائيل عن عرضها بعد ان فقد اغراضه؛ اذ قُبلت في الامم المتحدة، وطالبت، في إطار التعديلات الطفيفة، بأن يضم اليها قطاع غزة وتكون حدودها الجنوبية هي الحدود بين فلسطين ومصر وان تصل حدودها الى نهر الليطاني داخل لبنان، وتمسك العرب بالالتزام بحدود التقسيم وبتدويل منطقة القدس ورفعوا ذلك كمطلب بعد ان رفضوه سابقاً. وعارض هذا الطلب العربي، فضلاً عن اسرائيل، الاردن الذي كان قد شرع في اجراءات ضم الضفة الغربية كما رأينا، وصارت المشكلة، ايضا، عربية – عربية. وفشلت الدورة الاولى لمؤتمر لوزان، وادى فشلها، فيما ادى اليه، الى غليان الرأي العام العربي وارتفاع حدة عدائه للغرب واشتداد حملات المعارضة الداخلية والاستعدادات للاطاحة بالانظمة القائمة صديقة الغرب. ثم عاد مؤتمر لوزان الى الانعقاد في ١٨ تموز ١٩٤٩، وقدم المندوب الاميركي فيه مشروعاً دعا الى اقرار التقسيم مع «التعديلات الطفيفة» لصالح اسرائيل، واعادة اصحاب الاملاك من بين اللاجئين ومنحهم حقوقاً متساوية مع المواطنين اليهود في المنطقة اليهودية، وتوطين الاخرين في المنطقة العربية والى تدويل القدس. فقبل العرب المشروع، عدا الاردن، واستبشروا خيراً، وانطلقت حملة واسعة لتبيض صفحة اميركا، وادلت بريطانيا بدلوها، بما يجعلها منسجمة مع مطامع الاردن، واقترحت العودة لصيغة برنادوت، التي جعلت القسم العربي من فلسطين ينضم الى شرق

الاردن في وحدة اتحادية. ودعا المشروع الاميركي الى حل عادل لمشكلة اللاجئين، وشاعت الانباء عن ضغوط تمارسهاالولاياتالمتحدة على اسرائيل لحملها على القبول بهذا المشروع. ثم تبين ان ذلك كله كان حبراً على ورق، فقد رفضت اسرائيل الاقتراحين الاميركي والبريطاني وانفض مؤتمر لوزان من غير نتيجة، وحصلت اسرائيل، آنذاك بالذات، على أكبر قرض حكومي اميركي رسمي مقداره ١٠٠ مليون دولار، زيادة على المساعدات العسكرية والمساعدات غير الحكومية. وأعيدت القضية الى الامم المتحدة، عبر مناقشة الجمعية العامة لتقرير لجنة التوفيق صاحبة المبادرة. واغرق التقرير الامم المتحدة في التفصيلات وامتدت المداولات. وقدم المندوبون العرب مذكرة مشتركة الى وزير الخارجية الاميركي حين التقوه في اوائل تشرين الثاني ١٩٤٩، جاء فيها: «ان الدول العربية تدرك ضرورة حل قضية فلسطين وخصوصاً في هذا الجو المتلبد بالسحب الذي يتطلب تعاون جميع الشعوب المحبة للسلام تعاوناً فعالاً. وانها قد استجابت لنداء الولايات المتحدة بهذه الروح فتعاونت مع لجنة التوفيق ووقعت ميثاق لوزان في ١٢ أيار ١٩٤٩، الذي أقر الشروط الاقليمية بقرار التقسيم بعد ادخال تعديلات عليه، طبقاً لسياسة الولايات المتحدة التي نادى بها مندوبها في هيئة الامم في باريس. وكان من حقها [اي الدول العربية] ان تعتقد بعد ان وقع بجانب توقيعها مندوب اميركا، ان يحترم هذا الميثاق، ولكن هذا لم يحدث، لعدم توافر روح الاخلاص وحسن النية في اليهود الذين وقعوا بدورهم عليه...وان الدول العربية مع توكيدها رغبتها في التعاون من أجل اقرار السلام في الشرق الاوسط وبذل كل جهد لبلوغ هذا الهدف ترى من حقها ان تعارض اجراء اي حل لمشكلة فلسطين لا يضمن الحق والعدل لأهلها، وان تصر على تنفيذ الميثاق [ميثاق لوزان] الذي وضع لتسوية المشكلة، التي تشل عدم تسويتها حركتهم وجهودهم. وانها، وقد اكدت في اجتماع الجامعة العربية في القاهرة في شهر تشرين الاول ١٩٤٩ عزمها على الدفاع عن السلام ومقاومة كل خطر يهدده مهما كان مصدر الخطر، تأمل الا تبخل الولايات المتحدة عليها بالمساعدة في حل هذه المشكلة، التي تحتل المكانة الأولى بين مشاكلها حتى تتأكد من ضم جهودها الى جهود الولايات المتحدة لتحقيق اهداف لا تقل اهمية وخطورة عن هذه المشكلة، وتثق بأنها لن تتردد في توكيد كون الميثاق، الذي وقع في لوزان، سينفذ بنصه، وأن الولايات المتحدة ستدخل بصفة مباشرة وتتخذ اجراءات حاسمة لبلوغ هذا الهدف»[٤٥]. وبهذه المذكرة أفصحت الحكومات العربية عن طبيعة موقفها ازاء القضية الفلسطينية برمتها. وهي طبيعة لا تكشفها البيانات والخطب المغرقة في الحماس، التي كانت، في الوقت نفسه، تخاطب الرأي العام في بلدانها. ذلك ان الحكومات التي رفضت مشروع التقسيم، ثم رفضت مشروع برنادوت المعدل له، حين كان لا يزال بمقدورها ان تحارب من اجل الحصول عليه. رضيت هنا بالمشروع الاميركي الاسوأ من الاثنين. وتمثل رفضها، كما تجلى في مؤتمر لوزان، في التعفُّف عن عقد صلح مع اسرائيل او عن الدخول في مفاوضات مباشرة معها فقط. وهذه الحكومات التي عادت لتطالب بتطبيق قرار التقسيم فعلت ذلك بعد ان كانت اسرائيل قد قامت وحولت قوات المنظمات الصهيونية المسلحة الى جيش تفوق امكاناته امكانات الجيوش العربية المعنية، وحصلت على اوسع المساعدات من الدول الغربية، وظفرت بالاعتراف بها

من قبل الشرعية الدولية، ومدت حدودها، في ظل ذلك، كله الى ابعد بكثير مما اباحه لها قرار التقسيم، وقدمت الترضية المناسبة للاردن وضمنت عدم مساهمته في اي عمل يضر بمصالحها، ومساهمته في عرقلة اي مشروع عربي. واتجهت، بل استمرت في الاتجاه، لتشدان معونة الولايات المتحدة بعد ان كانت هذه قد فعلت كل ما من شأنه ان يثبت وجود اسرائيل ويحقق لها تفوقاً يبطل أي محاولة عربية للتأثير على مركزها، وليس على وجودها وحده. ولم تجرؤ الدول العربية وحتى بعد فشل مؤتمر لوزان الذي اسهم فيه الاميركيون بمناوراتهم، على ادانة اميركا، بل نسبت الفشل «لعدم توافر روح الاخلاص وحسن النية في اليهود»، كما جاء في البيان. ولم يكن من شأن مواقف عربية، هذه طبيعتها، ان تصير فعالة في مواجهة اسرائيل، او في الحد من مقدرتها على التوسع، الذي مارسته في السنوات اللاحقة كلها، او حتى في التصدي الناجح لاعتداءاتها المتلاحقة على جاراتها الدول العربية على مدى السنوات التالية كلها، خصوصاً أن الحكومات التي كانت تفتح بلادها للاستثمارات الغربية وتفيض على دول الغرب ثروات هذه البلاد، لم تستخدم سلاح النفط او أي سلاح اقتصادي آخر للضغط من اجل تحقيق مطالبها المعلنة، حتى حين انتهت هذه المطالب بالدعوة الى تحقيق قرار التقسيم، الذي كان تحقيقه قبل عشر سنوات فقط من قيام اسرائيل، حلما من احلام جمهرة الصهيونيين.

وقد اخذت ارقام الاستثمارات الغربية في البلاد العربية تنمو ومصالحها تتسع وتتوطد، وتكونت، على اشلاء المطالب القومية العربية، امبراطورية النفط الاميركية البريطانية، التي لم تبح لأصدق اصدقاء اسرائيل واكثر حماتها مقدرة ان ينهبوا الثروة العربية الرئيسية فحسب، بل ادت زيادة على ذلك الى تعزيز مركز هولاء الدولي وتحسين مقدرتهم على توسيع نفوذهم في كل مكان، بما في ذلك، بالطبع، البلاد العربية ذاتها؛ وعلى جعل الحلفاء الغربيين يستهينون ابشع استهانة بالمطالب العربية، فلا يقيمون لها اي اعتبار. حتى ان دولهم الكبرى الثلاث: الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، بادرت الى اسباغ حمايتها العلنية على اسرائيل ضمن الحدود التي رسمتها خطوط الهدنة ذاتها، وفعلت ذلك في الوقت الذي كانت فيه مشاريع لجنة التوفيق، التي تضم هذه الدول الثلاث انفسها ما تزال تناقش في الامم المتحدة . وهكذا اصدرت الدول الغربية الكبرى هذه، في أيار ١٩٥٠، بيانها الشهير الذي عرف باسم البيان الثلاثي، وجاء فيه انها «تعارض معارضة صارمة اي استخدام للقوة او اي تهديد بالالتجاء الى القوة بين اي من دول الشرق الاوسط. وأنها اذا تبينت ان اي دولة منها، تستعد لانتهاك حرمة الحدود او خطوط الهدنة، لن تتردد – تنفيذاً لالتزاماتها بصفتها أعضاء في هيئة الامم المتحدة – ان تتدخل باسم هيئة الامم وخارج نطاقها»[٤٦] وادى موقف دول الغرب هذا بالاضافة الى ميوعة الرفض العربي الى تغييب قضية فلسطين، في العام التالي، حتى عن مناقشات الجمعية العامة للامم المتحدة. وانحصر اهتمام الامم المتحدة بها بالمناقشة التي دأبت على اجرائها، بين الاعوام ١٩٥٢ و ١٩٧٤، لتقرير «المفوض العام لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين» حول الخدمات التي تقدمها وكالته للاجئين. وصارت هذه المناقشة تجري حصراً في إحدى لجان الامم المتحدة ولا تصل الى جمعيتها العامة او

مجلس أمنها. وهذا البيان الثلاثي إضافة الى انه اسبغ الحماية الغربية الرسمية على حدود اسرائيل كما حققها عدوانها في الاعوام ١٩٤٨ و١٩٤٩ و١٩٥٠، واظهر الاستعداد للتدخل ضد اي تعديل لها «باسم هيئة الامم او خارجها»، فإنه اسدل الستار على اي محاولات يمكن ان تقوم بها الحكومات العربية، سواء لالغاء وجود اسرائيل او لتعديل حدودها لصالح العرب؛ وذلك لأن هذه الحكومات الخاضعة والتابعة ما كنت تتصور ان في مقدورها ان تتحدى اجماع الدول الغربية. ولذا جاء ردها على البيان الثلاثي مشفوعاً بالدفاع عنه ازاء هياج الراي العام العربي ضده. ولم يتضمن ما يشير الى سخطها من الدول الغربية التي أصدرته. وقد تضمن هذا الرد بياناً اصدرته الدول العربية مجتمعة، بعد انعقاد مجلس جامعتها في حزيران ١٩٥٠. واستهل البيان العربي[٤٧] بالتأكيد على انه ليس هناك من هو احرص من الدول العربية «على استتباب السلام والاستقرار في الشرق الاوسط. فهي بطبيعتها في طليعة الدول المحبة للسلام. وقد اثبتت الحوادث المتوالية مبلغ احترامها لميثاق هيئة الامم المتحدة». واوضح انه «اذا كانت الدول العربية قد اهتمت وتهتم دائماً باستكمال تسليحها فانما يرجع ذلك الى شعورها العميق بمسؤوليها عن حفظ الامن الداخلي في بلادها»، الذي بات مهددا ازاء تزايد المعارضة الداخلية ضد السياسات الموالية للغرب والمتخاذلة أمام اسرائيل،كما يرجع الى حاجاتها في «الدفاع الشرعي عن حياضها والقيام بواجب حفظ الامن الدولي في هذه المنطقة»، مشيرة بذلك الى الدور الذي تعرضه على الغرب في اطار الاستعدادات الدولية لمواجهة القوة المتنامية للمنظومة الاشتراكية، وفي ابان احتدام «الحرب الباردة» بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي ومساندة الولايات المتحدة لتطويق المعسكر الاشتراكي بسلسلة من الاحلاف المعادية له.

واوضح الرد العربي على البيان الثلاثي، ايضاً، ان دول الغرب لم تكن بحاجة لاصدار بيانها هذا، ما دامت الدول العربية نفسها «سبق ان كررت، وقبل تفكير الدول الثلاث في اصدار تصريحها، الاعراب عن نيات العرب السلمية وتكذيب ما دأبت اسرائيل على اشاعته من ان الدول العربية تطلب السلاح لاغراض عدوانية. وهي لا تجد بأسا من ان تعرب من جديد عن نياتها السلمية، وتؤكد ان السلاح الذي طلبته او تطلبه من الدول الثلاث او من غيرها انما يستعمل عادة للاغراض الدفاعية» وحدها. ومن «البديهي»، على حد تعبير البيان العربي، «ان مستوى القوات المسلحة التي تحتفظ بها كل دولة لاغراض الدفاع والقيام بنصيبها في حفظ الامن الدولي، هو أمر يرجع تقديره الى هذه الدولة نفسها، ويخضع لعوامل كثيرة، اهمها عدد السكان ومساحة البلاد وترامي حدودها وتنوعها» وليس الى رغبة الدول العربية في الهجوم على اسرائيل او تعديل حدودها. وقد سجل البيان، باهتمام، التأكيدات التي تلقتها الدول العربية «بأن الدول الثلاث لم تقصد من تصريحها محاربة اسرائيل او الضغط على الدول العربية لتدخل في مفاوضات مع اسرائيل او المساس بالتسوية النهائية للقضية الفلسطينية، او المحافظة على الوضع الراهن، بل قصدت اظهار معارضتها الالتجاء الى القوة او الاعتداء على خطوط الهدنة». مما يشي بحقيقة أن الدول العربية، التي تدافع بهذه العبارات عن مواقف

الدول الغربية الثلاث، احتفظت لنفسها بامكانية الاستمرار في تضليل الرأي العام العربي جاهدة الا يتحول سخطه نحو دول الغرب كي لا يحرجها في علاقاتها معها. واعلن البيان العربي وجهة نظر مصدرية حول افضل حل لما اتخذ، منذ ذلك الوقت اسم «قضية الشرق الاوسط»، مغيباً بهذا التعبير تعبير «قضية فلسطين». ووجهة النظر هذه حول الشرق الاوسط، تدعو الى «حل قضاياه على اساس الحق والعدالة واعادة حالة الوفاق والتجانس التي كانت سائدة فيه، والمبادرة الى تنفيذ قرار هيئة الامم المتحدة الخاص بعودة اللاجئين من فلسطين الى ديارهم وتعويضهم عن املاكهم واموالهم». وبذلك ابرز البيان العربي مطلب عودة اللاجئين، وحده، مغيبا المطالب الوطنية الاخرى للشعب العربي الفلسطيني، فيما يشي ايضاً، بضيق الدول العربية مصدرة البيان من آثار وجودهم وما يشكله من تحريض اجتماعي وسياسي داخل بلدانهم ذاتها.

وبتطوع بيان الدول العربية، من جانبه، لتبديد الشكوك التى اثارها صدور البيان الثلاثي الاميركي الانكليزي، الفرنسي في اوساط الرأي العام العربي والاوساط الدولية المؤيدة للعرب فقال: «ان العمل وحده هو الكفيل بتبديد هذه الشكوك» ثم وصل البيان العربي الى بيت القصيد فأكد على ان الدول العربية التي بينت كل ما من شأنه ان يؤكد حرصها على عدم «الاعتداء» على اسرائيل «لا يمكن أن تقر أي عمل من شأنه المساس بسيادتها واستقلالها». محاولة بذلك ان تجعل الالتزام الغربي الثلاثي بعدم الاعتداء على الحدود التي صاغتها اتفاقات الهدنة التزاماً ذا وجهين ليشمل اسرائيل والدول العربية ايضا. ثم بين مجرى الاحداث اللاحقة ان اساس الركون العربي الى ذلك، من خلال مزيد من التبعية للغرب، كان هزيلا، وان دول البيان الثلاثي لم تتدخل لحماية حدود الدول العربية حين اخذت تتعرض للاعتداءات الاسرائيلية، وأنها تدخلت مجتمعة، او منفردة، في كل مرة ظهر فيها تهديد ما لحدود اسرائيل. اما في عام ١٩٥٦ فقد اشتركت بريطانيا وفرنسا، الموقعتان على البيان الثلاثي، في الاعتداء على مصر صراحة.

ولا شك في ان صدور البيان الثلاثي، عام ١٩٥٠، جاء تتويجاً ملائماً تماماً للمواقف الغربية ازاء الصهيونية واسرائيل ومشروعهما في فلسطين، ومثل، بما لموقعيه من نفوذ وقوة هائلة وتأثير على الحكومات العربية أنفسها، اللبنة الأخيرة في الجهود التي استهدفت اقامة اسرائيل وتثبيت وجودها بقوتها الخاصة وبالحماية الغربية الشاملة لها. بينما مثل الرد العربي على هذا الموقف ونتائجه التسليم العملي ازاء نجاح المشروع الصهيوني في زرع اسرائيل داخل فلسطين والانصياع لرغبة دول التحالف الغربي في عدم التصدي لوجودها او المساس بحدودها التي صاغتها اتفاقات الهدنة، متجاوزة الحدود التي رسمها اي مشروع لتقسيم فلسطين منذ عرضت مقترحات لجنة بيل لتقسيم فلسطين في عام ١٩٣٧ الى مقترحات برنادوت في العام ١٩٤٩.

وعلى ضوء ذلك، مما اثبت مجرى الاحداث خلال السنوات الثلاثين التالية صحته، صار الرفض العربي لاسرائيل، وللاعتراف بوجودها او التفاوض معها على تسوية، رفضاً لا يكاد يزيد عن كونه لفظياً، مع الاقرار بأن الحكومات العربية التي كانت قائمة

عند اعلان قيام اسرائيل والتي توالت بعده، لم تكن غير متأثرة بالتناقض القومي بين مطامع الحركة الصهيونية وسياساتها وبين المصالح القومية العربية. واذا كانت الحكومات العربية قد سلمت عملياً بوجود اسرائيل، من خلال الصمت عن هذا الوجود والقعود عن العمل الجدي لالغائه، فإن تأثير هذا التناقض انعكس في حرص الحكومات العربية على التمسك باستقلال بلدانها هي امام التهديدات الاسرائيلية المتلاحقة، بصرف النظر عن نجاحها في ذلك او فشلها. وصار للرفض العربي المعبر عنه باللاءات الثلاث: لا اعتراف ولا صلح ولا مفاوضات. وظيفة هامة اخرى تتصل بالاوضاع الداخلية لكل بلد عربي، واكتسبت هذه الوظيفة اهمية متزايدة بمضي الوقت؛ اذ انه مع تنامي المعارضات الداخلية في كل بلد عربي لسياسات الانظمة والطبقات الحاكمة، صارت المزايدة بشأن فلسطين من قبل هذه الانظمة والطبقات وسيلة لصرف الاهتمام عن الاوضاع الداخلية، ولتضليل الرأي العام وللتغطية على اجراءات القمع التي تلجأ اليها الحكومات كلما اشتدت انشطة المعارضة. وبمقدار ما كانت هذه الانشطة تشتد. ومن اجل الغرض ذاته، ظلت تنطلق الدعوات «العرمرمية» للحرب ولتحرير فلسطين وحتى لاعادة اليهود الى البحر الذي جاءوا منه، وذلك لتغطية علاقات التبعية المتنامية للدول الغربية والمزايا التي تمنحها الحكومات العربية لها لتسهل نهبها للثروات الوطنية وتعزيز نفوذها في الدول العربية.

واعطى شعار الدفاع عن استقلال البلاد العربية، الذي برز منذ تثبيت وجود اسرائيل، واقتران وجودها بالتغييب الكامل لاسم فلسطين ولمطالب شعبها ولحريته الوطنية المستقلة ولأي مظهر من مظاهر الاستقلال الفلسطيني، اعطى للصراع العربي – الاسرائيلي منحى آخر جديداً اظهره وكأنه نزاع على الحدود بين دول الشرق الاوسط المتعادية والمتنابذة . فغابت قضية فلسطين واستولت نزاعات الحدود، سواء بين الدول العربية واسرائيل او بين الدول العربية فيما بينها، على مركز الاهتمام. وبدا وكأن النوعين من النزاع من طبيعة واحدة. بل ان السنوات التي شهدت تثبيت وجود الدولة الصهيونية شهدت في الوقت نفسه احد اشكال التمحور والتنابذ والعداء بين دول الجامعة العربية، وساهمت النزاعات الاقليمية ومشاريع الوحدة، التي طرحها الاردن او العراق وعبرت عن مطامعهما في الهيمنة على سوريا بالذات، في دفع حدة هذا التنابذ الى الذروة وفي تقسيم الدول العربية الى محاور متعادية على اساس مواقفها من هذه المشاريع ومن خلفياتها. واحتلت هذه النزاعات مركز الصدارة من الاهتمام، وادت الى تخفيف او حتى في بعض الاحيان، الى طي الاهتمام بالموضوع الاصلي وهو الصراع العربي الاسرائيلي. وأسهمت بدورها في دفع الشعارات المتشددة في رفض اسرئيل الى الذورة، وجعلت كل طرف عربي يوجه الاتهامات للطرف الآخر بأن مسلكه يخدم اسرائيل.

في جوهر هذا كله، يكمن شيء ليس من الصعب البرهنة على صحته بالرغم من ان الوثائق المتاحة، والعلنية منها على وجه الخصوص لا تسعف في تقديم البراهين. هذا الشيء يتمثل في ان وجود اسرائيل صارت له وظيفة ذات اهمية بالغة في خدمة هيمنة الحكومات والقوى العربية الرجعية على السلطة في بلدانها. ولا شك في ان

الامر جرى على نحو معقد، او مركب اذا شئنا ان نختار التعبير الادق. وقد انطوى الرفض العربي المعلن لوجود اسرائيل على قدر من التعبير عن التناقض القومي بين الجانبين، بيما انطوى العجز او القعود العربي عن مجابهة هذا الوجود على اقرار ضمني بأنه صار، منذ تعزز وبمقدار ما كان يتعزز، يسدي خدمة لجوهر سياسة الحكومات العربية القائم على مكافحة تطور قوي التطوير والتقدم في بلدانها وعلى التمسك بالتبعية لدول الغرب. ذلك ان وجود اسرائيل صار يخدم حقيقة/هذين الاتجاهين الرئيسيين في سياسات الحكومات العربية الرجعية ويمكن من تعزيز النفوذ الغربي في الشرق الاوسط، الذي لم يكن مقبولاً منها فحسب، بل مطلوباً ايضا. وكأنما صار وجود اسرائيل امراً مرغوبا فيه وان لم يجر الافصاح صراحة عن هذه الرغبة لأسباب تتصل بمواقف اغلبية الرأي العام الذي يرفض هذا الوجود ويحس بمخاطره على المصالح الحقيقية للبلدان العربية فضلاً عن خطره الماحق على وجود ومصالح الشعب الفلسطيني.

ولعل هذا الوضع هو الذي يفسر نوعاً يثير الدهشة من الاسهام العربي في تعزيز قوة اسرائيل، ، مارسته، عن وعي تام، بعض الحكومات العربية المعنية، ومارسه بعضها، بوعي اقل، زيادة على انه يفسر التسليم العملي بوجودها. والقعود عن مجابهتها وهو الاسهام الذي مثله موقف الحكومات العربية من هجرة المواطنين اليهود منها الى اسرائيل. هذا الاسهام تتجلى اهميته البالغة عندما نعرف ان الهجرة التي كانت، قبل العام ١٩٤٨، المطلب الأول الذي ادى تحقيقه لقيام اسرائيل صارت، بعد هذا العام، مطلبا اولا لتعزيز وجودها وتقويتها ومساعدتها، بل دفعها، لممارسة السياسة التوسعية. وبينما ظلت الدول العربية تستنكر لفظياً عمليات الهجرة اليهودية الى اسرائيل، فعلت من جانبها كل ما من شأنه ان يسهل هجرة مئات الالوف من يهود بلدانها. وتبين، فيما بعد، ان عدداً من هذه الدول فعلت هذا متعمدة ونتيجة اتفاقات ابرمتها مع القيادة الصهيونية. بل قامت ايضا بتشديد الارهاب ضد يهود بلدانها لغرض وحيد هو ارغام الذين لا يرغبون في الهجرة على أن يغادروا البلاد ويتوجهوا الى اسرائيل، كما كان شأن العراق مثلا في عهد حكومة نوري السعيد. كما اتضح ان الدول الاخرى، غير العراق التي هاجر يهودها الى اسرائيل مارست السياسة ذاتها التي مارسها بلد كالعراق من غير ان تتوفر الادلة على ان ذلك كان متعمداً او انه تم نتيجة اتفاقات مبرمة. والحال، كما انتهت اليه هذه السياسات، ان الدول العربية أمدت اسرائيل في السنوات الثلاث الاولى لقيامها بـ ٣٠٠ الف مهاجر، اي بما يقترب من نصف عدد سكانها عند اعلان قيامها، وفي السنوات التالية بحوالي نصف مليون آخرين بحيث يمكن القول ان يهود الدول العربية هم وذريتهم ما يقارب المليوني شخص من سكان اسرائيل اليهود، او ما تزيد نسبته حالياً عن ٦٠ بالمائة منهم وان معظم هؤلاء تم تهجيرهم بالاكراه الى اسرائيل وضد رغباتهم الخاصة في احوال كثيرة (٤٨).

وفي ظل هذا الوضع المركب، بمراحله المتناقضة والمتداخلة، صار اسهل ما يمكن ان تفعله الحكومات العربية، من وجهة نظرها، هو ما فعلته في الواقع: اي تشديد شعارات الرفض اللفظي، والامعان في القعود عن المجابهة بينما كانت اسرائيل

تتقوى وتتوسع، وتضليل الرأي العام بالبيانات والخطب التي يناقض محتواها السلوك الفعلي للحكومات، والاستفادة من رفض الرأي العام الحقيقي لاسرائيل لتسهيل عملية التضليل هذه. وقد ترافق هذا مع صب اجراءات القمع الشديد ضد القوات الثورية التي تمتعت بوعي متقدم فكشفت النقاب عن نفاق شعارات الرفض اللفظي، وحاولت ان توجه سخط الرأي العام ضد التواطؤ الصهيوني الامبريالي العربي - الرجعي، كما فعل على سبيل المثال الشيوعيون في فلسطين ومصر والاردن وسوريا وغيرها. وكما فعل معهم وبعد ذلك على نحو ما ، البعثيون في سوريا والعراق والاردن، والناصريون التقدميون في هذه البلدان وغيرها.

---

( ١ ) انظر نص القرار في د. جورج طعمة (مراجعة وتحقيق)، «**قرارات الامم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي - الاسرائيلي ١٩٤٧-١٩٧٤**»، بيروت وابو ظبي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ومركز الوثائق والدراسات، الطبعة الثانية، ١٩٧٥، ص ١٩٧.

( ٢ ) محمد عزة دروزة ، «**القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**» صيدا، المكتبة العصرية، بدون تاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٦.

( ٣ ) **المصدر نفسه** ، ص ٣٩.

( ٤ ) **المصدر نفسه**، ص ٥٧.

( ٥ ) **المصدر نفسه**، ص ٩٦.

( ٦ ) **المصدر نفسه** ،١٩١

( ٧ ) **المصدر نفسه**، ص ٢١١.

( ٨ ) **المصدر نفسه**،ص ٢١٣.

( ٩ ) **المصدر نفسه**، ص ٢١٨.

(١٠) **المصدر نفسه**، ص ٥٩.

(١١) **المصدر نفسه**، ص ١٤١.

(١٢) لمزيد من التفاصيل راجع ما رواه عبد الله التل في كتابه «**كارثة فلسطين**»، القاهرة، دار القلم،١٩٥٩، ص ٣٤٤ وما بعدها ص ٤٣٧ وما بعدها.

(١٣) راجع نص مشروع برنادوت في «**ملف وثائق فلسطين**»، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٦٩، الجزء الاول، ص ٨٦٣ وما بعدها.

(١٤) دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨١.

(١٥) **المصدر نفسه**، ص ٣٠٧و٣٠٩.

(١٦) **المصدر نفسه**، ص ٣١٢.

(١٧) **المصدر نفسه**، ص ٣١٥.

(١٨) **المصدر نفسه**، ص ٨٣.

(١٩) **المصدر نفسه**، ص ٩٢.

(٢٠) ملف وثائق فلسطين، **مصدر سبق ذكره**،الجزء الاول، ص ٧٨٨.

(٢١) دروزة، **مصدر سبق ذكره**،ص ٥٦.

(٢٢) **المصدر نفسه**، ص ٥٩.

(٢٣) **المصدر نفسه**، ص ١٠٣.

(٢٤) **المصدر نفسه**، ص ٥٩ و٦٠.

(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ٨٢.

(٢٦) **المصدر نفسه**، ص ٨١.

(٢٧) انظر نص قواعد المقاطعة العربية في ملف وثائق فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الاول ص، ٨٦٣.

(٢٨) انظر نص مذكرة الدول العربية برفض مشروع برنادوت في **المصدر نفسه**، ص ٩٥٩ وما بعدها.

(٢٩) دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩٨ و ٢٩٩.

(٣٠) لمزيد من التفاصيل انظر : عبد الله التل: **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٤٤ وما بعدها وص ٤٣٧ وما بعدها.

(٣١) دروزة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٠١و ٣٠٢.

(٣٢) انظر نص القرار في : «**قرارات مجلس جامعة الدول العربية الخاصة بقضية فلسطين منذ الدورة الاولى حتى الدورة الخمسين**»، القاهرة، جامعة الدول العربية الامانة العامة، ١٩٧٠، ص ٣.

(٣٣) دروزة ، **مصدر سبق ذكره** ، الملاحق، الملحق رقم ٦، ٢٩و٣٠.

(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ١٢٤ – ١٢٥.
(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ١٠٢.
(٣٦) **المصدر نفسه**، ص ١٠٣.
(٣٧) **المصدر نفسه**، ص ١٤٠ وما بعدها.
(٣٨) **المصدر نفسه**، ص ١٤٣.
(٣٩) راجع نص المذكرة في ملف وثائق فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الاول، ص ٩٣٥.
(٤٠) انظر نص اعلان قيام اسرائيل في **المصدر نفسه**: ، ص ٩٣١.
(٤١) لمزيد من التفاصيل حول انسحاب الجيش الاردني من اللد والرملة راجع عبد الله التل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٥ وما بعدها.
(٤٢) دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٧.
(٤٣) انظر نصوص اتفاقيات الهدنة : بين مصر واسرائيل في ملف وثائق فلسطين، الجزء الاول، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٠٣، وبين لبنان واسرائيل في **المصدر نفسه**، ص ١٠٣٣ وبين الاردن واسرائيل في **المصدر نفسه**، ص ١٠٣٩ وبين سوريا واسرائيل في **المصدر نفسه**، ص ١٠٥٩.
(٤٤) انظر نص بروتوكول لوزان في **المصدر نفسه**، ص ١٠٥١.
(٤٥) دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٩.
(٤٦) انظر نص البيان الثلاثي في ملف وثائق فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثاني، ص ١٠٧٥.
(٤٧) راجع نص بيان الدول العربية، وقرار مجلس جامعة الدول العربية بشأنه في **المصدر نفسه**، ص ١٠٨١ وما بعدها.
(٤٨) لمزيد من التفاصيل راجع: محمود عباس «ابو مازن»، «**الصهيونية بداية ونهاية**» بلا ناشر وبلا تاريخ للنشر، طبعة مزيدة ومنقحة بلا اشارة لرقمها، وانظر، خصوصاً، الفصل الخامس، ص ٧٠ وما بعدها.

عبد الحفيظ محارب

# العلاقات بين المنظمات العسكرية الصهيونية خلال الفترة الاولى من الحرب العالمية الثانية

## خلافات اتسل وظهور ليحي

شهدت * المرحلة الاولى من الحرب العالمية الثانية نمطاً جديداً من العلاقات بين المنظمتين الصهيونيتين المسلحتين، الهجناه واتسل، يختلف عن النمط السابق من حيث موقع ادارة الصراع بينهما في مجال المنافسة على بسط النفوذ داخل اليشوف اليهودي. فبينما كانت اتسل، في السابق، تصارع الهجناه من موقع التصدي لسلطات الانتداب والسياسة البريطانية تجاه القضية الفلسطينية، في إطار نظرية نظرية الضغط الخاصة بجبوتنسكي، كانت الهجناه تواجهها، من موقع التحالف والتعاون مع سلطات الانتداب والاستعانة بها. اما في هذه المرحلة فقد اصبح الوضع، مع اندلاع الحرب، مختلفاً؛ اذ اخذ الصراع يدور بين الطرفين، في دائرة تنافسهما حول توثيق العلاقة مع السلطات الاستعمارية في فلسطين. واحرزت اتسل، في هذه الفترة، قصب السبق في مجال «التعاون» مع البريطانيين، الامر الذي ابقى على هوة الخلافات بين المنظمتين ووسعها في بعض الاحيان، وبخاصة ان مفهوم «التعاون» مع السلطات البريطانية، سواء كان «تعاون» الهجناه ام اتسل، هو اقرب في حقيقته وجوهره، الى العمالة منه الى التحالف بين طرفين.

كما شهدت هذه الفترة ايضا ولادة تنظيم جديد يحمل اسم «ليحي»، تمرد على واقع تنافس المنظمتين على «التعاون» مع السلطات الاستعمارية، ودعا الى «التعاون» مع دول المحور النازية، مبرراً توجهه المغاير بالفوائد والمكاسب الجمة، العائدة على المشروع الصهيوني، تماماً كما بررت كل من المنظمتين السابقتين موضوع «التعاون» مع البريطانيين.

وليس من المستغرب في شيء ان نجد، في هذه الفترة، التنظيمات الصهيونية المسلحة الثلاثة، يصارع كل منها الآخر، ويتآمر عليه، حتى عن طريق نافذة «التعاون».

---

* فصل من كتاب سيصدر للمؤلف عن مركز الابحاث.

## توتّر العلاقات بين سلطات الانتداب والهجناه

كانت العلاقات بين الهجناه والسلطات البريطانية في فلسطين قد ارتقت الى افضل حالة لها خلال سنني الثورة الفلسطينية (١٩٣٦ – ١٩٣٩)؛ وذلك بفضل تماثل المصالح بين الطرفين، في تلك الفترة، بشكل حاد. وبانتهاء الثورة، وتبني السلطات البريطانية سياسة جديدة عبرت عن نفسها في وثيقة الكتاب الابيض، مستهدفة كسب الرأي العام العربي، او على الاقل تقليل فرص احتمال تجدد الثورة الفلسطينية، مع تلبد سماء اوروبا بغيوم الحرب العالمية، بدأت العلاقات بين قادة الوكالة اليهودية وبريطانيا تفتر وتفقد بعض حرارتها السابقة المكتسبة. وباندلاع الحرب العالمية الثانية، اخذت هذه العلاقات تسير من سيء الى اسوأ حتى تشكيل حكومة الحرب البريطانية في عام ١٩٤٠، برئاسة ونستون تشيرشل الذي اوقف حالة التدهور دون ان يتمكن بفعل المتغيرات المحلية والدولية، من اعادة العلاقة الى سابق عهدها. وتعرف هذه الفترة في الادب السياسي الصهيوني بفترة «الانحطاط» بالنسبة للهجناه. واذا كان هذا التعريف يدل على شيء، فانه يدل اولاً واخيراً، على مدى الارتباط الوثيق بين نمو قوة اليشوف اليهودي والاستعمار البريطاني بحكم العلاقة الجدلية القائمة بينهما.

ومن ابرز مؤشرات التدهور في العلاقات، قضية التجنيد في الجيش البريطاني، واعتقال سلطات الانتداب لعدد من افراد الهجناه والاستيلاء على بعض مخازن الاسلحة التابعة لها، والخلاف حول قانون الاراضي، والتصدي للهجرة اليهودية «غير الشرعية».

١- **مسألة التجنيد**: مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، كانت المسألة الاساسية المستحوذة على فكر قادة الحركة الصهيونية، ليس موقف الحركة من هذا الفريق او ذاك، كما كان الامر عند اندلاع الحرب العالمية الاولى، بل كيف يمكن استغلال واقع اندلاع الحرب، لتشكيل جيش عبري، او فرقة يهودية تعمل في صفوف القوات البريطانية لتكون بمثابة جيش قائم معترف به عند انتهاء الحرب، معد لدخول وخوض الحرب الحقيقية مع السكان الاصليين في فلسطين. ولم تغب، في هذه الفترة، عن بال قادة الحركة الصهيونية الكتائب العبرية التي انشئت خلال الحرب العالمية الاولى وما اسدته، على الرغم من انجازاتها الضحلة، من مكاسب سياسية للمشروع الصهيوني، فضلاً عن اكسابها الشباب اليهودي خبرات عسكرية.

من خلال هذه الرؤية، نشط المسؤولون عن الوكالة اليهودية، عشية اندلاع الحرب، في عقد اجتماعات مع المسؤولين العسكريين في لندن؛ حيث اجتمع موشيه شاريت برئيس فرع العمليات، في لندن، عارضاً عليه تجنيد ٤٠ الف يهودي من فلسطين. واقامة وحدات للمتطوعين اليهود من مناطق مختلفة في العالم(١). ولم يكن بوسع الضابط البريطاني البت في هذا الموضوع. وفي الوقت نفسه، كان عدد من قادة الهجناه يجرون اتصالات مع الجنرال باركر في فلسطين طارحين عليه فكرة اقامة فيلق يهودي في فلسطين، ولم يقبل باركر الخطة، خشية ان تؤدي الى حدوث انتفاضات وثورات ضد السياسة البريطانية،

داخل فلسطين وخارجها في العالم العربي؛ الامر الذي من شأنه ان يفتح جبهات جديدة امام البريطانيين هم في غنى عنها، ويتضح ذلك من قوله لمقترحي الخطة، ان ذلك من شأنه فتح جبهة داخل فلسطين، واخرى خارجها الى جانب الجبهة مع المانيا؟ «سادتي، ثلاث حروب في آن واحد. حرب واحدة تكفي. امس جاء الي النشاشيبي ليعرض علي خدمة العرب في الجيش البريطاني. ماذا كنتم ستقولون لو جندنا عشر كتائب عربية؟».[٢]

ازاء تحفظ البريطانيين، وعدم اعطائهم اجابة ملزمة لوايزمان الذي بذل، هو الآخر، جهودا كبيرة لاقناعهم باقامة جيش عبري، قامت اجهزة «اليشوف المنظم» في ايلول ١٩٣٩ بمبادرة من جانبها، بتنظيم احصاء جماهيري[٣]، جرى فيه تسجيل ١٣٦ الف رجل وامرأة، ممن يستطيعون حمل السلاح، بهدف اظهار قوة اليشوف اليهودي لـ«اغراء» بريطانيا. ولم يتأت عن هذا العمل اية نتائج تذكر، اذ لقي فشلا ذريعا، لعدم استجابة البريطانيين للتظاهرة اليهودية بشان خوض المعركة الى جانب بريطانيا.

مع تزايد المطالبة الصهيونية بفتح ابواب التطوع امام اليهود في الجيش البريطاني، طرح المسؤولون البريطانيون على الوكالة اليهودية ثلاثة عروض بخصوص المساهمة في الجهود العسكرية البريطانية: انشاء كتائب عسكرية فلسطينية مختلطة تضم يهودا وعربا، واقامة وحدات حفر مختلطة ترسل الى الجبهة لحفر الخنادق، وفتح الباب امام تجنيد اصحاب المهن كاحتياطيين في الجيش البريطاني، وجاءت ردود قادة الوكالة اليهودية سلبية تجاه العرضين الاولين[٤]. وفي نهاية الامر، جرى تشكيل وحدة الحفر على يد البريطانيين دون مساهمة الوكالة، وتحت ظلال رفضها، وانضم اليها مئات من اليهود العاطلين عن العمل؛ مما يعيد الى الاذهان صورة تجند المتسكعين اليهود في مصر، في كتيبة البغال الصهيونية في الحرب العالمية الاولى، كما انضم اليها عدد ملحوظ من التصحيحيين الخارجين عن سلطة «اليشوف المنظم»، وكذلك نفر بسيط من الهجناه كان جزاؤه الطرد من صفوف منظمته لتمرده على موقف قادة «اليشوف المنظم» من عملية التطوع[٥]. ومع ذلك، فقد اخذت عملية التجنيد تشق طريقها ببطء في الوسط اليهودي، وتستقطب اعداداً اكبر مع مرور الزمن.

ومن الجدير بالذكر ان اليشوف اليهودي لم يتمكن، في تلك الفترة، من التوصل الى اجماع حول موضوع التجنيد في الجيش البريطاني؛ ذلك ان التجنيد يمنح المشروع الصهيوني مكاسب سياسية في الوقت الذي يؤثر فيه، بشكل او بآخر، على نمو الهجناه وتوسع صفوفها داخلياً. وقد دارت نقاشات مطولة وعميقة بين مختلف الكتل والتيارات حول موضوع اساسي: الى اي مدى يمكن فتح ابواب التجنيد امام يهود فلسطين دون ان يؤثر الامر على نمو الهجناه؟ ومن الطبيعي ان تقدم التيارات والتكتلات السياسية، سواء بسبب التباين في منطلقاتها السياسية والايديولوجية ام بسبب التباين في الاجتهادات الشخصية، إجابات مختلفة، تتلاءم كل واحدة منها مع مدى ترجيح هذه الكتلة، او تلك، بهذا المقدار او ذاك، لاحد الاعتبارين، اضافة الى خضوع الاجابة الواحدة، للتبدل او التعديل، بين الحين والآخر، بفعل ضغوطات سير المعارك. ومن هنا،

فقد تحكمت في مسار عملية التجنيد، اعتبارات صهيونية متعددة، والى حد ما، متباينة. ومع ذلك، فقد اتسم مسار العملية بالتوسع، من عام الى عام، ففي اواخر عام ١٩٤١ وصل عدد المجندين اليهود في فلسطين الى قرابة ١١ الف[٦] مجند، وارتفع العدد، خلال سني الحرب ليصل في نهاية ١٩٤٥، الى حوالى ٢٦ الف مجند[٧] يتوزعون على اسلحة الجيش المختلفة.

خلال مسار عملية التجنيد هذه التي لاءمت السياسة البريطانية اكثر مما اشبعت رغبات قادة الحركة الصهيونية، عمل قادة الوكالة اليهودية كل ما في وسعهم لتحقيق فكرة قيام الجيش العبري، او على الاقل، قيام فرقة يهودية تعمل في فلسطين، وفرقة ثانية تتشكل من يهود العالم تعمل في صفوف القوات البريطانية. ومن الملاحظ، ان البريطانيين لم يعارضوا فكرة اقامة الفرقة العبرية الاولى، فقد وافقوا عليها اثناء المباحثات السرية، وانما عارضوا تحديد الوكالة لمكان عملها (فلسطين)، واقترحوا، بدلاً من ذلك ان تحتل الفرقة، في حال قيامها، مكانها في جبهة القتال في اوروبا[٨].

رمت الوكالة اليهودية من اقامة الفرقة واقتصار نشاطها على فلسطين الى الحصول على انجازين اساسيين:

١ - اعتراف بريطانيا بشرعية القوة العسكرية اليهودية، وبالتالي اعترافها بما تسعى اليه هذه القوة من اهداف سياسية.

٢ - تنمية الطاقات والقدرات العسكرية والقتالية داخل اليشوف اليهودي في فلسطين، وعدم اهدارها في معارك جانبية.

بقي الحوار حول اقامة الفرقة قائما بين الطرفين لمدة طويلة، ولم يستجب البريطانيون للمطلب الصهيوني، خشية من ان تحمل الموافقة، بين طياتها، ليس عبئاً عسكرياً على بريطانيا فحسب، وانما ايضا، لسبب آخر اهم، يتمثل في تمهيد الطريق امام احتمال تجدد الثورة الفلسطينية مما يستدعي من بريطانيا جهداً عسكرياً كبيراً لحماية مصالحها في فلسطين وحماية ما كان قد تحقق من المشروع الصهيوني. ومن هنا، نبعت معارضتها لاقامة الفرقة واقتصار عملها على فلسطين. وقد تبددت هذه المعارضة مع تغير الظروف. ففي اواخر ايلول ١٩٤٤، وعندما اصبح الاعلان عن هزيمة دول المحور مسألة وقت، استجابت بريطانيا للمطلب الصهيوني، واقامت «الفرقة اليهودية» مع علم يهودي[٩]، لتساهم في الاعمال القتالية في الجبهة الاوروبية. وواجهت الفرقة، منذ تأسيسها، مشكلة النقص في عدد المتطوعين اليهود؛ وذلك لأن الجيش البريطاني كان يستوعب، خلال الفترة السابقة، اعدادا كبيرة من الشباب اليهودي. ولم يكن امام المسؤولين عن الفرقة، التي ارادوا لها ان تُبْنى على «الطهارة اليهودية»، مناص من استكمال بنائها على يد عناصر «غير يهودية» من البريطانيين وبقيادة بريطانية[١٠] بيد ان الاهم من ذلك هو ان هذه الفرقة لم تساهم في الاعمال القتالية ضد القوات الفاشية والنازية[١١].

من الملاحظ ان المتطوعين اليهود لم يساهموا، كما حدث خلال الحرب العالمية الاولى، في اعمال قتالية تذكر، فقد بلغت خسائرهم الاجمالية قرابة مئتي قتيل، سقط معظمهم في الجبهات الخلفية، بينما وقع في الاسر الالماني حوالى ١٦٠٠ مجند يهودي اسر معظمهم في اليونان اثر انسحاب قوات الحلفاء من هناك[١٢]. وبذلك عاد المتطوعون اليهود الى فلسطين سالمين ومزودين بخبرات عسكرية، افادت الهجناه بشكل كبير في امتحانها الاكبر عام ١٩٤٨. وقد مَسّ بن – غوريون، في حديث له، امتعاض جنود الوحدات اليهودية من عدم مساهمتهم في اعمال قتالية تذكر بقوله: «...ليس من المعقول الّا تعتبر الكتيبة ان واقع قيامها هو بمثابة سلاح سياسي... في حربنا»[١٣]. وليس من شك في ان حماس المجندين اليهود والمسؤولين عنهم، في النضال لاستبدال اسم فلسطين من شارة الكتائب الفلسطينية التي خدموا فيها باسم «ارض اسرائيل»، يفوق حماسهم لخوض المعارك الفعلية. وحتى بعد تشكيل «الفرقة اليهودية»، او كما تطلق عليها كتب التاريخ الصهيونية اسم «الفرقة اليهودية المقاتلة»، كان همّ جنودها والمسؤولين عنها في «اليشوف اليهودي»، عقب حذف اسم فلسطين وتثبيت اسم «ارض اسرائيل» في الشارة، السماح لجنود الفرقة برفع العلم العبري دونما اي اهتمام بالاسهام الفعال في دق المسمار الاخير في نعش الفاشية والنازية؛ اذ لم تشترك الفرقة «المقاتلة»، ولو في معركة واحدة، وبقيت سالمة، لتعود الى فلسطين، وقد تحقق ما يرمي اليه قادة الحركة الصهيونية من «اكتساب الخبرة العسكرية» دون خسائر تذكر. وليس من شك في ان التكتلات الحزبية الصهيونية كانت ستعفي نفسها من عناء النقاش الطويل، حول موضوعة التعارض بين الخدمة في الجيش البريطاني وبين نمو الهجناه، لو كانت تعرف سلفاً ضآلة الخسائر بين صفوف المتطوعين.

وتجدر الاشارة هنا الى ان المتطوعين اليهود، وخصوصاً اولئك المفرزين من الهجناه او اتسل، قد برزوا في مجال واحد فقط هو العمل الاستخباري، وقد قدموا خدمات ملحوظة في هذا الميدان للقوات البريطانية.

الى جانب ما حققته قيادة الحركة الصهيونية من انجازات سياسية وعسكرية (خبرة المجندين) من التطوع في الجيش البريطاني، احرزت ايضا انجازاً كبيراً، خلال فترة الحرب، في ميدان تنمية وبلورة قوة الهجناه. ففي اعقاب توسع رقعة الاعمال القتالية وامتدادها الى منطقة الشرق الاوسط، حيث اصبح الخطر النازي يحدق بفلسطين، كثّفت القيادة الصهيونية من نشاطها لإقامة وحدات عسكرية شبيهة بوحدات «كتائب الميدان» اليهودية التي كانت قد اقيمت، خلال سني الثورة الفلسطينية، وعملت الى جانب القوات البريطانية للقضاء عليها، وبعد الحصول على الموافقة البريطانية، قررت قيادة الهجناه، عند منتصف عام ١٩٤١، اقامة «الكتائب الساحقة» او ما يعرف بالـ «بلماح»[١٤]. وتلخصت مهامها الاولى في مساعدة القوات البريطانية بتنفيذ عمليات معينة ضد قوات دول المحور في سوريا. وفي هذا الاطار، توجهت مجموعة تتشكل من ٢٣ عنصراً، في زورق، في مهمة لنسف معامل تكرير البترول في طرابلس وغرقت في مياه البحر المتوسط بالقرب من المدينة دون ان يعثر على اثر لعناصرها[١٥]. ولم تقم قوات البلماح بعمليات عسكرية

تذكر، باستثناء عمليات استطلاعية وتجسّسية في سوريا اثناء خضوعها لحكومة فيشي، تمهيداً لدخول قوات الحلفاء. وقد اصيب موشيه ديان في احدى هذه العمليات باصابة اودت باحدى عينيه(١٦).

٢ - **اعتقالات ومصادرة اسلحة** : عقب اندلاع الحرب العالمية الثانية بشهر واحد فقط، اهتزت العلاقة بين السلطات البريطانية والوكالة اليهودية؛ وذلك اثر قيام سلطات الامن البريطانية بالقبض على ٤٣ عنصراً من منظمة الهجناه اثناء اعدادهم في دورة ضباط في مستوطنةيفنيئيل الواقعة في منطقة مكتظة بالسكان العرب. وكان، من بين المعتقلين، عدد من كبار قادة الهجناه مثل موشيه كرمل وموشيه ديان. وقد اقتيد هؤلاء الى معتقل عكا، حيث اخضعوا للتحقيق وتعرضوا للتهديد والضرب من قبل الضباط البريطانيين، وكأن فترة الاعوام الثلاثة السابقة التي قام فيها البريطانيون بمهام تدريب وتزويد الهجناه بالاسلحة لم تكن. ولم يشفع لمجموعة عناصر الدورة الادعاء الذي تردّد على السنتهم بانهم لبوا نداء الواجب والتحقوا بالتجنيد العبري بهدف «مساعدة الجيش البريطاني»،وصدر الحكم، بحقهم، بالسجن مددا مختلفة(١٧).

وقد رد قادة «اليشوف المنظم» على ذلك بالدعوة للاضراب واحتجاب الصحف اليهودية عن الصدور. ومن الملفت للنظر، ان كافة الصحف استجابت للدعوة باستثناء الصحيفة الناطقة باسم الحركة التصحيحية(١٨). ولا يدل ذلك على طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين اتسل والهجناه فحسب، وانما يدل ايضاً على طبيعة العلاقات الجديدة التي نشأت بين اتسل والسلطات البريطانية.

رافقت اعمال الاعتقال هذه نغمة بريطانية جديدة تدعو الى حل منظمة الهجناه «غير الشرعية»، واستيعاب عناصرها في سلاح الحراسة«الشرعي». ويبدو ان اسباب هذا التوجه تعود، اساسا، الى تخوف البريطانيين، في تلك الفترة، من احتمال تجدد الثورة الفلسطينية نتيجة تعاظم قوة الهجناه، في وقت غير مريح بالنسبة لهم، وهذا ما يفسر لنا توصية سلطات الانتداب، في فلسطين، للمسؤولين في بريطانيا، بحل المنظمة. وقد دعت التوصية، في حال عدم استجابة الوكالة اليهودية لذلك، الى تخفيض عدد سلاح الحراسة والاستغناء عن خدمات اليهود الذين التحقوا في الجيش البريطاني(١٩). ولعل في ذلك ما يشير الى مدى ما وصلت اليه النظرة البريطانية تجاه الوزن العسكري للمتطوعين اليهود العاملين في الجيش البريطاني، وادراكهم العامل السياسي الكامن وراء عملية التطوع.

في اجواء قضية اعتقال الـ٤٣ عنصراً، جرت عملية اعتقال اخرى ناجمة، اساساً عن محاولة البريطانيين فرض النظام في فلسطين وتطبيق ذلك على الوسط اليهودي ايضا، لتحسين صورتهم امام العرب. فقد حدث ان نشب نزاع بين مجموعة من السكان العرب في غور ابو شوشة، في وادي بيسان، وبين عدد من افراد «سلاح الحراسة» اليهودي، حول الارض والماء، ما لبث ان تطور الى اشتباك، اصيب خلاله احد اليهود بجراح، مما حمل زملاؤه على اطلاق النار على المواطنين العرب من غير المشتركين في النزاع. «وبطريقة

الخطأ»، وفق اجماع المصادر الصهيونية، «اصابوا ثلاثة من المارة العرب، لقي احدهم وهو مختار القرية، مصرعه»[٢٠]. ووجدت السلطات البريطانية نفسها مضطرة لالقاء القبض على عناصر المفرزة، واصدار الحكم بحقهم بالسجن مدداً مختلفة خففتها فيما بعد.

وفي الوقت نفسه، شهدت المحاكم ايضا قضية اخرى تخص اتسل، شبيهة الى حد ما بقضية دورة ضباط الهجناه، فقد القت سلطات الامن البريطانية القبض على ٣٨ عنصراً ينتمون لاتسل، اثناء اجتيازهم دورة تدريبية بالقرب من مستوطنة «مشمار هيردن»، وصادرت اسلحتهم. وقد صدرت بحقهم احكام بالسجن لمدد مختلفة، على الرغم من الانقلاب في موقف اتسل تجاه بريطانيا. ومن الجدير بالذكر، ان جهاز المخابرات البريطاني تمكن من التدخل لتخفيف الاحكام الصادرة بحقهم واطلاق سراحهم بسرعة لان في بقائهم وراء القضبان «خسارة مصدر استخباري هام ذي قيمة لا يمكن التنازل عنه»[٢١] وفق ما جاء على لسان المسؤول عن جهاز الاستخبارات البريطانية في فلسطين.

وفي غضون ذلك، كانت سلطات الامن البريطانية قد نجحت، مطلع ١٩٤٠، في العثور على ثلاثة مستودعات للاسلحة في مستوطنة «بن شيمش» تخص الهجناه، والقت القبض على ١٥ عنصراً من عناصرها، واصدرت بحقهم احكاماً بالسجن مدداً مختلفة، ثم ما لبثت ان افرجت عنهم بعد عام[٢٢]. ومن الملفت للنظر ان الهجناه لحقت باتسل في هذه الفترة، في مجال اعدام اشخاص يهود بتهمة تقديم معلومات الى المخابرات البريطانية عن المنظمة، تتعلق معظمها بمستودعات الاسلحة. وقامت بتنفيذ حكم الاعدام بحق خمسة «مخبرين» يهود[٢٣].

٣ – **قانون الاراضي**: مما زاد الطين بلة، ووسع من رقعة الخلاف، بين الوكالة اليهودية والسلطات البريطانية، اقدام البريطانيين، في ٢٨ شباط ١٩٤٠، على اصدار قانون بخصوص استملاك الاراضي في فلسطين، الامر الذي اعاد اليشوف اليهودي الى الاجواء التي اعقبت صدور الكتاب الابيض قبل حوالى نصف عام. وجاء رد الوكالة اليهودية على شكل سلسلة اضرابات وتظاهرات صاخبة عمت التجمعات اليهودية في فلسطين، مرافقة بحملة اعلامية ضد الكتاب الابيض والسياسة البريطانية مركزة على ان «التمييز العنصري» الذي يلاقيه اليهود على ايدي البريطانيين يفوق التمييز العنصري في الانظمة النازية، ومشفعة ذلك بمذكرات احتجاج، من بينها مذكرة ارسلها بن – غوريون الى المندوب السامي ركز فيها على ان الانظمة النازية لا يوجد فيها «تمييز قومي وعنصري كهذا»[٢٤].

كان لمنظمة الهجناه دور بارز في التصدي للقانون الخاص بانتقال الاراضي. وقد اتخذ هذا الدور شكلين اساسيين: تنظيم التظاهرات والاضرابات؛ وادارة حملة اعلامية ضد القانون من خلال محطة اذاعية تحمل اسم «صوت اسرائيل» كانت الهجناه قد اقامتها قبل فترة قصيرة. وشكل نشاط المنظمة، في هذه الفترة، نقطة خلاف بين قيادات التكتلات المسؤولة

عنها. ففي الوقت الذي تخوفت فيه عناصر قيادية من الوسطين «المدني» والهستدروتي من تبعات ارتفاع وتيرة النضال ضد سياسة الكتاب الابيض، ودعت الى تخفيفها متسائلة: «كيف يمكن لنا الان، الحاق الضرر ببريطانيا في الوقت الذي تقوم فيه بخوض حربنا»[٢٥]، دعا فريق يتزعمه بن – غوريون الى تصعيد النضال لالغاء الكتاب الابيض، وفق مقولته الشهيرة «سنقاتل الى جانب بريطانيا ضد هتلر، وكأن الكتاب الابيض غير قائم، وسنناضل ضد الكتاب الابيض وكأن الحرب غير قائمة». ولم يتمكن بن – غوريون وفريقه من فرض وجهة نظره على الرغم من تهديده بالاستقالة، وقد استقال بالفعل، الا انه عاد وتراجع عن استقالته تحت ضغط التيارات المختلفة[٢٦]، وتراجع ايضا عن اصراره لتحقيق مقولته، ادراكا منه لمدى العراقيل الكامنة امام تحقيقها.

ومن الجدير بالذكر، ان منظمة اتسل لم تشارك او تساهم في التظاهرات والاضرابات التي عمت التجمعات اليهودية بمبادرة من قيادة «اليشوف المنظم» بحجة ان «ظروف هذه الايام»، وفق ادعاء قيادة اتسل «...ترغم المنظمة على اعادة السيف الى غمده» [٢٧]. والحقيقة ان المنظمة كانت، في ذلك الحين، منغمسة في شيء آخر مغاير تماماً، يتمثل في ارساء وتنمية علاقة متينة بينها وبين اجهزة المخابرات البريطانية، في محاولة منها للعب الدور الذي لعبته الهجناه مع البريطانيين خلال سني الثورة الفلسطينية.

٤ – **تشديد المراقبة على الهجرة «غير الشرعية»**: مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، اخذت السلطات البريطانية تشدد من رقابتها على الهجرة اليهودية «غير الشرعية»، ليس تمشياً مع سياسة الكتاب الابيض فحسب، وانما ايضا، كاجراء احترازي ضد امكانية اندساس عملاء لالمانيا النازية بين صفوف المهاجرين اليهود القادمين الى فلسطين بصورة «غير شرعية»[٢٨]. بيد ان ذلك لم يحل دون استمرار التيارين الصهيونيين في ممارسة نشاط جلب اليهود الى فلسطين بصورة «غير شرعية»، والتنافس، فيما بينهما، حول هذا الموضوع. وفي مواجهتها لهذا النشاط، انتهجت سلطات الانتداب اسلوبين، يتمثل الاول منهما بالسماح للمهاجرين «غير الشرعيين» بالبقاء في فلسطين على ان يجري احتساب العدد من الحصة المسموح بها وفق الكتاب الابيض؛ ويقضي الثاني بابعاد المهاجرين ونفيهم الى عدد من المستعمرات البريطانية. ومن الواضح، بالنسبة للمشروع الصهيوني، ان الاسلوب الاول لا ينطوي على الخطورة نفسها التي ينطوي عليها الاسلوب الثاني. ومع تعاظم موجة الهجرة «غير الشرعية» بشكل كبير، خلال ١٩٤٠، لجأت سلطات الانتداب البريطاني الى الاسلوب الثاني، واوقفت، في شهر تشرين الثاني ١٩٤٠، ثلاث سفن تحمل على متنها ٣٦٤٢ مهاجرا، ونقلت حوالى نصفهم الى سفينة ركاب تحمل اسم «باتريا» تمهيداً لابعادهم الى احدى الجزر البريطانية الى الشرق من جنوب افريقيا؛ الامر الذي اثار استياء كبيراً لدى الهجناه والوكالة اليهودية، وذهبت محاولاتها لابقاء المهاجرين ادراج الرياح، فقررت قيادتها منع السفينة من الابحار

ولو كلف الامر اغراقها. وبالفعل اعدت قيادة الهجناه، على الفور، خطة تستهدف تعطيل السفينة ومنعها من الابحار، وكلف مئير مريدور احد كبار ضباط الهجناه بتنفيذ المهمة، فقام بغرس مواد متفجرة موقوتة في السفينة بمساعدة نفر بسيط من داخلها. وحدث الانفجار في الوقت المحدد له، ونجم عنه بعد مدة بسيطة، غرق السفينة بـ ٢٦٧ مهاجراً[٢٩]، وامكن نقل بقية المهاجرين الى الشاطىء. ومن الجدير بالذكر، ان المصادر الصهيونية تجمع على ان مخططي العملية لم يستهدفوا اغراق السفينة وانما تعطيلها فقط. غير ان الامر المحير، اذا كان المخططون حريصين بالفعل على عدم تعرض المهاجرين للاذى، هو عدم قيامهم بتحذير الركاب قبيل الانفجار، مع ان هذا الامر سهل لوجود اناس بداخلها تعاونوا مع الهجناه بوضع اللغم، ولو جرى ذلك، ولو على سبيل الاحتياط، لما حدثت «المأساة». فقد تصور الركاب ان الانفجار ناجم عن غارة جوية على الميناء، واخذوا، نتيجة هذا التصور الخاطىء، يهرعون نحو الغرف الداخلية للسفينة، ليفاجأوا بالماء يتدفق عليهم من الثقوب التي احدثها الانفجار ويزهق ارواح الكثيرين منهم[٣٠].

ووسط الحديث عن «كارثة» باتريا اضطرت سلطات الانتداب الى ابقاء الناجين من المهاجرين في فلسطين، الا انها ابعدت القسم الآخر من المهاجرين الموجودين في حيفا الى احدى المستعمرات البريطانية بواسطة سفينة تحمل اسم «اطلنطيك» ليعودوا بعد سنوات الى فلسطين. ويبدو ان هذا الواقع كان اقسى على نفس جولب، قائد الهجناه غير المتوّج، من «كارثة» باتريا، ذلك ان «يوم اطلنطيك» كما كتب في مذكراته «كان بالنسبة لي يوماً اسود اكثر بكثير من يوم باتريا. لقد كانت حقاً نقطة مضيئة واحدة، تتمثل في تصرف المهاجرين [همعفيلم] ولكنه يوم اسود، لان اليشوف لم يشارك المهاجرين في نضالهم»[٣١].

ومن الجدير بالذكر ان «كارثة» باتريا شكلت، الى جانب كونها مؤشراً على توتر العلاقة بين الهجناه والسلطات البريطانية، سلاحاً بأيدي المنظمات المنافسة للهجناه، وخصوصاً عندما كانت تقوم هذه بشن حملة على المنافسين لها، ضد ما كانت تسميه بالارهاب الداخلي الموجه ضد اليهود، فكان هؤلاء يلقون بوجهها كنية «قتلة اليهود»؛ هذا على الرغم من ان اتسل كانت تخطط هي الاخرى لنسف سفينة باتريا، بيد ان الهجناه سبقتها الى التنفيذ[٣٢].

وسط حالة توتر العلاقات بين الهجناه والسلطات البريطانية، التي تلاشت وخفت حدتها مع تسلم تشيرشل مقاليد الحكم في بريطانيا، عانت الهجناه ايضاً من احتدام الخلافات بين التيارات المكوّنة لها، مما ادى الى استقالة «يوحنان رطنر»، رئيس القيادة القطرية للمنظمة من منصبه، وتعيين «يعقوب رايزر» في تشرين الثاني ١٩٣٩ خلفاً له دون ان يتحلى هذا الاخير بمزايا عسكرية، وانما لكونه اكثر استعدادا لتنفيذ تعليمات قادة الوكالة اليهودية[٣٣]، بحكم كونه احد كبار موظفي الوكالة؛ الامر الذي اجّج لهيب الصراع بين الجناحين الرئيسيين المسيرين للمنظمة، واوصله الى حد خطير، شبيه، الى حد ما، بوضع «المنظمة ب» عشية انقسامها، مما كاد يؤدي الى انقسام الهجناه على نفسها. وقد تمحور الصراع، حول موضوع اعادة بناء الهجناه وفق ما طرحه رئيس القيادة

القطرية الجديد، بين الهستدروت كممثلة للجناح العمالي، وبين الكتلة «المدنية» التي تضم الاحزاب اليمينية والدينية وتهيمن على «فدية اليشوف» وعلى رئاسة «اللجنة القومية». والحقيقة ان الخلاف حول هذه المسألة كان مجرد شكل من اشكال الصراع الخفي الذي كان قائماً بين التيارين لبسط مزيد من النفوذ على المنظمة التي خرجت من دائرة خطر الانقسام، بعد مداولات ونقاشات بلغت ذروتها باستقالة «روكيح» رئيس «فدية اليشوف» من منصبه[٣٤]، ثم ما لبثت ان خفت حدتها بعد ان توصل الطرفان الى اتفاق مسكن لخلافاتهما. وبذلك تمكنت الهجناه من الافلات من خطر الانقسام، في الوقت الذي كانت فيه اتسل تسير بقوة نحو الانشقاق.

**انشقاق اتسل**

في حزيران ١٩٤٠، اي بعد مضي قرابة عشرة اشهر على اندلاع الحرب العالمية الثانية، حدث انشقاق خطير في اتسل، تمخض عن ولادة منظمة جديدة، حملت في بداية تكوينها اسم «اتسل في اسرائيل» ثم ما لبث الاسم ان تغير الى «ليحي» (اختصار الكلمات العبرية الثلاث «لوحمي حيروت يسرائيل» اي المقاتلون من اجل حرية اسرائيل).

هنالك عوامل رئيسية وثانوية متداخلة تقف وراء الانشقاق، ومن ابرزها عاملان رئيسيان يتمثلان في العلاقة مع كل من بريطانيا والحركة التصحيحية.

١ - **العلاقة مع بريطانيا**: كان لوقف رزيئيل نشاط اتسل ضد الادارة البريطانية في فلسطين عند اندلاع الحرب، ووقوفه الى جانب بريطانيا، اثرهما العميق على قيادة المنظمة، فقد عارضت مجموعة القيادة، بزعامة «ابراهام شتيرن»، هذا التوجه بقوة لسببين: الاول يعود الى عدم حصول رزيئيل على اية مكاسب سياسية مقابل «تنازلاته»؛ والثاني، وهو الاهم، يتعلق بفهمه المغاير لطبيعة العدو وتحديده له؛ ففي الوقت الذي اعتبر فيه رزيئيل ان العدو الاساسي، في تلك الفترة يتمثل في المانيا، مما يستدعي الوقوف الى جانب بريطانيا، رأت مجموعة القيادة غير ذلك؛ اذ اجمعت على ضرورة عدم الوقوف الى جانب بريطانيا وشجب سياسة الهفلجاه تجاهها. بينما اعتبرها فريق من مجموعة القيادة، بزعامة شتيرن، بمثابة العدو الرئيسي محدّثا، بذلك، انقلاباً في تحديد العدو، حيث لم يعد العرب، مع مرور الوقت، العدو رقم واحد للحركة الصهيونية وفق ما ترعرعت عليه اتسل، بل «السلطة البريطانية كسلطة غريبة في البلاد»[٣٥] واصبح العرب، وفق التقويم الجديد، مجرد «مشاغبين». ومن هنا، لم يجد شتيرن وفريقه، بعد ان اعتبروا الحرب بمثابة فرصة للنضال ضد البريطانيين، ما يعيب النضال من خلال التحالف مع دول المحور، ضدما اعتبروه العدو الرئيسي. ورأى انصار هذا الفريق، في موقف رزيئيل المفوت لهذه الفرصة، «خيانة»، كما عبر عن ذلك الدكتور يسرائيل الداد، من انصار شتيرن، بطرحه الخلاف بين الفريقين على الوجه التالي: «هدنة مع السلطة البريطانية بدون شروط، او محاربة السلطة البريطانية في كل ظرف»، ليصل الى ان يعتبر «الهدنة» مع البريطانيين، او انتهاج سياسة الهفلجاه تجاههم، كما فعل رزيئيل، بمثابة «خيانة»[٣٦].

ويبدو ان عملية تحديد العدو، والتحالف مع اعداء بريطانيا كانتا، في ذلك الحين، تمران في طور التبلور؛ إذ لم يشدد اصحاب هذا الفريق على مسألة التحديد بقدر ما شددوا على مسألة «المقابل» الذي حققه «رزيئيل» بوقفه النشاط ضد السلطة البريطانية، ويستشم ذلك من قول احد عناصر القيادة: «على ما اذكر، لم يكن هنالك اختلاف في الرأي بيننا حول البحث في وقف العمليات... وانما تمحور انتقادنا حول اعلان ذلك دون الدخول في مفاوضات حول شروط هذا التوقف»(٣٧). اضافة الى ذلك ان قضية «التعاون» بين الاستخبارات البريطانية وبين «قسم خدمات المعلومات» التابع لاتسل، التي تعتبر من الاسباب المساعدة على تأجيج الخلافات بين الفريقين، لم تواجه، في بداية الامر، بحزم من جانب فريق شتيرن، سواء عاد ذلك لعدم معرفة هذا الفريق بمدى ما قطعه «التعاون» من شوط بعيد، او لرغبة كامنة في نفوس العديد من اعضائه في التخلص من السجن، وبخاصة ان فريق رزيئيل كان يدعي ان علاقاته مع المخابرات البريطانية تستهدف اطلاق سراح قيادة المنظمة من المعتقلات. وهكذا، فقد اكتفى فريق شتيرن بالمطالبة بوقف الاتصالات مع اجهزة المخابرات البريطانية بحجة ان «هذا الامر ينطوي على خطورة، ومن شأنه ان يورطنا»(٣٨). ويبدو ان هذا الفريق لم يكن محيطاً بحجم «تورط» المنظمة في هذا المجال، ففي تلك الفترة استمرت اتسل والهجناه في جمع معلومات عن بعضهما البعض، بما في ذلك سرقة الوثائق وتحديد امكنة مستودعات الاسلحة، ومن بين الوثائق التي وصلت الى الاستخبارات البريطانية، عن طريق «قسم خدمات المعلومات» التابع لاتسل برئاسة يسرائيل بريتسكر، وثائق سرية تخص الهجناه وبعض الاحزاب العمالية والوكالة اليهودية بعد ان تمكنت مخابرات المنظمة من الحصول عليها من منزل احد قادة الهجناه في حيفا(٣٩). وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت بعض اخبار «التعاون» تتسرب الى اسماع مجموعة القيادة، عن طريق انصارها في الخارج، ومن بينها اخبار تعاون اتسل مع البريطانيين مقابل الافراج عن مجموعة ال ٣٨؛ الامر الذي وسع الهوة بين مجموعة القيادة السجينة وبين القائد الطليق، ورسخ الاعتقاد، لدى مجموعة القيادة واوساط اخرى، ان قائد اتسل دافيد رزيئيل «كان مستعداً، مقابل اطلاق سراحه، للتعاون بشكل كامل ما ال «سي.اي.دي»»(٤٠).

٢ - **العلاقة مع الحركة التصحيحية**: لم تكن قيادة منظمة اتسل موحدة الرأي تجاه العلاقة مع الحركة التصحيحية، فعلى الرغم من ان القيادة كانت تجمع على ضرورة الحصول على مزيد من الاستقلالية عن الحركة التصحيحية، الا انها كانت تختلف حول النقطة التي يتوجب الوصول اليها، او عدم تجاوزها، في الصراع من اجل «الاستقلالية». وقد انقسمت الى فريقين، الاول تزعمه «رزيئيل» الذي دعا للحصول على اكبر قدر من الاستقلالية ضمن اطار الحركة التصحيحية، والتف حوله اعضاء وانصار الحركة التصحيحية، بينما دعا الفريق الثاني؛ بزعامة شتيرن الذي لم يسبق له ان كان عضواً في الحركة التصحيحية؛ او بيطار، للخروج من دائرة الارتباط بالحركة، بدعوى ان «المنظمة هي جيش، والجيش لا يمكن ان يكون تابعاً لحزب ما»(٤١). ومن هنا عمل انصار هذا الفريق على تجاوز تعليمات جبوتنسكي اكثر من مرة، وعلى تحدي زعامته، كما فعل شتيرن في بولونيا اثناء زيارته لها،

باجرائه اتصالات سياسية مع المسؤولين هناك دون استشارة جبوتنسكي، علاوة على محاولته غزو حركة بيطار في بولونيا عن طريق اقامة خلايا سرّية في داخلها تابعة لاتسل. ورأى اصحاب هذا الفريق في «اتفاق باريس» بين جبوتنسكي و «رزيئيل»، على الرغم من اخضاعه حركة بيطار في فلسطين لاتسل بتعيين قائدها في الوقت نفسه قائداً لحركة بيطار، وضع حد للتوجه الاستقلالي لاتسل؛ الامر الذي احدث شقاً في العلاقة بين «رزيئيل» وشتيرن الذي اعتقد ان «رزيئيل استسلم ووقع على اتفاق انهى بالفعل حلم الاستقلال وكل ما يتعلق بذلك»(٤٢). ومما زاد من خطورة مساعي فريق «شتيرن» الرامية الى استقلال المنظمة، مصاحبتها لعملية تبلور مواقف مغايرة للموقف العام للحركة التصحيحية حول جملة من القضايا السياسية والفكرية.

ومن بين العوامل المساعدة على تفاقم الصراع بين الفريقين، ابتعاد «رزيئيل»، عقب الافراج عنه، عن مجموعة «الحد الاقصى» التي يتزعمها «اوري تسفي جرينبيرج»، والتي كانت مقربة من اتسل اثناء فترة اعتقال «رزيئيل»(٤٣)، وتقربه، اكثر فأكثر من زعامة الحزب التصحيحي.

وهناك من يضيف الى العوامل المساعدة عامل الصراع الشخصي بين «رزيئيل» وشتيرن، حول قيادة المنظمة؛ ومع ان هذا العامل قائم، بيد ان هناك من يبالغ في حجمه، وخصوصاً بين اوساط الحركة التصحيحية، وكذلك «رزيئيل» بالذات الذي ادعى اكثر من مرة بأن اسباب الصراع تعود الى العامل الشخصي اكثر من اي شيء آخر، في الوقت الذي يبالغ فيه الفريق الاخر في نفي العوامل الشخصية. واذا استثنينا الرغبة الشخصية في زعامة المنظمة، فاننا نرى ان الصراع كان يدور بين شخصين متجانسين في السن ومن مواليد بولونيا، احدهما رزيئيل من منبت ديني، اثبت جدارة في معالجته للقضايا العملية دون السياسية، والآخر شتيرن، لم يبرز في المجال العملي وانما برز في المجال النظري، وكان الى جانب كونه كاتباً ومحللاً سياسياً، يتعاطى كتابة الشعر، وقد اختارت المنظمة قصيدته «جنود مجهولون» كنشيد قومي لها.

نتيجة لتضافر العوامل الآنفة الذكر اصبحت المنظمة تقف على عتبة الانشقاق وقد ساعد تطور مجريات الاحداث في دفعها عبر هذه العتبة.

عند اندلاع الحرب العالمية الثانية كانت قيادة اتسل واعداد كبيرة من اعضائها وانصار الحركة التصحيحية داخل المعتقلات. وقد تأتى اطلاق سراح هؤلاء على دفعات، وخلال فترة استغرقت تسعة شهور، بفضل الخط السياسي الجديد الذي انتهجته الحركة التصحيحية بزعامة جبوتنسكي، وكذلك منشور اتسل، بخصوص الموقف من الحرب، الذي صدر بمبادرة من «رزيئيل»، وايضاً بسبب رسالة هذا الاخير الى السلطات البريطانية والتي عرض فيها توظيف خدمات عناصر منظمته في اطار الجيش البريطاني، من منطلق صداقة اتسل للامبراطورية البريطانية، مؤكداً، في عرضه، على ان «التعاون» مع اتسل اجدى بكثير لبريطانيا من التعاون مع الهجناه؛ ذلك ان الشباب التصحيحي «تربّى على

الروح العسكرية والاستعداد لاية تضحية، خلافاً للتربية الاشتراكية الشيوعية السلامية التي ترعرع في احضانها شباب الاحزاب الاخرى الذين يفتقرون الى الاستعداد للحرب، ولم يعدوا نفسياً لحمل السلاح»[٤٤]؛الامرالذي مكنه من الخروج من السجن في الدفعة الاولى، مع موافقته على التواجد اسبوعياً في مقر الاستخبارات والاجتماع بالمسؤولين عنها. وتأتى الافراج ايضاً بفضل تدخل «بنحاس روتنبيرج»، «رئيس اللجنة القومية»، لدى البريطانيين وازالته الشكوك التي كانت تجيش في صدورهم بخصوص تعاون اتسل مع المانيا النازية، خاصة وان اشاعات كانت قد راجت، في ذلك الحين، بأن اتسل تتخذ مقراً لاذاعتها السرية من بلدة ويلهلما الالمانية التي اعتبر سكانها الالمان بمثابة طابور خامس[٤٥].

مع الافراج عن «رزيئيل»، اخذت الخلافات تدب بينه وبين مجموعة القيادة التي وجهت اليه، عن طريق الرسائل، تهماً كثيرة، من بينها التحالف مع البريطانيين دون مقابل سياسي، وشككت بنواياه بالتفرد في قيادة المنظمة. ولم يتمكن رزيئيل، عند اجتماعه بمجموعة القيادة المعتقلة، من رد التهم، ووجد نفسه شبه معزول؛ إذ لم يقف الى جانبه عناصر ذوو وزن في المنظمة باستثناء يسرائيل بريتسكر المسؤول عن «خدمات قسم المعلومات» وقادة الحزب التصحيحي؛ مما حدا به الى تقديم استقالته[٤٦]. غير انه ما لبث ان تراجع عنها بفعل ضغوطات قيادة الحزب التصحيحي التي تخوفت كثيراً على مصير المنظمة في حال غياب قائد مثل «رزيئيل» عنها، يتجاوب في منطلقاته واهوائه مع مبادىء الحركة التصحيحية.

لم ينعم قائد المنظمة، عقب عودته عن استقالته، بالاستقرار والهدوء، فقد استمرت مجموعة القيادة بالتهجم عليه، مما دفعه، في ربيع عام ١٩٤٠، بعد ان عيل صبره، الى تقديم استقالته مرة ثانية[٤٧]، وتسليم مقاليد الامور لصغار الضباط وللدكتور اولتمان زعيم الحزب التصحيحي، وعاد واجلّ سريان مفعول استقالته حتى خروج مجموعة القيادة من السجن.

وفي ١٦ حزيران ١٩٤٠، تم الافراج عن مجموعة القيادة من سجن المزرعة، وغداة اليوم التالي انعقدت، في تل ـ ابيب،جلسة عاصفة صاخبة لقادة المنظمة، لم يتمكن فيها «رزيئيل» من تبرير نشاطه، واعترف بفشله كقائد[٤٨]، واستقال من منصبه. ولم تفوت مجموعة القيادة الفرصة، فانتخبت ابراهام شتيرن رئيساً للقيادة، وعينت «حانوخ قلعي» قائداً لمنطقة القدس. و«اهارون حايخمان» قائداً لمنطقة تل ـ ابيب، «وحاييم لوفينسكي» عضو قيادة[٤٩].

وبعد مضي حوالى اسبوع، اشفعت اجراءاتها التنظيمية ببيان سياسي يحمل الرّقم «١١٢» عممته على اعضاء المنظمة. ويعتبر هذا البيان الخطير بمثابة انقلاب على زعامة جبوتنسكي والحركة التصحيحية، فضلا عن كونه يشكل توجهاً جديداً حاداً في مسار المنظمة، وقد جاء فيه[٥٠]:

«١ – تعيش اتسل وتقاتل بالسلاح لانشاء ملكوت اسرائيل في حدودها التاريخية... وعلى عناصرها التهرب بكل الوسائل من اي تجنيد اجنبي.

«٢ – تقيم اتسل تحالفات مع الاسرائيليين والاغيار، ولكنها لا ترهن حريتها. ولا يمكن لها في اي حال من الاحوال ان تصبح اداة بيد حليفها مقابل المساعدة التي يقدمها الاجانب، كما وانها لا تتحالف مع انهزاميي الهجناه. ان دفاعنا هو الهجوم وحربنا في مناطق العدو.

«٣ – تخضع اتسل لقادتها الذين يوجهونها للقتال».

ومما يسترعي الانتباه ان كثيراً من المصادر الصهيونية ولا سيما مصادر اتسل، ترى في «البيان ١١٢» مؤشراً واضحاً على ان انشقاق اتسل اصبح حقيقة قائمة. والحقيقة ان البيان الصادر عن القيادة الجديدة لم يحدث انشقاقاً في المنظمة بقدر ما احدث انشقاقاً بينها وبين الحركة التصحيحية اولاً؛ ذلك انه، قبل كل شيء، بمثابة انقلاب جذري على الخط السياسي للحركة التصحيحية وزعيمها جبوتنسكي وتمرد على زعامته. وجاء الانشقاق في اتسل كنتيجة طبيعية للتناقض الحاد الذي كان قائماً بين القيادة الجديدة لاتسل والحركة التصحيحية. ففي اعقاب استقالة «رزيئيل»، تحركت قيادة الحزب التصحيحي وسارعت لاعادته الى منصبه، وفي الوقت نفسه، بعثت برسائل الى جبوتنسكي الموجود، في ذلك الحين، في الولايات المتحدة طالبة منه وضع ثقله ضد القيادة الجديدة خشية ان تقدم هذه، بشكل علني على اعلان الاستقلال التام عن الحركة التصحيحية. وعاد رزيئيل وتراجع عن استقالته،[٥١] ومن الطبيعي ان يجد هذه المرة الطريق الى القيادة مغلقاً امامه، فشق طريقاً آخر نحو انصاره من رؤساء الفروع في محاولة منه لاستعادة منصبه عن طريقهم. وهنا اصبح الانشقاق حقيقة قائمة بالفعل؛ حيث شرع البعض يلتف حول فريق «رزيئيل»، بينما راح البعض الآخر يتمحور حول فريق «شتيرن».

وفي غضون ذلك، جرت محاولات كثيرة لرأب الصدع بين الفريقين المتخاصمين قام بها عدد من قادة الحركة التصحيحية وكبار الضباط في المنظمة، من بينها محاولة قام بها موشيه حسون سكرتير القيادة، المقرب من الطرفين، وقد اقترح خلالها على القائدين ان يستقيلا حفاظاً على وحدة المنظمة[٥٢]. بيد ان محاولته والمحاولات الاخرى باءت جميعها بالفشل، خصوصاً وان كلا الطرفين تمسك بوجهة نظره تجاه موضوعة التحالف، ففي حين اصر رزيئيل على التحالف مع بريطانيا، اعتقد شتيرن ان «الالمان والايطاليين سينتصرون في الحرب، ولذا فلا جدوى من التعاون مع الانجليز، ومن الممكن الاستمرار في اعمال ضدهم».[٥٣]

وسط اجواء الانشقاق، بعث جبوتنسكي برسالتين الى كل من «رزيئيل» و«شتيرن» طلب من الاول العودة عن استقالته، وعينه من جديد في مناصبه السابقة مع منحه

صلاحيات «تعيين واقالة مساعدين وذوي مناصب في اي فرع في دائرتك» وابلغ الثاني بأنه اعاد تعيين«رزيئيل»«....وآمرك رسمياً بالانصياع لهذا الامر»(٥٤).

لم تسفر توجيهات «القائد الاعلى» لاتسل عن اعادة اللحمة الى المنظمة او الجمع بين القائدين المتنافسين، بل سرّعت وتيرة التمحور والاستقطاب حول الفريقين ودفعتهما نحو الانشقاق النهائي. فقد رفض «شتيرن» الذي كان قد نجح، حتى ذلك الحين، باستقطاب معظم القيادات واكثرية العناصر الى جانبه، امر جبوتنسكي، بينما تسلح «رزيئيل» بالامر واستغله مع فريقه حيث نشط الى جانب اوساط حركة بيطار والحركة التصحيحية في تعميم نسخ الرسالتين بين صفوف اتسل في محاولة لكسب مزيد من الانصار، رافعاً سلاح «الشرعية»؛ الامر الذي مكنه من احراز مكاسب بسيطة بين صفوف المنظمة جعلته يقف على قدمين ثابتتين في نضاله ضد انصار «شتيرن» الذين قاموا، ازاء وضع «الشرعية» ثقلها الى جانب الفريق الآخر، بحملة اعلامية ركزوا خلالها على ما يعتقدونه من جوانب سلبية في مواقف الحركة التصحيحية، وعلى تعاون «رزيئيل» مع السلطة البريطانية، معتبرين ان الانشقاق، رغم كل شيء، يؤدي الى «التعزيز والتأصيل الفكري»(٥٥).

عقب مضي اسبوعين على رسالتي «القائد الاعلى»، واثناء بلوغ الصراع ذروته، اصيب جبوتنسكي بنوبة قلبية، في الثالث من اب ١٩٤٠، اثناء قيامه بجولة داخل معسكر لشبيبة بيطار بالقرب من نيويورك، اودت بحياته. ونزل الخبر على انصاره نزول الصاعقة، واثار الانفعال لدى الكثيرين، حتى بين صفوف خصومه(٥٦). وكان اثر موته المفاجيء على صراع الفريقين شبيهاً الى حد كبير بأثر رسالتيه، فقد تأجج الصراع، واصبح من غير الممكن اعادة اللحمة بين الطرفين، بسبب البلورة الحادة التي حدثت داخل صفوف فريق «رزيئيل» والناجمة عن سخط وحزن الكثيرين من اعضاء اتسل الموالين للحركة التصحيحية على موت جبوتنسكي. وقد استغل هؤلاء الموت، استغلالهم للرسالتين، مشيعين ان موقف مجموعة القيادة هو الذي تسبب في اصابة «القائد الاعلى» بنوبة قلبية(٥٧)، في الوقت الذي كشفت فيه مجموعة القيادة في حملتها المضادة، النقاب عن بعض الاسرار الخاصة بالتنظيم مثل قيام فريق «رزيئيل» بتسليم وثائق تخص مؤسسات يهودية الى المخابرات البريطانية(٥٨).

خلال الفترة التي جرى الانشقاق فيها، والتي استغرقت بضعة اشهر، انقسمت جميع الفروع على نفسها، باستثناء فرع بيتح تكفا(٥٩)، بقيادة يعقوب مريدور، الذي وقف الى جانب طرف واحد فقط هو الحركة التصحيحية.

ومن الملاحظ ان فريق شتيرن استقطب، في بداية الامر، اكثرية ضباط الفروع، وتنافس مع فريق «رزيئيل» حول استقطاب الاعضاء. ومن الملفت للنظر ان كفتي الميزان لم تهدآ خلال هذه الفترة، فقد كان الميزان يهتز يومياً تقريباً نتيجة عملية الانضمام لهذا الفريق او ذاك، او الانسحاب منهما. بيد ان الاخطر من ذلك واقع الصراع المرير بين

الفريقين حول اقتسام الاسلحة؛ ذلك ان الانشقاق الجديد غير المتفق عليه يختلف عن انشقاق «المنظمة ب» الذي كان قد اتفق عليه سلفاً؛ مما ساعد في تأجج حدة الصراع حول الاسلحة، وفي عدم تمكنهما من التوصل الى اتفاق حولها؛ فضلا عن الرغبة القوية، لدى فريق «شتيرن» في الحصول عليها جميعها، اعتقاداً منه بأنه صاحب المنظمة الوحيدة، التي تقاتل البريطانيين، وبالتالي فانه احق من الفريق الاخر بالاحتفاظ بها، وكذلك الرغبة القوية لدى فريق «رزيئيل» في منع حصول الفريق الاخر عليها، لانها، الى جانب تعزيز خصمه في حال امتلاكه لها، تؤدي الى اضعافه في حال افتقاده لها. ولهذا السبب كان الصراع بينهما «يدور حول كل مسدس»[٦٠]، وقد حدثت خلاله اشتباكات واصطدامات شديدة بين الطرفين، وصلت الى حد الاختطاف، فقد قامت اتسل (رزيئيل) بخطف احد مسؤولي الفريق الآخر لقيامه بنقل مستودع الاسلحة من القدس الى القسطل، واحتفظت به لمدة طويلة «مكبل اليدين والقدمين»[٦١]، والقت به في قناة في منطقة عربية، وتأتى عن ذلك ردود فعل من الطرف الآخر.

رافقت عملية الصراع على مستودعات الاسلحة التي احرز فيها فريق شتيرن قصب السبق، حملة من القدح والذم والتشهير تبادل فيها الفريقان كيل التهم والنعوت، فقد اطلق فريق «رزيئيل» عـلى الفريق الاخر كنية «المنشقين» وهي نفس التهمة التي كانت تلصقها الهجناه باتسل وليحي يعد قيامهما. اما فريق «شتيرن» فقد اطلق على الفريق الآخر، كنية «باحنيكيم»[٦٢] نسبة الى الاسم الثـاني لـ«رزيئيل»، عـلاوة على اتهـامه بـ«الخيانة» و«الاستسلام»، وهما التهمتان اللتان تلقيهما اتسل عادة في وجه الهجناه. ومن الملفت للنظر ان اسلوب التشهير وتوجيه التهم جزافاً استحوذ، في هذه الفترة، على الفريقين لدرجة غدت معها الاختلافات الايديولوجية والسياسية ضئيلة. ولم يتورع اي فريق من استخدام اية وسيلة ضغط، بغض النظر عن الجانب الخلقي، ضد الفريق الاخر، وكمثال على ذلك، لجوء فريق «رزيئيل» الى سلب حق العمل، بواسطة «هستدروت العمال القومية» التابعة للحزب التصحيحي، من اولئك الذين يناصرون فريق «شتيرن» وطردهم[٦٣]. ومن الجدير بالذكر، ان من بين اسباب اقامة «هستدروت العمال القومية» واقع الضغوطات التي كانت تفرضها «الهستدروت العامة للعمال العبريين» التابعة للحركة العمالية، بتوجيه من الهجناه ضد انصار اتسل بغرض تضييق الخناق عليهم.

نتيجة لاستمرار النزاع بين الطرفين وجدت منظمة اتسل نفسها، بشقيها، عند نهاية ١٩٤٠، قـد فقدت اكثرية عناصرها؛ اذ خرج منها حوالى ١٥٠٠ عنصر من مجموع ٢٥٠٠، وقد تطوع معظم المنسحبين في الجيش البريطاني وانضم عدد آخر منهم الى الهجناه، وفضل البعض الخروج نهائياً من التنظيمات العسكرية، وتقاسمت كل من اتسل وليحي العدد الباقي، واحرزت الاولى قصب السبق في هذا المجال بفضل قوة «الشرعية» وكذلك بسبب المطاردات التي عانت منها ليحي على يد البريطانيين بدعم من استخبارات اتسل، حيث امتلكت حوالى ٨٠٠ عنصر، بينما كان لدى فريق شيترن حـوالى ٢٠٠ عنصر[٦٤].

ويبدو للوهلة الاولى ان الانشقاق في اتسل جاء لمصلحة الهجناه المنافسة لها باعتبار انه ينطوي على اضعافها وادخالها في طور التفسخ الذي من شأنه ان ينهيها او يدفعها للوحدة مع الهجناه لتبقى، في ساحة اليشوف اليهودي، منظمة عسكرية واحدة. ويمكن القول ان الهجناه استفادت على المدى القصير، من واقع الانشقاق؛ بيد ان مردوده عليها، على المدى البعيد، لم ينطو على شيء لصالحها؛ اذ اصبح عليها مواجهة منظمتين تتنافسان فيما بينهما على التطرف لاثبات ذاتهما في اليشوف اليهودي، الامر الذي جعل الهجناه تقف في وجه منظمتين بدلاً من الوقوف في وجه منظمة واحدة.

## حادثة هرتسليا

في غمرة الصراع بين جناحي اتسل، وقع، في هرتسليا، اشتباك بين عناصر من اتسل (رزيئيل) وبين منظمة الهجناه، يوضح طبيعة العلاقة التي كانت قائمة، بين المنظمتين، في تلك الفترة. تعود اصول الحادث الى وقت مبكر، وبالتحديد الى الوقت الذي اصدرت فيه قيادة اتسل، في اوائل عام ١٩٣٩، تعليمات[٦٥] لاعضائها للعمل على اكتشاف امكنة مستودعات الاسلحة التابعة للهجناه، بغرض الاستيلاء عليها عندما يتطلب الامر ذلك، سواء كرد فعل على احتمال قيام الهجناه بالاستيلاء على مستودعات لاتسل او كمبادرة من جانبها. وفي صيف العام نفسه، ابان ذروة نشاط اتسل ضد سياسة الكتاب الابيض، استولى فرعها في هرتسليا على مستودعين للهجناه ونقلهما الى مستودعات تابعة له خارج البلدة. ولم يصل الامر لعلم الهجناه، وفق ما تؤكد مصادر اتسل[٦٦]، الا بعد مضي اشهر عديدة؛ حيث اخذت ظنونها تحوم حول المنظمة المنافسة، وبدأت بسلسلة من اعمال التفتيش في مستودعات اتسل الموجودة في المنطقة. ومن الجدير بالذكر، ان مؤرخي الهجناه يسردون رواية تختلف، من حيث وقت حدوث السرقة، دون تفنيد ما ورد في مصادر اتسل او حتى الاشارة عليها؛ مع العلم ان رواية اتسل صدرت عام ١٩٦٧، اي قبل صدور رواية الهجناه، في عام ١٩٧٢. فقد اكد مؤرخو الهجناه على ان السرقة حدثت في ربيع ١٩٤٠[٦٧]، في اعقاب اكتشاف البريطانيين مستودعات للاسلحة في مستوطنة بن شمين، الامر الذي استدعى تغيير اماكن مستودعاتها بأماكن اخرى، واضافوا ان عيون اتسل كانت تلاحق عملية نقل المستودعات تمهيداً للاستيلاء عليها، وقامت بعد ذلك بالاستيلاء على ثلاثة منها تحتوي على ٣٠ بندقية ومدفعين رشاشين وقنابل وذخائر، هذا وقد ذكر باحث اسرائيلي آخر[٦٨]، مستنداً إلى رواية اتسل، داعماً لها من حيث وقت حدوث السطو، ان مستودعاً واحداً تعرض للسطو.

عقب اكتشاف الهجناه مخازنها خاوية، وجهت اصبع الاتهام ضد من نعتتهم بـ«المجرمين» وكانت تعني عناصر اتسل. وقد شنت صحيفة «بمحنيه» الناطقة باسم الهجناه هجوماً عنيفاً على رجال اتسل قائلة: «هذه المرة افسد المجرمون الطعام، وتعدوا الحدود، وتعرضوا لبؤبؤة عين اليشوف – المنظمة وممتلكاتها»[٦٩]. وطالبت قيادة الهجناه قيادة اتسل «رزيئيل» باعادة الاسلحة المسروقة، بيد ان هذه انكرت علمها بها، وقبلت، تحت وطأة التهديد، وكذلك لعلمها ان الاسلحة اصبحت بيد فريق شتيرن، بتفتيش

معسكر هرتسليا. وعندما اتضح للهجناه ان اسلحتها غير موجودة في المعسكر، وجهت مسار بحثها نحو مستوطنة «كفارسابا»، وهناك القت عناصرها القبض على اشخاص ينتمون الى اتسل وبيطار «وبعد الضرب والتعذيب اخرجوا من افواههم تفاصيل حول مستودعات المنظمة»[٧٠] واعترفوا بسرقة المستودعات . فتوجهت قيادة الهجناه الى اتسل، مسلحة هذه المرة بالتهديد والوعيد الى جانب الاعتراف؛ الامر الذي دفع «رزيئيل» الى التعهد باعادة الاسلحة، خلال اسبوعين، شريطة ان توقف الهجناه نشاطها ضد رجاله، بيد ان هذه استمرت في نشاطها وعثرت على مستودعات للاسلحة تخص اتسل وايضاً على «قوائم باسماء رجال اليسار في منطقة السهل الساحلي. وخطة لاعمال ارهابية وتخريبية ضد الهجناه، وتعليمات تتعلق بالمتابعة والتجسس داخل اليشوف»[٧١]. وفي الوقت نفسه كانت اتسل تعزز من تواجدها العسكري في هرتلسيا باستقدام العشرات من عناصرها اليها، تحسباً واستعداداً لمعركة قد تنشب، على اثر قيام الهجناه بالتعاون مع اهالي المستوطنة بقطع المياه عن المعسكر وتضييق الخناق على من فيه. وبعد انتهاء فترة المهلة دون استعادة الاسلحة، قامت اعداد كبيرة من الهجناه ومن سكان المستوطنة، في ١٨ آب بـ«زيارة المعسكر». ويصف شاهد عيان، من الهجناه، الهجوم بقوله: «مع الفجر اعلنت حالة الاستنفار في المستوطنة، وتوجّه حوالى مئتي رجل يتسلحون بالهراوات والمدي نحو معسكر سرية بيطار... وخرج رجال السرية لمقاومة اعمال التفتيش بالقوة، ونشب عراك عنيف اسفر عن وقوع عدد كبير من الجرحى، خصوصاً بين صفوف اتسل، ومصرع احد افرادها»[٧٢]. بينما يصف شاهد عيان آخر، من اتسل، الهجوم الذي قامت به «فئات» من عناصر الهجناه بقوله: «...في الرابعة صباحاً... شاهدت، من زوايا مختلفة، مجموعات من الناس تتكاثر، فأدركت ان اليوم المصيري قد حان. وفي الساعة الخامسة فجراً، اقتربت احدى المجموعات من المدخل الرئيسي، وقام الحراس بمنع عناصرها من الدخول. وفجأة انهال سيل من الحجارة باتجاه المبنى القريب والحراس المرابطين على امتداد الاسيجة. بدأ الهجوم، وحاول مئات من الاشخاص المزودين بالعصي... اجتياح حزام الامن الاول باتجاه اول مبنى حيث السكرتارية. ودخل الحراس في اشتباك محاولين منع التوغل، وسقط اثناء الاشتباك والتصدي عدد من المدافعين يتخبطون بدمائهم من جراء ضربات عصي المهاجمين الذين كانوا يهشمون الرؤوس بلا رحمة. وتعاظم سيل المهاجمين، وتمكنت احدى مجموعاتهم من اقتحام المبنى، فمزقت الصور، واتلفت الملفات وحطمت الجدران. حدث كل ذلك وسط حالة من الغضب والوحشية. توقف التقدم نحو القسم الداخلي من الساحة، واشهرت المجموعة المدافعة عن الخط الثاني المسدسات... وسمع عدد من الطلقات النارية تخترق الهواء، دون ان يتجرأ احد على التقدم. وفي غضون ذلك، سقط قسم من مدافعي الخط الاول، ليواجهوا الركل والدوس والضرب المتواصل المميت»[٧٣].

من الطبيعي الا تعثر الهجناه، اثناء هجومها التفتيشي، الذي يعتبر الى حد كبير بمثابة تنفيس لغيظها المتراكم تجاه اتسل، على اثر للاسلحة المسروقة، لانها كانت بيد جماعة شتيرن التي عممت على افرادها امراً بعدم التدخل في الموضوع برمته[٧٤]، وانما

عثرت على شيء آخر يدل على طبيعة العلاقة بين اتسل والمخابرات البريطانية، حدده، بتهكم، يوسف افيدور احد قادة الهجناه بقوله: «في هذه العمليات المضادة عثرنا على المعلومات الاستخبارية الهامة، اي على معلومات عن رجال الهستدرت، اعتقد قادة اتسل انهم، بتسليمها للبريطانيين، يساهمون في الجهد الحربي ضد هتلر»(٧٥).

نتيجة لحادثة هرتسليا ارتفعت وتيرة العداء والخصومة بين المنظمتين، مصاحبة بأجواء توتر، اخذت تفصح عن نفسها في اعمال حرق سيارات، حيث درجت اتسل، بين الفينة والاخرى، على حرق سيارات تخص اعضاء وقيادات الهجناه(٧٦)، الامر الذي ادخل الروع بين صفوف القيادة التي اخذت تتحسب من رد فعل اعنف، فاتخذت احتياطات امنية شديدة، وعززت من الحراسة على مستودعات اسلحتها، وحذرت الشخصيات البارزة من محاولة اغتيال (٧٧) قد تقوم بها اتسل انتقاماً لما حدث في هرتسليا.

بيد ان انتقام اتسل لم يتعد، في اشده، دائرة حرق السيارات، فقد كانت في تلك الفترة تعاني وتئن من تمزقات داخلية بين صفوفها كادت ان تضع حداً نهائياً لحياتها.

**اتسل تقف على عتبة الهاوية**

عقب الانشقاق، لم تنج اتسل التصحيحية «رزيئيل» من المشاكل والنزاعات الداخلية على الرغم من انها اصبحت، بحكم عملية الفرز، اكثر تجانساً مع نفسها. فقد بقي موضوعا العلاقة مع كل من البريطانيين والحركة التصحيحية يضعان ثقلهما على المنظمة ويؤثران على مسار تطورها. فبعد مدة بسيطة من الانشقاق، وجد «رزيئيل» نفسه على خلاف شديد مع عضوين في قيادته هما «هايخمان» و «لوفينسكي»(٧٨)، وكانا قد انضما اليه عقب انسحابهما من فريق شتيرن بسبب خلافاتهما معه حول توجهه نحو دول المحور، ثم اختلفا مع «رزيئيل» بسبب توجهه نحو البريطانيين، وتفاقم خلافهما معه عندما وافق على تجنيد عدد من عناصر حركة بيطار للعمل في صفوف القوات البريطانية، بناء على رغبة وضغط من الحركة التصحيحية. ونتيجة لهذا الخلاف شُلّ نشاط القيادة وسط صراعات داخلية بين صفوفها تمخضت، اواخر ١٩٤٠، عن اعلان «رزيئيل» استقالته من مناصبه والتحاقه بالجامعة العبرية.

في الوقت الذي لم تتمكن فيه القيادة من الاتفاق على خلف له ودخلت في نقاشات عقيمة منهكة حول الجهة المخولة بتعيين قائد للمنظمة بعد موت جبوتنسكي، اجمعت على شيء آخر مستغرب هو منح اعضاء المنظمة «اجازة حتى اشعار آخر»(٧٩). وبذلك اصبحت المنظمة مشلولة منهارة وعلى عتبة الانهيار التام، ولم يبق امامها سوى الاعلان عن حل نفسها. بيد ان فترة «الاجازة» التي ربما كان القصد منها تطهير المنظمة من العناصر الموالية لجماعة «شتيرن» لم تدم طويلاً. فقد عاد رزيئيل، بعد فترة قصيرة، و«استقال» من الجامعة ليقود اتسل ثانية، مزوداً هذه المرة، اسوة بالكثيرين من الاعضاء القياديين في المنظمة بـ «هوية مخابرات» منحتها له الاستخبارات البريطانية(٨٠). وشهدت هذه الفترة ارتفاعاً في وتيرة «تعاون» اتسل، وخصوصاً جهاز استخباراتها «قسم خدمات المعلومات» برئاسة يسرائيل بريتسكر، مع الاستخبارات البريطانية، وسط شكوك الهجناه،

و«ليحي» التي واجهت موجة من الاعتقالات بين صفوفها، بأن «التعاون» موجه ضدهما. بيد ان الاخطر من ذلك كان موت «رزيئيل» نتيجة لهذا «التعاون» وتحت مظلته.

ففي اواسط شهر حزيران ١٩٤١ بلورت الاستخبارات البريطانية في الشرق الاوسط خطة تستهدف نسف مصافي البترول في كل من طرابلس وبغداد، وعرضت على الهجناه القيام بالمهمة الاولى وعلى اتسل تنفيذ المهمة الثانية دون ان يكون لقيادة احدى المنظمتين المتنافستين علم بمهمة المنظمة الاخرى. وقد حرصت القيادة البريطانية على اتمام العمليتين في آن واحد. وفي ١٨ ايار ١٩٤٠ انطلقت مجموعة الهجناه (٢٣ عنصراً) في زورق باتجاه معامل تكرير البترول في طرابلس، ولقيت المهمة فشلاً ذريعاً ليس لان المصافي لم تتعرض لسوء فقط، بل ايضاً لان جميع عناصر الزورق الذين لم يعثر لهم على اثر، اعتبروا من المفقودين، ويعتقد انهم غرقوا بالقرب من شاطىء طرابلس.

وفي الوقت نفسه كانت خطة ارسال مجموعة اتسل الى العراق، في عهد ثورة رشيد عالي الكيلاني، قد دخلت حيز التنفيذ. فقد استجابت قيادة اتسل للعرض البريطاني، واضافت عليه من عندها مهام اخرى[٨١] مثل العمل لخطف مفتي فلسطين الحاج امين الحسيني الذي كان في ذلك الحين يقيم في العراق، والنشاط بين اوساط اليهود هناك. وتشكلت المجموعة من اربعة اشخاص برئاسة قائد اتسل دافيد رزيئيل والى جانبه ايضاً يعقوب مريدور. وليس من شك في ان عاملين اساسيين كانا وراء اشتراك قائد المنظمة بنفسه في هذه العملية غير المأمونة: الاول هو عامل اليأس الذي الم به، والناجم عن الانشقاق وانحلال ما تبقى من منظمته؛ والثاني هو عامل الرغبة في تقديم شيء بواسطته هو بالذات كقائد، على امل نيل المقابل في المستقبل. اما مسألة اختطاف المفتي فلم تكن من بين الدوافع الاساسية لاشتراكه، بل جاء طرحها لتخفيف وقع «التعاون» وتلطيف المهمة. اما الشخصان الآخران، فقد اختيرا من بين صفوف ابناء الطوائف الشرقية، بعد تدريبهما على اداء الصلاة في المسجد الاقصى للظهور بمظهر العرب المسلمين[٨٢]. ووصل افراد المجموعة الى مطار الحبانية للبدء بتنفيذ المهمة. وقبل ان يقوم هؤلاء بأي عمل يذكر، لقي «رزيئيل» مصرعه من جراء قصف الطائرات الالمانية لمطار الحبانية، في الوقت الذي حاول فيه العنصران المتنكران بالزي العربي التوجه الى بغداد بغرض جمع المعلومات. «وفي الطريق اشتبه العرب بانهما عميلان بريطانيان واشبعوهما ضرباً، وعادا متعبين منهكين الى الحبانية»[٨٣]، ليعود بهما يعقوب مريدور، بعد ايام معدودة الى فلسطين، وسط خيبة امل مريرة، ليس بسبب الفشل الذريع الذي لقيته المهمة فحسب، وانما، لسبب اهم من ذلك وهو فقدان قائد المنظمة في رمال الحبانية، في العشرين من حزيران ١٩٤١. ومن الجدير بالذكر، ان قبر «رزيئيل» بقي قائماً في العراق حتى عام ١٩٥٥ حين تم نقل رفاته الى قبرص ابان حكم البريطانيين للجزيرة ليدفن مؤقتاً، ولينقل ثانية في عام ١٩٦١ الى القدس بعد ان تم الاتفاق على ذلك بين خلف جبوتنسكي وبين بن – غوريون.

وهكذا لقي دافيد رزيئيل مصرعه على يد الالمان وهو يقوم بخدمة الاستعمار

البريطاني، دون ان يعلم ان زميله «شتيرن». الذي لم «يشمت» بموته، سيلاقي بعد مدة بسيطة نفس المصير، ولكن على يد البريطانيين وهو يحاول خدمة النازية الالمانية.

عقب موت رزيئيل وتسلم يعقوب مريدور قيادة اتسل، فتح الموضوع القديم الذي لازم المنظمة منذ ولادتها، موضوع العلاقة بينها وبين الحركة التصحيحية، بشكل قوي هذه المرة، وخاض الطرفان المختلفان حوله صراعاً احرزت فيه الحركة التصحيحية، في بداية الامر، قصب السبق باخضاعها اتسل اليها؛ ومع مرور الوقت نجحت اتسل في الخروج من طوق التبعية نهائياً، واحرزت استقلالها التام عن الحركة التصحيحية.

كان موضوع الازمة المالية من بين العوامل المساعدة لهيمنة الحركة التصحيحية على المنظمة، فمع اندلاع الحرب العالمية الثانية واجهت اتسل ازمة مالية ناجمة بالاساس عن اغلاق مصادر الدخل من الجاليات في البلدان الاوروبية، وكذلك عن وقف الارباح التي تجنيها المنظمة من الهجرة «غير الشرعية»[٨٤]. كما انها لم تكن تمتلك صندوقاً لجمع الاموال داخل «اليشوف» كالهجناه التي تمتلك «فدية اليشوف». وفي محاولة منها للتغلب على ازمتها المالية انتهجت اسلوبين: يتمثل الاول بالسطو المسلح، وجباية الاموال من ابناء الشرائح الاجتماعية المتوسطة والعليا تحت وطأة التهديد بالسلاح. ومن اشهر عمليات السطو، محاولة فاشلة جرت في آب ١٩٤٠ استهدفت «بنك يافت» في ضاحية مرحافيا، ومحاولة فاشلة اخرى جرت في شباط ١٩٤١ استهدفت ثرياً يهودياً في حيفا[٨٥]. الا ان المنظمة ركزت نشاطها، بسبب اخفاقها في هذا النوع من اعمال السطو المسلح وما تبعه من اعتقال عدد من اعضائها والقائهم في غياهب السجون، على الاسلوب الثاني، اي جمع الاموال من التجار والاثرياء اليهود تحت وطأة التهديد بالسلاح. وافرزت لهذا الغرض فرقاً من بين صفوفها انيطت بها مهام جمع الاموال من اليشوف، الذي وجد نفسه مطالباً بدفع اموال ليس الى جهة واحدة كما كان الامر في السابق؛ الامر الذي حدا بالكثيرين الى التهرب من دفع التبرعات او الامتناع عنه، وادى في المقابل الى قيام المنظمتين بجمع «التبرعات» تحت وطأة التهديد.

ومن الجدير بالذكر، ان الهجناه لم تتورع، في السابق، عن استخدام التهديد ضد الممتنعين[٨٦]، الا ان تهديد اتسل كان يفوق تهديدات الهجناه من حيث الشدة والعنف ووقعه على النفس، فقد لجأت المنظمة الى وضع متفجرات والغام بالقرب من منازل الممتنعين. وازاء الاستمرار في انتهاج هذا الاسلوب وروّاجه، وجدت التجمعات اليهودية المتضررة نفسها مضطرة للجوء الى سلطات الانتداب لتحميها وتخلصها من «مبتزي الاموال»، وبالفعل هب رؤساء البلديات وكذلك زعماء المستوطنات وعقدوا مؤتمرا، نددوا فيه بتعاظم موجة اعمال الابتزاز وفرض الخوة وطالبوا السلطة البريطانية بشن «حرب لاهوادة فيها ضد مبتزي الاموال والمهددين»[٨٧]. وردت اتسل التي اخذ افرادها يتعرضون لملاحقة الشرطة، في بيان ضد اعضاء المؤتمر، اتهمتهم فيه بـ «التنكر لمصالح الشعب والصهيونية، ويهدفون فقط الى جمع الاموال، وعندما تحين ساعة الخطر يتركون البلاد» فضلاً عن اتهامهم بـ «المخبرين»[٨٨].

لم يتأت عن ملاحقة البريطانيين لمبتزي الاموال وشجب الاوساط اليهودية لهم، وقف اتسل لنشاطها في هذا المجال؛ وذلك لان اعضاءها كانوا يعيشون في فراغ قاتل ولأن المنظمة كانت ترغب، ولو عن طريق القوة، في فرض وجودها العلني داخل اليشوف، عن طريق جمع الاموال، كما كانت تفعل الهجناه؛ الامر الذي ادى الى توتير العلاقة، المتوترة اصلاً بينها وبين الحركة التصحيحة. فعلى اثر مصرع رزيئيل الذي كان بمثابة الضابط للعلاقة بين الطرفين بحكم زعامته لكل من منظمتي اتسل وبيطار، اعترى العلاقة بعض التوتر؛ حيث اخذ قادة اتسل الجدد يتجهون نحو مزيد من الاستقلالية عن الحركة التصحيحية، بينما كانت الاخيرة تبذل جهودها لجر المنظمة نحو مزيد من التبعية. وفي اواخر ١٩٤١، وصلت الخلافات بين الفريقين الى ذروتها لدرجة بدت المنظمة وكأنها تقف على عتبة انشقاق آخر، حين اخذ الطرفان يتبادلان التهم المشفوعة بأعمال التهديد والارهاب، كوضع متفجرة بواسطة المسؤول عن فرع القدس في اتسل بالقرب من مكتب احد قادة الحركة التصحيحية(٨٩). وقد تغلب الطرفان على الانشقاق المحتمل باقامة «لجنة تنسيق» مشكلة من اربعة اشخاص، يمثل كل طرف عضوان ، وظيفتها تنسيق العلاقة بينهما. وبذلك وجد حل للمشكلة التي كانت بمثابة سبب مباشر لتأزيم العلاقات، فقد تم، برضى الطرفين، تأسيس مشروع مالي ثابت يحمل اسم «ضريبة جبهة اسرائيل» شبيهة بصندوق «فدية اليشوف»، لوضع حد لاعمال الخوة والسرقة التي رافقت عملية جمع الاموال على يد اتسل. وقد تعهد المسؤولون عن الصندوق باقتصار حملة التبرعات وجمع الاموال على اعضاء الحركة التصحيحية واتسل وانصارهما. ومع ذلك فقد حاول المسؤولون مراراً فرض التبرعات على غير المؤيدين عن طريق القوة(٩٠).

مع اقامة صندوق «ضريبة جبهة اسرائيل» برئاسة «يعقوب حلبيتس»، المقرب من الاستخبارات البريطانية، والذي كاد في فترة لاحقة ان ينجح في تسليم قيادة اتسل الى يد المخابرات البريطانية، اصبحت المنظمة في اطار التبعية المطلقة للحركة التصحيحية، مما اثر بشكل كبير على مكانتها في نظر الكثيرين من اعضائها، وجعل الانسحابات من صفوفها تتوالى.

انهمكت قيادة المنظمة، في هذه الفترة، باعادة تنظيم نفسها، على الصعيد الاعلامي، واصدرت صحيفة، الى جانب صحيفتها الداخلية، تنطق باسمها، تحمل اسم «حيروت»(٩١) لايصال برامجها واهدافها الى الجمهور.

واثناء ذلك (نيسان١٩٤٢)،وصل إلى فلسطين مناحيم بيغن،كمجند في الجيش البولوني بعد ان كان قد شغل،منصب رئيس حركة بيطار في بولونيا.واستبشر بمجيئة عدد من قادة اتسل على امل اخراج المنظمة من حالة التدهور، كما استبشرت به قيادة الحركة التصحيحية على امل ايجاد حل ثابت لعلاقتها باتسل. وتحت مظلة هذا «الاستبشار»، عقدت قيادة الحركة التصحيحية واتسل اجتماعاً(٩٢)، في الثامن من ايار ١٩٤٢، تدارست فيه موضوع «الجندي» المجاز، وقررت تعيينه قائداً للمنظمة. بيد ان «الجندي» اشترط، لقبول التعيين، اطلاق سراحه من الخدمة العسكرية في الجيش

البولوني، ثم بعد انتهاء اجازته، اوقف نشاطه في المنظمة، وعاد الى صفوف الجيش بانتظار اوامر تسريحه. وليس من شك في ان واقع اشتراط بيغن، بقبول القيادة، اطلاق سراحه من الخدمة، واصراره على ذلك، قد شكلا تربة خصبة للاشاعات التي بثتها اوساط الهجناه، في فترة لاحقة، والقائلة ان بيغن عميل بولوني. ومن الجدير بالذكر، ان قيادة الحركة التصحيحية واتسل وجدت، لدى قيادة القوات البولونية المرابطة في فلسطين، اذنا صاغية اكثر مما وجدت، عند بيغن. فقد جرت اتصالات ولقاءات بين قيادة المنظمة وعدد من كبار الضباط البولونيين تمخضت عنها موافقة البولونيين على اعداد دورات عسكرية لعناصر استل. وبالفعل شرع كبار الضباط، ومن بينهم جنرال سبق له ان شغل منصب وزير الدفاع، باقامة دورات خاصة للمنظمة من بينها دورات استخبارية(٩٣)، تعيد الى الاذهان الدورات السابقة التي تمت في الاراضي البولونية عام ١٩٣٨.

اثناء ذلك، انهمكت قيادة المنظمة بأعداد خطة لخلق «كتيبة عبرية» تعمل في صفوف القوات البريطانية، معتقدة ان الظروف اصبحت مهيأة للحصول على الموافقة البريطانية، بفضل «التعاون الوثيق» بينها وبين الاستخبارات البريطانية، الا ان السلطات البريطانية رفضت الخطة على الرغم من وضع الحركة التصحيحية ثقلها الى جانبها. وكنتيجة لذلك، اقدمت المنظمة، عام ١٩٤٢، على اتخاذ خطوة حاسمة، تمثلت في، «وقف التعاون مع الاستخبارات العسكرية والمباحث»، وكذلك في «ابعاد جميع القادة المرتبطين بهما» و«الاستعداد للقيام بعمليات ضد البريطانيين»(٩٤). وقد استدعت هذه الخطوة اعادة بناء المنظمة من جديد، وبخاصة لانها كانت قد كشفت نفسها للمخابرات البريطانية وعرتها، اثناء فترة «التعاون»، فضلا عن تحول عدد من مسؤوليها وعناصرها الى مجرد عملاء للمخابرات المذكورة. فأقدمت على وقف نشاطها لمدة شهر، وعلى تمويه عملية انشقاقية وهمية، انسحب خلالها العديد من العناصر من المنظمة بشكل علني تظاهري، للانضمام بسرية الى وحدات وفق التقسيمات الجديدة التي املتها عملية اعادة البناء. ومن الجدير بالذكر ان عملية الانشقاق «الوهمية» اثارت استخفافاً بين صفوف عدد من المطلعين عليها، وخيبة امل بين صفوف من لا علم لهم بحقيقتها(٩٥). ولا شك بأنها جاءت نتيجة تبعات «التعاون» غير المشروط بـ «المقابل».

بيد ان الاخطر من ذلك، كان ظهور خلافات شديدة بين الحركة التصحيحية والمنظمة حول ضرورة «الاستعداد» لمواجهة البريطانيين، طرحت، من جديد، موضوع العلاقة بين الطرفين، واسفرت، في نهاية الامر، في ربيع ١٩٤٣، عن حل «لجنة الاشراف» وانهاء الاتفاقات بينهما، وخروج المنظمة، بشكل نهائي، من دائرة التبعية للحركة التصحيحية(٩٦).

مع حصول قيادة اتسل على استقلالية المنظمة، اصبحت تقف امام ضرورة تطبيق ما يتطلبه «الاستعداد» لمواجهة البريطانيين الذي طال امده وسط النقاشات مع الحركة التصحيحية، الا انها وجدت نفسها عاجزة عن تحقيقه. وفي غضون ذلك، شهدت القيادة صراعات خطيرة بين صفوفها اسفرت عن حل القيادة برئاسة يعقوب مريدور لنفسها في ايار ١٩٤٣، وبقيت المنظمة اثر ذلك لفترة بسيطة كجسد بلا رأس، في وقت كانت ترتفع

فيه اصوات تطالب بحلها نهائياً[٩٧]، الى ان عاد الرأس اليها على شكل قيادة جديدة برئاسة مريدور نفسه.

وسط هذه الاجواء، عاد «المجند» في الجيش البولوني الى فلسطين، حاملاً معه هذه المرة مذكرة «تسريح» من الخدمة، لينخرط في خدمة اخرى، ليس كجندي، وانما كقائد لاتسل.

---

(١) باوار يهودا ، «**الدبلوماسية والسرية في السياسة الصهيونية**» (دبلوماتيا اومحتيرت بمدينيوت هتسيونيث)، مرحافيا، اصدار: الكيبوتس القطري، الطبعة الثانية ١٩٦٩، ص ٧٢.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ٧٢.

(٣) ليف عامي شلومو ، «**في النضال والثورة**» (بمأناك اوفميرد ) تل – ابيب، اصدار وزارة الدفاع، بدون تاريخ، ص ٧٩ – ص ١٣١.

(٤) باوار يهودا، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٤.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٧٤.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٨٢.

(٧) بن – تسيون دينور وآخرون (تحرير)، «**كتاب تاريخ الهجناه**» (سيفرتولدت هجناه)، تل – ابيب، اصدار معرخوت، المجلد الخامس، ص ١١٢.

(٨) باوار يهودا ، **مصدر سبق ذكره** ، المجلد الخامس، ص ٧٧٧.

(٩) بن – تسيون دينور وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ٧٧٧.

(١٠) **المصدر نفسه** ، المجلد الخامس، ص ٧٧٨.

(١١) ميلشتاين اوري ، «**بالدم والنار يهودا**» (بدام فأش يهودا)، تل – ابيب، اصدار لفين افشتاين، الطبعة الثانية ١٩٧٤، ص ٨٥.

(١٢) شاؤول افيجور وآخرون (تحرير)، «**موجز تاريخ الهجناه**» (كيشور تولدوت هجناه)، تل – ابيب، اصدار: وزارة الدفاع، ١٩٧٨، ص ٣٦٩.

(١٣) بن – تسيون، دنيور وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ٧٧٦.

(١٤) **المصدر نفسه**، المجلد الخامس، ص ٣٧٤ – ٣٧٧.

(١٥) نيف دافيد، «**تاريخ المنظمة العسكرية القومية اتسل**» (معرخوت هارجون هتسفائي هليئومي)، تل – ابيب، اصدار كلاوزنر ١٩٦٥، الجزء الثالث، ص ٨٢ – ٨٣.

(١٦) افيعيزر جولان ، «**حرب الاستقلال**» (ملحيمت هعشماؤوت)، تل – ابيب، اصدار: وزارة الدفاع، ١٩٧١، ص ١٠.

(١٧) بن – تسيون دينور وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ١١٢.

(١٨) «**المصدر نفسه**» ، المجلد الخامس، ص١١٢.

(١٩) **المصدر نفسه** ، المجلد الخامس، ص ١٢٤ – ١٢٥.

(٢٠) ليف عامي شلومو ، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ١٣٣.

(٢١) بن – تسيون دينور وآخرون، **مصدر سبق ذكره**،المجلد الخامس، ص ٤٧١.

(٢٢) نيف دافيد، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثالث، ص ٢٩ – ٣٠.

(٢٣) ليف عامي شلومو ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٦.

(٢٤) باوار يهودا ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٥.

(٢٥) تساؤول افيجور وآخرون ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩٩.

(٢٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٩٩.

(٢٧) نيف دافيد، **مصدر سبق ذكره** ، الجزء الثالث، ص ٣٤.

(٢٨) ليف عامي شلومو ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٦.

(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ١٣٧.

(٣٠) شاؤول، افيجور وآخرون ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠١.

(٣١) **المصدر نفسه**، ص ٣٠١.

(٣٢) نيف دافيد، **مصدر سبق ذكره**، الجز الثالث، ص ٦٨.

(٣٣) ميلشتاين اوري ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٠.

(٣٤) باورا يهودا، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٨٥ – ٨٦.

(٣٥) بناي يعقوب ، «**جنود مجهولون**» (حياليم المونيم)، تل – ابيب، اصدار مجموعة اصدقاء، ص ٨٥.

(٣٦) الداد يسرائيل، «**العشر الاول**» (معسير ريشون)، تل – ابيب، اصدار: منير قدامى ليحي، الطبعة الثانية ١٩٦٣، ص ٩١ – ٩٢.

(٣٧) نيف دافيد، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثالث، ص ٣٨.

(٣٨) **المصدر نفسه**، الجزء الثالث، ص ٤٧.

(٣٩) **المصدر نفسه**، الجزء الثالث، ص ٤١.

(٤٠) **المصدر نفسه**، الجزء الثالث، ص ٤٢.

(٤١) **المصدر نفسه**، الجزء الثالث، ص ٣٥.

(٤٢) يلين مورنتان ، « **المحاربون من اجل حرية اسرائيل**» (لوحامي حيروت يسرائيل) تل – ابيب، اصدار: شكمونا ١٩٧٤، ص ٦٣ – ٦٤.

(٤٣) نيف دافيد، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثالث، ص ٣٨.

(٤٤) بن – تسيون دينور وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ٤٧٠ – ٤٧١.

(٤٥) نيف دافيد، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثالث، ص ٢٠ – ٢١.

(٤٦) بن – تسيون واخرون **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ٤٧٤.

(٤٧) **المصدر نفسه** ، المجلد الخامس ، ص ٤٧٥.

(٤٨) **المصدر نفسه** ، المجلد الخامس ، ص ٤٧٥.

(٤٩) نيف دافيد، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثالث، ص ٤٣.

(٥٠) «**المحاربون من اجل حرية اسرائيل – كتابات**» (لوحامي حيروت يسرائيل ـ كتافيم)، تل – ابيب، اصدار: اللجنة لنشر كتابات ليحي ١٩٥٩، المجلد الثاني، ص ١٧ – ١٨.

(٥١) ليف عامي شلومو ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٤.

(٥٢) نيف دافيد، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثالث، ص ٤٦.

(٥٣) **المصدر نفسه**، الجزء الثالث، ص ٤٦.

(٥٤) **المصدر نفسه**، الجزء الثالث، ص ٤٤.

(٥٥) **المصدر نفسه**، الجزء الثالث، ص ٤٥.

(٥٦) ليف عامي شلومو، **مصدر سبق ذكره**، ١٤٥.

(٥٧) يلين مور نتان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٩ – ٧٠.

(٥٨) بن – تسيون، دينور وآخرون، **مصدر سبق دكره**، الجزء الخامس، ص ٤٧٦.

(٥٩) نيف دافيد، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثالث، ص ٥٠.

(٦٠) بناي يعقوب، **الجزء الثالث**، ص ٦٩.

(٦١) **المصدر نفسه**، ص ٦٩.

(٦٢) الداد يسرائيل ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٢.

(٦٣)سيتون ، دافيد ، «**في العلن والخفاء**» (بااور اوفاسيتر)، القدس، اصدار: بمعرخاه،، ١٩٧٨، ص ٩٣.

(٦٤) **المصدر نفسه**، ص ٩٦؛ ليف عامي شلومو، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥١.

(٦٥) نيف دافيد، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثالث، ص ٥٥.

(٦٦) **المصدر نفسه**، الجزء الثالث، ص ٥٥.

(٦٧) بن – تسيون دينور وآخرون، **مصدر سبق ذكره** المجلد الخامس، ص ٤٧٢.

(٦٨) ليف عامي شلومو ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٦.

(٦٩) بن –تسيون‌دينور وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ٥٦.

(٧٠) نيف دافيد ، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثالث، ص ٥٦.

(٧١) بن – تسيون دينور وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ٤٧٣.

(٧٢) **المصدر نفسه** ، المجلد الخامس ، ص ٤٧٤.

(٧٣) نيف دافيد، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثالث، ص ٥٦ – ٥٧.

(٧٤) بن – تسيون دينور وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ٤٧٤.

(٧٥) افيدار يوسف ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٦٧.

(٧٦) **المصدر نفسه**، ص ١٦٦.

(٧٧) بن – تسيون دينور وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ٤٧٤.

(٧٨) ليف عامي شلومو ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٦.

(٧٩) باوار يهودا ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٤.

(٨٠) **المصدر نفسه**، ص ١١٤.

(٨١) نيف دافيد، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثالث، ص ٧٤.

(٨٢) بن – تسيون دينور وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ٤٨٢.

(٨٣) **المصدر نفسه** ، المجلد الخامس، ص ٤٨٢.

(٨٤) **المصدر نفسه**، المجلد الخامس ، ص ٤٨٣.

(٨٥) نيف دافيد، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثالث، ص ٢٥٤.

(٨٦) **المصدر نفسه**، الجزء الثالث، ص ٢٥٤.

(٨٧) **المصدر نفسه** ، الجزء الثالث ، ص ٢٥٤، نقلاً عن «هآرتس»، ١٩٤١/٨/١١.

(٨٨) بن – تسيون دينور وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ٤٨٣.

(٨٩) نيف دافيد، ، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثالث، ص ٢٥٥.

(٩٠) **المصدر نفسه**، الجزء الثالث، ص ٢٥٦.

(٩١) ليف عامي شلومو ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٠.

(٩٢) بن – تسيون دينور وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ٤٨٤.

(٩٣) ليف عامي شلومو، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٢.

(٩٤) بن – تسيون دينور وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الخامس، ص ٤٨٦.

(٩٥) ليف عامي شلومو ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٣.

(٩٦) **المصدر نفسه**، ص ١٨٩.

(٩٧) **المصدر نفسه**، ص ١٩٠.

فاروق وادي

# سقوط زمن الوهم

## دراسة في أدب غسان كنفاني الروائي

### مدخل

لا تتحقق كونية الفن إلا من خلال خصوصيته. وبقدر التصاق غسان كنفاني بخصوصية التجربة الفلسطينية والتزامه في التعبير عنها، فانه استطاع الانطلاق منها بتلقائية إلى رحابة العالم، ليحقق في ذلك اللقاء والتطابق بين الهم الفلسطيني بتفاصيله والهموم الانسانية بعموميتها؛ حيث يمتلك الجزء قوة التعبير عن كلية أشمل.

«ان فلسطين تمثل العالم برمته في قصصي...»[1]. لقد أراد غسان كنفاني، بهذا القول، أن يحرق المسافة بين الخصوصية والكونية، لكن الاحتراق الفعلي لم يتحقق إلا من خلال التقاط جوهر وتفاصيل رحلة الانسان الفلسطيني وتجربته في شروطها التاريخية المتباينة؛ ففي هذه الحالة وحدها تصبح تجربة الانسان الفلسطيني تجربة فلسطينية وإنسانية في آن واحد. فالكاتب لم يختزل العالم ليحصره في حدود قضيته، بل انه، على العكس من ذلك، يمسك بقضيته وإنسانها ليلامس بها التجربة الانسانية الشاملة.

«ففي وسع الناقد [الادبي] الآن أن يلاحظ بأن قصصي لا تتناول [الفرد] الفلسطيني فحسب؛ بل تتناول حالة إنسانية لانسان يقاسي من المشاكل اياها. ولكن ربما كانت تلك المشاكل اكثر تبلوراً في حياة الفلسطيني»[2].

قد تكون تلك المشاكل، بالفعل، أكثر تبلوراً في حياة الانسان الفلسطيني، وقد لا تكون. لكن الذي يجعلها كذلك، في رؤية الفنان، هو الالتزام بتلك الخصوصية بالانخراط في التجربة حتى العظم والاقتراب من إنسانها ومعانقة همومه حتى الالتحام، بحيث يصبح هذا الانسان بؤرة الرؤيا لهموم ومشاكل الانسانية جمعاء.

«كنت أكتب عن فلسطين كقضية قائمة بحد ذاتها، وعن الاطفال الفلسطينيين، وعن

الانسان الفلسطيني، عن آمال الفلسطينيين بحد ذاتها كأشياء منفصلة عن عالمنا هذا مستقلة وقائمة بذاتها كوقائع فلسطينية محضة. ثم تبين لي أني أصبحت أرى في فلسطين رمزاً انسانياً متكاملاً. فأنا عندما أكتب عن عائلة فلسطينية، فإنما أكتب في الواقع عن تجربة انسانية. ولا توجد تجربة في العالم غير متمثلة في المأساة الفلسطينية»[٣].

ذلك، يلخص تطور الوعي السياسي لدى غسان كنفاني، والذي نلمس انعكاساته المباشرة في نتاجاته الاخيرة كوعي يفصح عن ذاته بلا مراوغة، باحثاً عن أيسر السبل للتواصل مع جمهور عريض، بما يقتضيه ذلك من تنازلات على صعيد البناء الفني، وتراجع عن النقطة التي وصل إليها الكاتب في روايتيه الاولى والثانية تقنياً وتجريبياً.

لقد شهدت السنوات الاخيرة من حياة الكاتب تحولاً جذرياً في معتقداته وقناعاته السياسية والايديولوجية، وانتقالاً من الفكر القومي إلى الاممي. لكن غسان كنفاني، روائياً لم يكن مشروطاً بفكر القوميين العرب (الحركة التي كان ينتمي إليها) وهو يخلق فنه الروائي؛ إذ أنه تجاوز بهذا الفن المرتكزات الايديولوجية التي كانت تحركه في ممارساته السياسية، واعتنق، بوعي أو بدون وعي، نقيضها الفكري قبل سنوات من تعبيره السياسي عن اعتناق الفكر الجديد.

فقد استبق غسان كنفاني، ككاتب روائي، ذاته، كمناضل سياسي، إلى المواقع الفكرية والسياسية الاكثر تقدماً. وهو لم يكتشف هذا التجاوز إلا في مرحلة متأخرة، وبالتحديد، كما يعبر، بعد أن شاهد فيلماً سينمائياً مأخوذاً عن إحدى رواياته..

«.. وقد شاهدت الفيلم بمنظور جديد، إذ اكتشفت فجأة بأن الحوار بين الابطال وخط تفكيرهم وطبقتهم [الاجتماعية] وطموحاتهم وجذورهم في ذلك الحين كانت تعبر عن مفاهيم متقدمة عن أفكاري السياسية. [إذن] باستطاعتي القول بأن شخصيتي كروائي كانت متطورة أكثر من شخصيتي كسياسي، وليس العكس»[٤].

في السياسة، كان غسان يطمح إلى مجابهة الواقع. اما الرواية فقد كانت لديه أكثر من مجرد المجابهة. فمن خلالها عبّر عن الواقع، وتسرب منه إلى الماضي ليوقظه ويحييه، ثم جابه الحاضر..

فالروائي، كما يرى غسان، كل هذه المعالم مجتمعة... يعبر عن الواقع... ويهرب إلى الماضي... ويجابه الحاضر[٥].

■ ■ ■

أربع روايات، هي التي نشرها غسان كنفاني قبل موته، ترسم بكثافتها الشديدة رحلة الفلسطيني من الفرار إلى المواجهة:

١ - «**رجال في الشمس**»[٦]

رواية تتوسم خطى رجال فلسطينيين في رحلة الفرار الجهنمية، من صقيع المنفى إلى لظى الصحراء الممتدة بين البصرة والكويت، ينقلهم، في الرحلة، فلسطيني آخر، عاجز، فقد رجولته في حرب فلسطين، مهربين في سيارة صهريج ماء فارغ، نحو بديلهم المكاني الوهمي عن الارض طمعاً في تحقيق التوازن الاجتماعي والاقتصادي والنفسي المفقود. لكن البديل، في النهاية، لم يكن إلا الموت، والموت اختناقاً في الصهريج، وبسواعد أعجز من أن تدق جدران خزان الماء الذي يحتويهم هاربين، يخنقهم هاربين... لتجد جثثهم نهايتها وقبرها في ركام مزبلة صحراوية، لا تسمع النداء الذي أصبحت ترددده الصحراء... لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟

٢ - «**ما تبقى لكم**»[٧]

رحلة فرار اخرى للفلسطيني، عبر الصحراء، تنتهي بإرهاصات المجابهة. ففي الصحراء الفلسطينية المحتلة يهرب حامد خجلاً من عاره، بعد أن حملت اخته من رجل حقير وخائن ثم تزوجها بلا ثمن. انه يقطع صحراء يستولي عليها الاعداء قاصداً الضفة الغربية بحثاً عن امه، ملاذه الوهمي، والتي كان غيابها سبباً في كارثة عاره.

لكن الصحراء التي كانت هناك، في الرواية الاولى، موتاً وقبراً، تصبح هنا أرضاً للمجابهة. فالبطل الهارب يلتقي عدوه فوق رمال الصحراء، يصطدمان وجهاً لوجه، خنجراً وبندقية. وفي لحظة متوحدة، رغم البعد المكاني، ينغرس خنجر الأخت في جسد زوجها، ويلتمع نصل خنجر حامد في وجه عدوه.

٣ - «**أم سعد**»[٨]

في اللوحات التسع التي ترسمها هذه «الرواية» لا حدث ينمو، وإنما مواقف وأحداث تفصيلية تنمي الشخصية التي أرادها الكاتب محوراً للرواية. فكل لوحة من هذه اللوحات تحتفظ باستقلالها النسبي، لكنها تعود لتجد خيوطها ممتدة بسابقتها ولاحقتها لتشكل في مجموعها مبنى العمل الروائي، ويحكم ترابطها من خلال الشخصية المحورية، التي تتحرك في داخلها.

أم سعد هي تلك الشخصية المحورية، كيان إنساني ينبض ببساطة وعنفوان الحس الشعبي المرهف، بوصلة تتحرك بتلقائية لتشير، ببساطتها، إلى منحى حركة الأحداث؛ وهي، في الوقت نفسه، الوعي الفلسطيني الجديد في أرقى وابسط تجلياته.

أما نقطة البدء في اللوحة الاولى، فإنها «الدالية» التي تزرعها أم سعد، لنراها في اللوحة الاخيرة وقد برعمت، لتغلق مع براعمها دائرة مسار الرواية.

٤ - «**عائد إلى حيفا**»[٩]

تغيب الشخصية المحورية هنا لتستند الرواية على الحدث، لكن الاحداث تعود لتترك

مكانها لهيمنة الحوارية الذهنية المباشرة. الحدث محدد زمنياً ويتواصل مع أحداث تاريخية ترتبط فيه؛ ومحوره زيارة يقوم بها فلسطيني مع زوجته إلى بيتهم في حيفا الذي غادروه قبل عشرين عاماً، بعد أن أتاح لهم الاحتلال الجديد عام ١٩٦٧ فرصة زيارته، باحثين عن طفلهم الذي خلفوه وراءهم في ذلك البيت عند سقوط المدينة قبل تلك السنوات الطويلة، ليفاجآ بأن الطفل الذي خلفوه قد أصبح ضابطاً في الجيش الاسرائيلي ومدافعاً عن الصهيونية والاحتلال. لكنهم يجدون عزاءهم في ابنهم الآخر، الذي يطمح إلى الالتحاق بحركة المقاومة.

والروايات التي نشرت بعد استشهاد غسان كنفاني، تظل أجزاء مبتورة من عالم روائي لم يكتمل، لكنها تبقى أجزاء من هذا التراث، تلتقي مع سابقاتها المكتملة وتطمح في تجاوزها، لكن النظرة التقييمية اليها تظل أيضاً مبتورة. فالدائرة هنا لم تكتمل، والعين التي تنظر إليها تظل محتفظة باعترافها بالعجز عن إكمال الدائرة إلا من خلال الارتداد نحو التراث المكتمل او ممارسة الاسقاط الذاتي الذي يجتهد في اغلاق الدائرة. والروايات غير المكتملة التي نشرت لغسان كنفاني بعد استشهاده ثلاث:

١ - «**العاشق**»[١٠]

وفيها يرتد الكاتب إلى التاريخ الفلسطيني في سنوات الاحتلال البريطاني، ليرصد ملامح البطل الفلسطيني الملحمي في التاريخ القريب؛ إنسان يتنكر لاسمه، ثم يعود ليتنكر لاسمه الجديد، في انتقاله من مكان إلى مكان، مختفياً عن عيون السلطات، ومتوسلاً الجياد رفاقاً له في لحظة هربه ولحظة المجابهة. لكنه يسقط أخيراً بين يدي عدوه، وعند سقوطه تنتصب الذاكرة لتعيد تشكيل تاريخه في عنصري تكوينه... مجابهة واختفاء... واختفاء ومجابهة.

رواية لم تكتمل، تشي صفحاتها المنقولة بتجربة فنية فذة عاجل الموت صاحبها قبل اكتمالها.

٢ - «**الاعمى والاطرش**»[١١]

في هذه الرواية محاولة لتحقيق التزاوج بين الفني والذهني. وهي ترصد علاقة نشأت صدفة بين أعمى وأطرش في لحظة اكتشاف الخط الفاصل بين الوعي الزائف والوعي، عندما يكتشفان أن ضريح الولي وأدعيتهما إليه لن تخلصهما من عاهتيهما. يهتز الغيبي والمتوارث فيهما فجأة؛ إذ يكتشفان أن الولي ليس أكثر من مجرد نبت فطري عاجز، فيقرران هدم الضريح، لكنهما يظلان عاجزين عن الفعل رغم إحساسهما بالتغير، فسقوط الوعي الزائف لا يحقق القدرة على الفعل، بل يستلزم، في البدء، البحث عن وعي بديل. وإذ يظهر، في عالم الاعمى والاطرش، الانسان الفلسطيني المقاتل، المزود بالوعي، والفاعل، فانهما ينعطفان نحوه متلمسين وعيه في زمن سقوط الوهم.

٣ - «**برقوق نيسان**»[١٢]

في حدث قصير يجد ارتداداته في الهوامش المتوازية، وفي زمن قصير يجد عمقه في

زمن الهوامش، تبدأ الرواية وتنتهي. فالرجل العجوز الذي يحمل زهور البرقوق لصديقته المناضلة ورفيقة ابنه الشهيد، يجد نفسه واقعاً في شرك نصبه جنود الاحتلال؛ إذ يقتحمون بيت الصبية في غيابها، ليصبح كل قادم إليه مداناً. حتى حامل زهر البرقوق هو مدان. وكل انسان يبقى عرضة للإدانة.

لكن الاحتلال أيضاً يحيي البذور الخبيئة في الاعماق لدى مناضلين قدماء كادوا أن ينسوا تاريخهم، لكن الشرك أعادهم إلى الجوهر... وفي الشرك تصبح أحاديثهم إلى الاعداء رسالات نضالية بين بعضهم البعض.

هذه الروايات السبع، المكتملة، وأخرى عاجل الموت كاتبها قبل إكمالها هي التي اعتمدتها لجنة تخليد الشهيد غسان كنفاني ونشرتها كآثار كاملة لاعمال الكاتب الروائية[١٣]، وهي التي تعنينا في هذه الدراسة، لكننا نستبق ذلك بمجموعة من الاشارات قد تكون ضرورية لدراسات اخرى:

أ - صنفت لجنة تخليد الشهيد عمل غسان كنفاني «عن الرجال والبنادق» كمجموعة قصص قصيرة، بينما الكاتب قدم عمله كعدد من «اللوحات» التي ترسم افقاً أشرق فيه الرجال والبنادق[١٤] إن توحدها الموضوعي والامتداد الزمني لاحداثها ونمو الشخصيات في داخلها، ساهم في تكوين رأي مغاير نظر إليها كعمل روائي، أو كعمل روائي لم يكتمل، في حالة التعامل مع قسمه الاول[١٥].

ب - ثمة إشكال تصنيفي آخر بشأن «أم سعد». ففي حين وضعتها لجنة تخليد الشهيد ضمن النتاج الروائي للكاتب، فإن اجتهاداً آخر يرفض انتماءها، مع «عن الرجال والبنادق»، الى أحد الشكلين: القصص القصيرة أو الرواية[١٦]. أما الكاتب فقد قدمها على أنها «قصص فلسطينية».

جـ - في العام ١٩٦٦، نشر غسان كنفاني رواية بعنوان «من قتل ليلى الحايك؟» مسلسلة في مجلة «الحوادث» اللبنانية [١٧]، ولم تنشر بعد ذلك في كتاب، كما استبعدتها لجنة تخليد الشهيد من النشر ضمن أعماله الروائية.

تستند الرواية على الحبكة البوليسية، وتزدحم بكل عناصر الاثارة البدائية الساذجة، بدءاً بعنوانها ومروراً بأحداثها وشخصياتها، وانتهاء بالشكل الصحفي الذي قدمت فيه ( المانشيتات الفرعية، والصور المرافقة، والاخراج التمثيلي).

إن هذه الرواية، السقطة، تشكل نبتاً وحشياً شاذاً فوق الارض التي انبتت غسان كنفاني روائياً. وهي لا تعنينا في هذه الدراسة، إلا أن مجرد الاشارة إليها هنا قد تعني بعض الدارسين الاكاديميين، أو الذين تعنيهم جوانب أخرى من حياة الكاتب.

لكن ما بقي من غسان حقاً هو تلك الاشياء التي دفع حياته ثمناً لتكريسها، الارض

الفلسطينية، والبطل الفلسطيني... الزمان والمكان الفلسطينيين. ثم تلك المغامرة الفنية الصعبة التي قفز بها عمراً في مسار تطور الرواية الفلسطينية، متكئاً على الواقع الفلسطيني والرمز معاً، ناسجاً رحلة الفلسطيني من المنفى إلى الثورة.

■ ■ ■

## الارض والانسان الفلسطيني

من الارض تبدأ رحلة غسان كنفانى الروائية، وفيها كانت تطمح أن تنتهي؛ فهي تتوازى مع رحلة الانسان الفلسطيني، من الارض إلى المنفى الذي ظلت فيه الارض محمولة في الذاكرة، ينأى عنها فيقترب منها.

أبو قيس «رجال في الشمس» ينأى عن الارض، لكنه إذ يمنح صدره لتراب الأرض البعيدة، فإن قلبه يخفق بدبيب الارض الاولى، المفقودة. «أراح ابو قيس صدره فوق التراب الندي، فبدأت الارض تخفق من تحته: ضربات قلب متعب تطوف في ذرات الرمل مرتجة ثم تعبر إلى خلاياه» (ص ٣٧). وليست الارض قريبة من القلب، لكنها متوحدة فيه تخفق مع خفقاته، وتستمد رائحتها من تلك الالفة الحارة التي يستنشقها الرجل في المرأة المعشوقة غب اغتسالها بماء بارد.

هذا الاقتراب من الارض المفقودة، يتسامى بها عن المسافات، ليحرقها بالذاكرة والحلم. فنسيج رحلة الانسان الفلسطيني يبقى متمحوراً حول الارض. كل الافعال، الاحلام، الهواجس، الطموحات، يظل محورها الارض. وحتى الموت فإنه لا يكتسب معناه بعيداً عن الارض ، فيصبح مجانياً ورخيصاً حينما يكون خاتمة الرجال في رحلتهم الطامحة إلى إيجاد بديلهم الوهمي للارض. ومن هذا النهيج الواقعي، يستمد غسان كنفاني خيوطه لينسج كلماته في تمحورها حول الارض.

وكما اشتم ابو قيس رائحة المرأة في الارض، فإن حامد «ما تبقى لكم» أحسها هو الآخر امرأة، عذراء، ترتعش تحت جسده.. «فغرس أصابعه في لحم الارض وذاق حرارتها تسيل إلى جسده، وبدا له انها تنفست في وجهه فلفح لهاثها المستثار وجنتيه، وشد اليها فمه وانفه، فاشتد الوجيب الغامض...» (ص ١٦٩).

لكن فعل الارض، الذي غاب عن الرجال الذين قتلتهم أراضي الغربة، يتبدى لحامد الهارب من الارض اليها، والغارق في جوفها الصحراوي ليبقى فيها، ومن قلبها يدرك فعالية فعلها الخفي.. «أرض خصبة مزروعة بالوهم والمجهول تتكسر كل انصال الفولاذ في العالم إذا مرت فوق صدرك الاصفر العاري، صدرك الأجرد الممتد إلى أبدي وإلى آبادهم، والسابح بجلال في بحر من العتمة، كل انصال الفولاذ في العالم ليس بمقدورها أن تحصد من فوقك عرقاً واحداً. ولكنها تتكسر، واحداً وراء الاخر، حتى ليتحول هو ذاته إلى عرق مجهول مشرش يستقي منك انتصابه وخطواته» (ص ١٧٩، ١٨٠).

أرض صحراء الغربة التي استلقت فوق نفاياتها ثلاث جثث فلسطينية في الرواية الاولى، هي غير أرض الصحراء الفلسطينية التي تمد حامد بفعل الانتصاب. فهي ارض فلسطينية، وفوق ذرات ترابها نشهد بذور مواجهة اولى لم تكتمل، فكانت إشارة الارهاص بانعطاف حركة التاريخ الفلسطيني نحو بدايات المواجهة الحقيقية التي شهدت الانسان الفلسطيني ثائراً يرفع سلاحه، والذي نجد صورته الموازية، على المستوى الروائي، في حامد يرفع خنجره في وجه عدوه، في لحظة المواجهة التي لم تشهد انغراس السكين في جسد العدو، لان انغراس السكين كان آنذاك، لو حصل، مجرد كذبة وتضليل رومانسي واستباق لحركة التاريخ. لكنه في النهاية التي انتهى اليها جاء استشرافاً وارهاصاً بتلك الحركة التي شهدها التاريخ الفلسطيني من اجل الارض. فغسان كنفاني لم يستبق حركة التاريخ، بيد انه لم يخنه، إذ استشرف حركة بوصلة مساره.

تطور هذا المسار، هو الذي قفز بحركة التاريخ خطوات تحولية إلى الأعلى، وهو الذي جعل من «ام سعد» كياناً حقيقياً نابضاً يرتقي إلى درجة المواجهة الواقعية بنمطها الشعبي الفعوي. فمن اين تجيء ام سعد؟ انها «تصعد من قلب الارض وكأنها تصعد سلماً لانهاية له» (ص ٤٥)، مدركة تلك العلاقة بين النبتة وأرضها، ومجسدة علاقة الانسان الفلسطيني بأرضه.

هكذا تنتصب أم سعد أمامنا، نبتة فلسطينية تضرب جذورها في عمق الارض، كما الدالية التي تزرعها «تأخذ ماءها من رطوبة التراب ورطوبة الهواء، ثم تعطي دون حساب» (ص ٢٤٩).

وإن احتلت الارض المساحة الاوسع في ذاكرة الانسان الفلسطيني الذي عرفها، فإنها للجيل الذي ولد ونما بعيداً عنها تبقى شيئاً آخر أكثر من مجرد ذاكرة. فإذا كانت الارض بالنسبة لسعيد س. في رواية «عائد إلى حيفا»، مكاناً يعشش في خلايا الذاكرة بكل أشيائه الصغيرة وتفاصيله ويتنكر لصاحبه إذ يطل عليه بعد هزيمة، فانها لجيل ابنه خالد، الجيل الذي لم ير الارض من قبل لكنه حمل السلاح ليقاتل من أجلها، تعني شيئاً أكثر من مجرد ذاكرة. «كنت اتساءل فقط. افتش عن فلسطين الحقيقية. فلسطين التي هي أكثر من ذاكرة، أكثر من ريشة طاووس، أكثر من ولد، أكثر من خرابيش قلم رصاص على جدار السلم. وكنت أقول لنفسي: ما هي فلسطين بالنسبة لخالد؟ انه لا يعرف المزهرية، ولا الصورة، ولا السلم ولا الحليصة ولا خلدون، ومع ذلك فهي بالنسبة له جديرة بأن يحمل المرء السلاح ويموت في سبيلها» (٤١١ ـ ٤١٢).

وتصل العلاقة بين الانسان والارض في «العاشق» إلى حد الاندماج والتوحد. ينتفي عبد الكريم، العاشق، عن اسمه، ينكر ذاته القديمة ليتقمص اسماً وشخصاً آخر في كل مرة، لكن هذا الانكار يظل في سبيل الارض التي لا ينكرها. يهرب من رقعة إلى رقعة، لكنه يظل فوق الأرض التي يعشق، والمتوحد فيها حتى العظم والنخاع، متنقلاً فيها، منها،واليها، تحتويه بتواطئها الحنون معه وتحدب عليه. كل الاشياء لديه تبدو قابلة

للانفصال عنها، اسمه وماضيه وشخصه. الا الأرض القادرة على منحه تجدد الفعل الدائم، يظل الانفصال عنها غير ممكن.

تواطؤ الأرض مع العاشق الفلسطيني، يدركه عدوه الذي يطارده، الكابتن بلاك، الضابط الانجليزي، ويعبر عنه بكلمات هي اقرب إلى الشهادة؛ إذ يقرر بعد احدى محاولاته القبض على عبد الكريم «كنت أقول لنفسي، وأنا عائد مع الخيبة والمرارة والتعب، إن الأرض ذاتها هي المتواطئة والشريكة، وانك كي تقبض على عبد الكريم عليك أولاً أن تلقي القبض على الارض...» (ص ٤٤٦،٤٤٧).

وتغيب الأرض في «الأعمى والأطرش»، لأن كلا الشخصين، أعمى وأطرش، يسقطان في معضلة البحث عن الحلول الفردية لمشاكلهما الذاتية، فيتوسلان الغيب وإرث سنوات الوهم الطويلة، قبل ان يكتشفا أن توسلهما يتكىء على جدار الوهم. لقد جاءا من أرض واحدة، من بقعة صغيرة محددة على الارض والخرائط، فاكتشفا معاً أن الغيب هو وهم.. «اثنان من طيرة حيفا، يلتقيان بالصدفة حول حبة فقع!» (ص٥٠١). لكن الارض، رغم غيابها، تظل حاضرة في الوعي، بل ان الأعمى يستمد من مثالها وعيه وحدسه.. «وعرفت، كما تعرف الارض أن عشبة ما ستنمو هنا، انني سأذهب» (ص ٤٧٨).

والأرض التي يتقمصها الانسان الفلسطيني، تطل في «برقوق نيسان» وقد تقمصته هي بدورها، فعندما يكتسي بدنها بزهر برقوق الربيع، تصبح مثل جسد رجل شاسع ثقبه الرصاص. انها لا تحتوى الشهيد في أعماقها فحسب، ولكن شكلها الخارجي يتجلى على هيئته.

هكذا تتبدى الأرض في عيني الرجل العجوز، والد الشهيد قاسم الذي ظل «منشغلاً بتلك الصورة الغريبة التي اقتحمته كأنها قذفت على رأسه بحجر: بدن الارض مثل بدن رجل مثقب بالرصاص، يتضرج بزهر البرقوق، ويكاد المرء يسمع نزيز الدم يتدفق من تحته، ولا ريب أن قاسم بدا كذلك بعد هنيهات من سقوطه..»(٥٨٥).

الأرض هي ذروة العلاقات الحميمة للفلسطيني مع الاشياء. انها نقطة الدائرة التي انزلق عنها الفلسطيني في الانحناءة الهابطة في رحلة الغربة، وهي النقطة ذاتها التي يطمح للوصول إليها بارتقائه للانحناءات الصاعدة عبر الممارسة النضالية.

أن يشهد انغلاق الدائرة بوصول الفلسطيني إلى أرضه، كان هم غسان كنفاني في ممارسته السياسية وحلمه وطموحه. وأن يعبر عن رحلة الانسان الفلسطيني، عبر تفصيلات مسارها في محيط الدائرة من النقطة ذاتها: الأرض واليها، كان همه في ممارسته الفنية، رغم أن الفارق بين الممارستين هو مجرد فاصلة صغيرة وهمية لدى غسان كنفاني، روائياً ومناضلاً.

**زمان الفلسطيني.. ومكانه**

فرضت تجربة الاقتلاع والنفي القسري للفلسطيني عن أرضه، نوعاً من الخصوصية في علاقته مع الزمان والمكان..

فمهما تعددت الامكنة في المنافي، فإن الحلم يظل يشد الفلسطيني إلى مكان «ـه»، ومهما تراكم عليه الزمن، فإنه يظل يشد أوتار الذاكرة نحو الزمن المفقود، وهو يطمح في استعادتهما معاً: المكان المفقود والزمن المفقود.

ظل المكان المفقود، طويلاً، حلماً بعيد التحقق. وكلما كان الزمن يمضي برتابته، فانه كان ينأى بالفلسطيني بعيداً عن المكان، ويبعد الحلم عن احتمالات التحقق...

لكن التحول في حركة التاريخ الذي صنعه الانسان الفلسطيني بممارسته النضالية، كسر رتابة الزمن، فأصبح الحلم قابلاً للتحقق، إذ أصبح الزمن الفلسطيني يتجه في حركته نحو المكان الفلسطيني المفقود.

وما بين «رجال في الشمس» و «أم سعد»، تكمن شهادة غسان كنفاني. ففي حين غرق الرجال الثلاثة في الرواية الاولى في اوهام المكان البديل لان حلمهم، في زمن الوهم، كان بعيداً عن التحقق. فإن أم سعد، التي تعيش في تفاصيل الزمن الحاضر، المتغير، وتساهم في صنعه، نراها وهي تقترب أكثر من «المكان» ومن تحقيق الحلم.

في «رجال في الشمس» لا يقدم المكان دلالته من ذاته كمكان فحسب، وإنما يكتسب من الزمان دلالات اخرى.

فالصحراء، بامتدادها وفراغها وعريها، بصفرتها الباهتة الموحية، هي مسرح الحدث في زمن الفرار والاستنكاف. ولان المكان يشهد على ذاته في مثل ذلك الزمان، فإن الصحراء تحمل دلالات الموت والضياع، وفي جبروتها تكمن القسوة، ويكمن الموت للرجال الموغلين في جوفها نحو المكان البديل لكي يصنعوا فيه زمناً بديلاً.

هناك، وفي ذلك الزمن، كانت الصحراء جسراً من جسور الوهم ... «إن هذه الكيلومترات المئة والخمسين اشبهها بيني وبين نفسي بالصراط المستقيم الذي وعد الله خلقه أن يسيروا عليه قبل أن يجرى توزيعهم بين الجنة والنار» (ص ١٠٥). لكن الرجال الثلاثة، عبروا ذلك الجسر نحو الموت المحتم.

ومع أن للصحاري ذات السمات التكوينية المكانية، إلا أن الصحراء، في زمن آخر، تظل قادرة على أن تحمل دلالات اخرى مغايرة...

فالصحراء التي كانت قبراً وجحيماً في الرواية الاولى، تتحول في «ما تبقى لكم» إلى كيان متنفس. فبدلاً من وحشيتها الاولى، نرى أن الكاتب هنا يؤنسنها، فيضع فيها عقلاً ومشاعر، ويكسبها لحماً ونبضاً وعواطف دافئة...

- «رآها الآن لأول مرة **مخلوقاً يتنفس** على امتداد البصر، غامضاً ومريعاً وأليفاً في وقت واحد...» (ص ١٦١).

- «وقد أحس بها **جسداً** هائلاً **يتنفس** بصوت مسموع» (ص ١٦١).

- «**تنفس جسد الصحراء**، فأحس بدنه يعلو ويهبط فوق صدرها» (ص ١٦٢).

ولم تتوقف عملية انسنة الصحراء عند احساس الانسان بانسانيتها، لكنها تتعدى ذلك لكي تصبح كياناً انسانياً يحس بذاته... ويستشعر خطوات الزمن الجديد وهو يطرق بدنها...

- «وكنت مبسوطة أمامه، مستسلمة لشبابه بلا تردد ولخطواته وهي تدق في **لحمي**» (ص ١٧٣).

والصوت الأخير هو صوت الصحراء، فهو واحد من الأصوات الثلاثة التي تتدفق بمشاعرها على امتداد الرواية. وهي واحدة من أبطالها الخمسة، تمثل المكان، مثلما تمثل فيها الساعة الزمان الذي يدق دقاته القاسية، شخصية اخرى، إضافة إلى الشخصيات الانسانية الثلاث: حامد ومريم وزكريا.

إن الصحراء، التي تبدت في الرواية الاولى، مكاناً معادياً قاد الرجال إلى موتهم المحتم تحت لهيب شعاع الشمس، تحولت في الرواية الثانية إلى كيان متعاطف تتم فوق رمالها بذور المواجهة الاولى. ففوق رمالها، التقى «حامد» وجهاً لوجه مع جندي اسرائيلي، وفوقها رفع خنجره في وجه عدوه، ليحقق أول خطوة على طريق الفعل الحقيقي، ويحول الصحراء إلى مكان يشهد موت الأعداء بعد أن ظل زمناً طويلاً يشهد موت الفلسطيني.

هكذا تنقلب الدلالة المكانية للصحراء في الروايتين، فهي في الاولى أرض للموت، وفي الثانية أرض للمواجهة. والزمن وحده هو الشاهد على هذا التحول.

لكن المكان يبقى عاجزاً عن ان يعطي من نفسه قوة الزمان، فالصحراء تعلن عجزها عن ذلك «ولكن شيئاً واحداً لا استطيع اعطاؤه: الوقت» (ص ١٧٧).

وفي اللحظة التي يجلس فيها «حامد» في مواجهة عدوه، يُخضع مسألة الزمان والمكان إلى حسابات الربح والخسارة. فإن كان قد خسر الزمان في الماضي، فإن المكان لصالحه في تلك اللحظة، فالوقت «لا يمكن أن يكون ضدنا نحن الاثنين معاً، بصورة متساوية، فقد يكونون أقرب إليك مما أتصور ولكنك أقرب إلي مما يتصورون. والقصة كما ترى، قصة مسافة ليس غير، وربما زمن ايضاً. حسناً، ولكنني لا اكترث بالزمن كما ترى، والمسافة لصالحي فأنت اقرب إلى نصل سلاحي مما انا إلى فوهات بنادقهم» (ص ٢٠٩).

لقد خسر «حامد» زمنه الذي استبق لحظة ارتفاع السكين في وجه عدوه، فما كان الزمن يعنيه. فقد عاش طويلاً مع رتابة دقات ساعة الحائط التي تشبه النعش الصغير، بمعنى أنه عاش زمن الموت (الساعة / النعش)، وهو ذات الزمن الذي ظل يدق طويلاً في رأس «مريم»، فيبعث فيها إحساساً مريراً بتسرب العمر... وتحاول أن تلحقه، فتلقي بجسدها في أحضان «زكريا» الخائن، والنتن. وها هو صوت «مريم» يعلن أن «... مرور

الزمن لم يكن يعني لديه (لحامد) شيئاً فيما كان بالنسبة لي موتاً يعلن عن نفسه كل يوم مرتين على الأقل» (ص ١٨٧).

وفي أعماق الصحراء، هناك، يلقي حامد بالزمن القديم، حين يخلع ساعته عن معصمه ويطرحها على الرمال ثم يمضي موغلاً في جوف المكان بلا ساعة «وأمامي انبسطت المسافة السوداء عالماً من الخطوات غير مربوط بعقربين صغيرين. **لقد انطوى زمنها الصغير المتوتر الأحمق**...» (ص ١٩١).

لقد أحس باللذة التي يستشعرها المرء وهو يقشر طبقة الدم المتخثر فوق الجرح القديم «فتسقط معه ذكرى الجرح ذاته» (ص ١٩١). ومع ارتفاع السكين في وجه العدو، تكون المواجهة الاولى، وهنا يبدأ الزمن الجديد.

وإذا كانت «ما تبقى لكم» هي رواية المكان والزمان في تشابكهما واختلاطهما، فإن (أم سعد) هي رواية الزمن الجديد في أبسط تجليات تحوله. «مثل دقات **الساعة** جاءت. هذه المرأة تجيء دائماً، تصعد من قلب **الأرض** وكأنها ترتقي سلماً لا نهاية له...» (ص ٢٤٥).

إنها (الساعة / الزمن الجديد)، تنبت من (الارض / المكان البعيد)... لتخطو خطواتها الصاعدة.

ببساطتها، تدرك «أم سعد» معنى الزمن الجديد، وهي تعيشه بلحظاته المتغيرة، محتفلة به، وقادرة على أن تعطيه من دمها وعرقها. ومثلما تعرف علاقة النبتة بالأرض (المكان) فإنها تدرك أن النبتة لا تنمو إلا مع الزمان.

في اللوحة الاولى، تأتي «أم سعد» بعرق دالية فتيبس وهي تقول: «قطعته من دالية صادفتني في الطريق، سأزرعه لك على الباب، وفي أعوام قليلة تأكل عنباً» ( ص ٢٤٩).

وفي اللوحة الأخيرة، نرى «أم سعد» وهي تنكب فوق التراب حيث غرست «منذ زمن بدا لي في تلك اللحظة سحيق البعد تلك العودة البنيّة التي حملتها الي ذات صباح» (ص ٣٣٦). وكانت تنظر إلى الرأس الأخضر الذي بدأ يشق التراب وهي تقول: إن الدالية قد برعمت.

وفي رواية «عائد إلى حيفا»، يحاول سعيد س. وزوجته استعادة علاقتهما بالمكان المفقود، فيصلان إلى مدينتهما حيفا التي احتلت منذ عشرين عاماً قادمين من رام الله التي احتلت قبل عدة اسابيع...

وبمجرد وصول «سعيد س.» إلى حيفا يسمع صوت البحر مثلما كان يسمعه في الماضي، فتنهال عليه الذاكرة.. «لم تعد إليه الذاكرة شيئاً فشيئاً، بل انهالت في داخل رأسه، كما يتساقط جدار من الحجارة ويتراكم بعضه فوق بعض» (ص ٣٤١) .

العودة إلى المكان، هي التي تفجر الزمان في ذاكرة سعيد.س. وفوق ذلك المكان يعيد صياغة فتات لحظات الزمن الهارب.

تلك الصياغة تأتي بصورة عقلانية تتنافى مع معاني انهيال الذاكرة التي اشير إليها في البداية، فالتحديدات الزمنية الصارمة (مثل: «صباح الاربعاء، ٢١ نيسان، عام ١٩٤٨) (ص ٣٤٦)، وغيرها ، تفسد تلقائية الذاكرة. وحتى الانعطاف من الآني إلى الماضي، لا يتم بصورة عفوية وإنما بمقدمات تشير إليه، مثل...«وفجأة» جاء الماضي، حاداً مثل سكين: كان...» أو «وعندها جاء الماضي بكل ضجيجه. ولأول مرة منذ عشرين سنة تذكر ما حدث بالتفصيل، وكأنه يعيشه مرة اخرى» (ص ٣٤٦).

إن تلقائية الانتقال من الحاضر إلى الماضي التي برزت في الروايتين الاولى والثانية مفقودة هنا، فكأنها بالشكل العقلاني الصارم التي حلت به، تشير إلى عقلانية الكاتب التي بدأت تحكمه في المرحلة التي كتب فيها هذه الرواية.

النظرة العقلانية ذاتها، تظل تحكمه في التعامل أيضاً مع المكان، المدينة التي عاد اليها بعد هزيمة فأنكرته، والبيت الذي عاد إليه بلا انتصار فانكره. ليكتشف بأن الوطن هو، بالنسبة لجيل ابنه «خالد» ليس مجرد ذاكرة ولا هو مجموعة الأشياء الصغيرة والاماكن المتعددة، بل هو شيء أكبر من ذلك، شيء جدير بالشهادة.

– «لقد أخطأنا حين اعتبرنا أن الوطن هو الماضي فقط، أما خالد فالوطن عنده هو المستقبل» (ص ٤١٢).

– «... التاريخ ليس كذلك، ونحن حين جئنا هنا كنا نعاكسه، وكذلك، اعترف لك، حين تركنا حيفا، إلا أن ذلك كله شيء مؤقت» (ص ٤١٣).

تلك نماذج اخرى من النظرة العقلانية لرؤية شكل من أشكال علاقات الزمان والمكان، تتقدم الينا، مرة اخرى، بصورة ذهنية مفرطة.

وفي رواية «العاشق»، محاولة لم تكتمل لاعادة فوضى العلاقة مع الزمان والمكان، فالزمن لا ينمو بمساره فحسب، بل أيضاً في ارتداداته التلقائية في وعي شخوص الرواية. أما المكان الروائي فهو متحرك مع حركة الشخصية المحورية.

فالزمن الروائي هنا، هو زمن الفلسطيني على أرضه، زمن مواجهة الاستعمار البريطاني. والمكان هو فلسطين قبل أن تتحول إلى ذكرى.

ومع أن الرواية لا تحدد زمانها، إلا أننا نلمسه ونحسه. وهي لا تتعامل مع المكان كذكرى، وإنما كواقع ملموس لا يسقط في الماضي... مع انه يتحدث عن لحظة ماضية.

وثمة، في هذه الرواية، تفصيل يشير إلى علاقة الانسان بالزمن في لحظة مشخصة،

وهو ما يمكن أن نسميه «نسبية الاحساس بالزمن». فعندما يفاجأ «قاسم» المطارد بعدوه «الكابتن بلاك» أمامه، يتحول لديه الاحساس بالزمن فجأة، وتتضخم اللحظة في داخله وتمتد، فيعبر عن هذا الاحساس الداخلي «إن الزمن خديعة. اصطلاح واحتيال وإلا لما كانت تلك اللحظة الواحدة أطول من أية لحظة غيرها ولما كان بوسع ذلك الزحام من الاوهام والحقائق والمشاعر، برعبها وتوقها وتحفزها وأملها ويأسها في آن واحد، أن تتسع له لحظة واحدة كانت في الوقت ذاته، للآخرين، مثل اللحظة التي سبقتها والتي ستلحق بها» (ص ٤٤٢).

ويغيب التحديد الزمني في «الأعمى والأطرش» لكن الايماءات تمنح الزمن الروائي ومكانه بعض الملامح، فالمكان لم يتحدد، ولكنه ليس مكان الفلسطيني... إنه مكان ما من المنفى. أما الزمان، فإن اشارات مثل: اكياس الطحين، وكالة الغوث... تعطي ايحاء به. لكن الزمن في الرواية لا يتوقف عند تلك الحقبة، ولكنه يمتد ليشهد بدايات الزمن الفلسطيني الجديد.. زمن انطلاقة السجين الفلسطيني من سجنه وتحوله الى ثائر. انه زمن تحقق الاحلام التي ما كان لها ان تتحقق إلا بمرور الزمن.. «انها الولادة. ان الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء الا الاحلام الكبيرة، والمسألة مسألة وقت ليس غير» (ص ٤٧٣).

وفي «برقوق نيسان»، محاولة اخرى، تتحدث عن زمن الاحتلال فوق الأرض المحتلة. ولا يرتد الزمن هنا عن سياق الحدث وضمنه، بل من خلال الهوامش الموازية التي تمنح للحاضر عمقه في جذور الماضي. فلا يكتفي الكاتب بتقديم شخصياته وأحداثه كما هي واقعة الآن، ولكنه يغني الأحداث والشخصيات بالماضي والتفاصيل.

■ ■ ■

**البطل المقاوم... غائباً وحاضراً**

تتحرك شخصيات غسان كنفاني الروائية في فضاء تاريخي متغير، هو التاريخ الفلسطيني، في هبوطه وصعوده، وفي رتابته وانعطافاته.

وطوال هذا التاريخ، ظل البطل الفلسطيني المقاوم حاضراً. وحتى في الزمن الذي كان يشهد غياب البطل عن أرض الواقع، ظلت فيه نماذج البطل المقاوم حاضرة في وعي وذاكرة الناس.

ففي «رجال في الشمس»، لم يكن التاريخ قادراً على أن يقدم بطله المقاوم، فظلت البطولة غائبة حتى النهاية. لكن صورة البطل لم تكن تغيب عن الذاكرة..

البطل الغائب، الحاضر في الذاكرة، في هذه الرواية، هو الاستاذ «سليم» (الذي يطل علينا من ذاكرة «أبو قيس»)، ذلك العجوز الأشيب، المدرس القديم في القرية، الذي لم يكن يعرف كيف يصلي لكنه كان يجيد اطلاق الرصاص، فسقط برصاص العدو وهو يدافع عن القرية قبل سقوطها عام ١٩٤٨ «ولكنك على أي حال بقيت هناك... بقيت هناك! وفرت على نفسك الذل والمسكنة وانقذت شيخوختك من العار... يا رحمة الله عليك يا

استاذ سليم... ترى لو عشت، لو أغرقك الفقر كما أغرقني... أكنت تفعل ما أفعل الآن؟ أكنت تقبل أن تحمل سنيك كلها على كتفيك وتهرب عبر الصحراء إلى الكويت كي تجد لقمة خبز؟» (ص ٤٣).

إن حضور البطل الغائب في الذاكرة، هو استحضار للحظة مشرقة من لحظات الماضي، لا تقف كمجرد نقيض للحاضر، ولا تتوقف عند ادانته، وانما تتجاوز ذلك إلى تقديم بديل له... بديل لا يأتي من العدم، وإنما من جذور تجد امتداداتها في تاريخ ووعي وذاكرة الشعب.

وفي زمن روائي آخر، يطلع بطل آخر، لكنه يظل ايضاً غائباً عن الواقع وحاضراً في الذاكرة. ففي «ما تبقى لكم»، البطل الغائب هو «سالم» الذي يطل علينا من ذاكرة «حامد» الهارب في الصحراء، الفاقد البطولة، والباحث عن الام الغائبة.

«سالم» هو نموذج للبطولة في زمن آخر، بطل الحرب الثانية عام ١٩٥٦ أثناء احتلال غزة للمرة الاولى في ذلك العام، وهو شهيد تلك المرحلة...

لقد قتلوا «سالم» لأنه كان بطلاً مقاوماً، أما «حامد» فلماذا يقتلونه! هكذا تقول «مريم» وهي تحاول طمأنة أخيها على حياته، فيظل هذا القول يقرصه بشدة «... وأغلب الظن أنها كانت تريد ان تطمئنني ولم تعرف ابداً انها حمّلتني ذلاً جديداً، لماذا يقتلونك انت؟ تافه آخر لا بأس من ان يكمل حياته تافهاً ويموت تافهاً، يموت رخيصاً ها هنا...» (ص ٢٠١ – ٢٠٢).

لكن البطل الغائب، يبدو عاملاً محركاً نحو الفعل، فادانة الذات على استنكافها هي الخطوة الاولى للحركة الجديدة.

إن هذا النموذج البطولي الغائب، الكامن في وعي وذاكرة الشخصية الروائية الحاضرة (حامد)، لا ينفي بطولة تلك الشخصية، وانما يفصح عن طاقاتها الكامنة التي تنتظر لحظة تفجيرها.

وإن ظلت البطولة كامنة حتى الموت في الرواية الاولى، فانتهى «ابو قيس» ورفاقه إلى الموت قبل أن نشهد تفجر طاقات البطولة في داخلهم. فهي في الرواية الثانية تشهد البدايات الاولى لتفجرها في داخل الشخصيات الروائية المتحركة، عندما يرتفع الخنجر في يدٍ ليواجه عدو، ويغمد خنجر آخر في جسد عدو آخر.

إنها بدايات الفعل، ترهص بها الرواية، وتستشرف تاريخاً آخر قادماً. تظل فيه البطولة حاضرة على أرض الواقع.

ومع «أم سعد»، وفي زمنها، تتجلى البطولة حاضرة بكثافة، لتتحقق الارهاصات التي أشارت إليها الرواية السابقة. وهنا، يستمد البطل المقاوم زخم طاقته من جسد الواقع

المتغير، من الشرط التاريخي الجديد الذي أعلن صعود الانسان الفلسطيني ثائراً. وفي هذا الشرط تجد طاقات البطولة الكامنة مناخاً ملائماً للتفجر.

و«أم سعد»، كيان فردي، ولكنه يحمل في داخله عمومية جماعية تعبر عن الحالة الشعبية العامة في الزمن الفلسطيني الجديد.

انها امرأة في الاربعين، لا تحمل السلاح لتقاتل، وانما تنتدب قطعة من كبدها، ابنها سعد، للقتال. لكنها لا تتوقف عند هذه النقطة، بل تنطلق متحركة لتقاتل واقعاً تعيشه، فتتصدى للمختار المتواطىء مع الماضي، وترفع القطع المعدنية الحادة التي القت بها الطائرات الاسرائيلية في طريق مطار بيروت، وتواجه بطش الطبيعة التي تفتك بالضعفاء. إنها تتحسس قضايا وهموم شعبها، وتحتفل بانعطافة التاريخ لصالح حركته، وتجاهد بطاقتها لتعزيز متغيراته نحو القطب الموجب.

انها دائمة الانتصاب، مثل الصارية، حاملة وعيها وحسها الشعبي البسيط، تُعلِّم وتتعلم. فالكاتب يعلن. «كنت انتظرها لأتعلم شيئاً» (ص ٢٤٥)، «علمتني طويلاً كيف يجترح المنفي مفرداته وكيف ينزلها في حياته كما تنزل شفرة المحراث في الأرض» (ص ٢٧٨).

حضور «ام سعد» هو حضور (البطل / الشعب)، وهنا لا يطل البطل المقاوم الغائب «فضل» من ذاكرتها كحالة رومانسية مفقودة، وإنما كحالة ذهنية تقدم من خلالها تلك المرأة درساً تعلمته ببساطة، حينما أشارت أن «عبد المولى» (القيادة العشائرية المتواطئة مع سلطات الاحتلال) هو الذي قتل «فضل»، وهي لا تريد لمثل ذلك التاريخ أن يكرر نفسه.

أما البطل المقاوم الحاضر، فيمثل «سعد» نموذجه القائم، الفدائي الذي انطلق من جديد حاملاً سلاحه، والذي تجاوز اللحظة التي وقف فيها «حامد» «ما تبقى لكم» رافعاً خنجره بنصله الحاد المتوهج في وجه عدوه. فكأنما «سعد» جاء لكي يغرس النصل في جسد العدو.

يؤكد غسان كنفاني ذلك بقوله، انه كتب رواية «ما تبقى لكم» قبل انطلاقه المقاومة الفلسطينية «...وكان من الخطأ، فنياً على الأقل، أن يفعل «حامد» أكثر مما فعل. كان توقعاً، وقد جعل «سعد»، بعد ذلك بثلاثة أعوام، هذا التوقع واقعاً»(١٨).

في زمن الحدث الروائي، تستبق «عائد إلى حيفا» الرواية السابقة، فزمنها هو اليوم الأخير من شهر حزيران ١٩٦٧؛ حيث ما زال الاحساس بالجرح الجديد حاراً، والبطولة تبدو غائبة. لكنه الغياب الذي يعني الموت ولا يعني الانتفاء.

.. نحن هنا أمام انعطافة تاريخية جديدة في حياة الفلسطيني، شهدت ، فيما بعد، زيادة فعالية المقاومة الفلسطينية. انه الزمن الفاصل بين ارتفاع السكين الذي حققه

«حامد» «ما تبقى لكم» وبين ارتفاع مستوى الفعل الذي حققه «سعد» ورفاقه «ام سعد». انه زمن «خالد»، ابن سعيد س الذي يطمح في الانضمام إلى المقاومة.

البطل الغائب في هذه الرواية هو «بدر اللبدة» الذي كان أول من حمل السلاح في منطقة العجمي عام ١٩٤٧، والذي استشهد بعد ذلك بعدة شهور، فظلت صورته معلقة على حائط بيته بعد رحيل أهله عنه. وعلاقة شقيقه «فارس اللبدة» بصورة الشهيد، تبدو في البداية علاقة رومانسية... استعادة وهمية للبطولة الغائبة. فقد جاء هو الآخر إلى يافا من رام الله بعد احتلالها ليستعيد صورة أخيه، لكنه لم يأخذها، لانه اكتشف فيها فعلاً أكثر من علاقته الرومانسية بها. اكتشف انها جسر يربط بين الماضي والحاضر، وبين الفلسطيني الذي ظل على أرضه والآخر الذي في منفاه. عاد فارس إلى رام الله بدون الصورة، وهو «يحمل السلاح الآن» (ص ٣٩٣). فها هو البطل الغائب، يربط أيضاً جسراً بين الماضي والمستقبل.

اما سعيد س. الذي ما كان في يوم من الايام بطلاً، فانه يشهد اللحظة التي تُفَجِّر فيه البطولة. لا يحمل السلاح، ولكنه يأمل في ان يكون ابنه «خالد» قد حقق قراره، فينتهي الى القول: «ارجو ان يكون خالد قد ذهب... اثناء غيابنا» (ص ٤١٤).

ولعل بطل رواية «العاشق»، هو طموح غسان كنفاني في رسم ملامح البطل الملحمي في التاريخ الفلسطيني. وربما، لو قيض لهذه الرواية أن تنتهي، لاستطاعت أن ترسم بطلاً متميزاً، لا يكتسب تميزه من تفرده، وانما من قدرته على أن يتمثل بطولة امة.

ورغم عدم الاكتمال، إلا اننا نستطيع أن نميز بعض ملامح هذا البطل التاريخي الذي،رغم وجوده غائباً في الماضي، لا يطل علينا من ذاكرة فردية، وانما هو نسيج الذاكرة الجماعية للشعب التي تكسبه حضوراً يطغى على غيابه بين صفحات الماضي.

انه نموذج (البطل / الجماعة)، فهو لا ينعم بفرديته لحظة، حتى في أشد الأشياء فردية وخصوصية، اسمه. فلا ندري ما اسمه، لأننا عرفناه بأسماء والقاب كثيرة دون أن ندري أيا منها هو الاصل (قاسم، عبد الكريم، السجين ٣٦٢، العاشق، حسنين) فهو التعبير عن هؤلاء كلهم، وعن غيرهم، لأنه يمتص في داخله بطولة شعب بأسره ويعبر عن كوامنه.

يجيء حضور هذا البطل، منذ البداية، موسوماً بالغموض والسرية، ومترافقاً مع الدهشة والتساؤل:

«في البدء لم يعرف أحد في الغبسية كيف جاء قاسم اليها وسكن فيها،دخلها ذات يوم كما تدخلها الريح القادمة من الجبل وصار لتوه شيئاً من أشيائها الصغيرة ولكنه ابداً لم يستطع أن يكون من ناسها...» (ص ٤٢١).

رجل غريب خاص، يثير الغرابة لدى الآخرين. يبتعد عن الناس لكنه لا يغترب عنهم، لأنه في وحدته أشد التصاقاً اليهم، وهو في ابتعاده عنهم يدفع ضريبة التصاقه الأكثر بقضيتهم التي يدافع عنها.

مثل أبطال الملاحم، يظل متميزاً، مدهشاً، وغريباً.. «انه نوع من الرجال ينبت فجأة أمامك فاذا بك غير قادر على نسيانه، وبدل أن يتجه مثل كل الناس إلى الأشياء، تتجه اليه الأشياء من تلقائها» (ص ٤٣٠ - ٤٣١).

وكأنه اسطورة؛ إذ يمشي على النار بأقدام هادئة وثابتة، فيثير الناس بمشيته الثابتة تلك فوق الجمر المشتعل مثلما تثيرهم اكوام القماش المتسخ الملفوفة حول قدميه. انه أمر لا يحدث إلا مع عاشق. هكذا يقولون. لكنه لم يكن إلا عاشقاً من نوع غريب.. ليس عشقاً لامرأة، وانما لقضية. هكذا نكتشف نحن.

إن الخيال الشعبي يبني هالة من مادة الاساطير حول هذه الشخصية، ولكن الاسطورة لا تصنع إلا بطل الوهم. أما «العاشق» الذي يضعه الكاتب أمامنا، فهو البطل الذي انجبه الواقع وجعل منه بطلاً حقيقياً يختزل في نفسه بطولة شعب. فهو ليس محصلة الاساطير التي نسجت من حوله، وانما هو البطل الذي تكوّن من محصلة تجاربه؛ فالانسان «لا يمكن ان يكون إلا محصلة تجاربه» (ص ٤٣٦)، فهو في النهاية النقيض الثوري للبطل الاسطوري.

وتغيب البطولة عن الواقع والذاكرة في الأجزاء الاولى من رواية «الأعمى والأطرش»؛ إذ يكون الوهم هو البطل الوحيد الذي يسيطر على شخصيتي الرواية الأساسيتين، الأعمى «عامر» والأطرش «ابو قيس»، اللذين يبحثان عن مخلص لهما من عاهتيهما، فلا يجدانه إلا في الوهم، باحدى رموزه المادية على الأرض... قبور الأولياء.

وعندما يكتشفان أن ضريح الولي الذي يتوسلان منه الخلاص ليس الا مجرد وهم، يقرران هدمه للتخلص منه. لكن مجرد وعي الوهم لا يحقق البطولة، لأن الوعي لديهما لم يتمكن من الالتحام بالفعل والممارسة، وغياب الوهم، وجده، لا يجترح المعجزات... فلا بد من بديل عن الوهم. «تصبح الامور عسيرة حين يموت الأولياء، تنهار جسور الوهم وتتعفن الوعود ويتعين عليك أن تحمل قدرك» (ص ٥٢٣). فما الذي يفعله موت الولي سوى تحقيق انتصار صغير يفقد نضارته مع الأيام!

ولا يتحقق ظهور البطل المقاوم، نقيض تلك البطولة الوهمية التي تظل تدور في أحلام أصحابها، إلا باطلالة والد الصبي «حمدان» الرجل الذي حمل السلاح منذ سنوات طويلة، فذاق أهوال السجون لسنوات طوال، ثم خرج منها متغيراً وشاهداً على الزمن الذي تغير.

وهنا، لا يكتفي غسان كنفاني بتقديم «الفدائي» كنموذج مناقض للوهم يحمل السلاح، وإنما يغدق باسقاطه الايديولوجية ليعطي من خلالها مفهومه السياسي للبطل الجديد. فالبطل الذي يحمل السلاح المجرد ليس هو البطل المطلق، فهذا، وحسب تعبير بطله «ـه»، «من جماعة الطق طق» المهووسين بالندقية وحدها، وبمظهرية البطولة، ولا يعرفون شيئاً في السياسة. ويقدم نمطاً على ذلك «مصطفى»، الذي لبس الملابس المرقطة ومشى متباهياً بسلاحه، وظل من اشد المدافعين عن أوهام الولي.

أما البطل المقاوم لديه، فهو والد حمدان، الذي علّمه السجين كيف يزاوج بين الوعي والممارسة، وبين السياسة والبندقية.

وها هنا، مرة اخرى، يتدخل وعي الكاتب فجأً في وضوحه، ليجهز على كل ما تبقى من بساطة وتلقائية، ليتقدم بمقولة سياسية في قالبها المحدد، ويقحم الشخصيات لا ككيانات انسانية تنبض بالمشاعر، وانما كمرادفات ذهنية لافكار ومعاني سياسية تخدم رؤية الكاتب السياسية، بينما هي، في الوقت ذاته، تجهز على رؤياه الفنية. فالبطولة هنا نمطية، خادمة طيعة للفكرة المقحمة، وليست نابعة تلقائياً من كيان الشخصية.

ويعود الكاتب في «برقوق نيسان» إلى البطل المقاوم، وإلى البطولة التي تنبت فجأة، وتلقائياً، في لحظة محددة، عند أشد الناس ضعفاً. وهنا، يقف وعي الكاتب نفسه في الهوامش الموازية لسياق الحدث، فلا يخل به باقتحاماته الفكرية المباشرة.

فعلى صغرها، تزخر الرواية بنماذج البطولة، فثمة احتلال يرزح فوق الأرض، وثمة شعب يواجه الاحتلال. وفي هكذا ظروف تتفجر البطولة الكامنة في اعماق الشعب، ببساطة ودونما ادعاءات ايديولوجية.

وإذا كان «قاسم» هو النموذج وشهيد المرحلة الجديدة، فان «سعاد» و «طلال» هما من نماذج اخرى ما زالت على الأرض تواصل الطريق. فقد أزف زمن البطل الحاضر ابداً.

وفي هذا الزمن، تنبعث البطولة في أعماق الرجل الهرم «ابو القاسم»، لأن اللحظة تستنطق البطولة الكامنة فيه وتفجرها بطاقة من دم الشباب. وفي هذه الظروف أيضاً، يتوفر المناخ الذي يلغي شروط الاستنكاف، فالبطولة الكامنة في أعماق «زياد حسين»، الشيوعي القديم الذي غادر الحزب في زمن اشتدت عليه المصاعب، تعود الآن لتجد في اللحظة تفجيراتها من جديد... فتتفجر بطاقة من دم الماضي لتشارك الآخرين زمن المواجهة الحارة الذي يعيشونه.

فلم يعد منذ الآن مجالاً للبطل الغائب، لأن الزمن أصبح زمن البطل الحاضر أبداً.

■ ■ ■

### المغامرة وتعدد الأشكال

تشكل كل رواية أضافها غسان كنفاني، اكتملت أو لم تكتمل، في حد ذاتها، مغامرة متفردة ومستجدة في شكلها ومضمونها المتجادلين.

ورغم بعض التشابه التقني الذي يجمع بين رواية واخرى، إلا أن ذلك لا يعني تكرار ذات الشكل، فكل رواية تضيف عناصر جديدة تميزها عن سابقتها رغم التقائهما في نقاط كثيرة. وسوف نلحظ ذلك بوضوح بين «رجال في الشمس» و «ما تبقى لكم»، كما سنلحظه بين «ام سعد» و«عائد إلى حيفا».

إذن، فليست هناك تقنية موحدة، ولا شكل موحد يجمع بين أعمال غسان كنفاني الروائية. فان ارتاح الكاتب إلى شكل فهو لا يكرره إلا ليطوره، ولا يطوره إلا ليقفز إلى شكل آخر جديد قد يتجاوز سابقه أو يرتد عنه، لكنه يظل يحتفظ بجدته، وبقدرته على الاستجابة للمضمون الذي يطرحه الكاتب.

وهكذا، لم يتوقف غسان كنفاني عن المغامرة والتجريب للوصول إلى الأشكال التي تخدم مضامينه، دون أن يصل إلى شكل يستقر عليه. ولعل عظمة ما قدمه، في هذا المجال، تكمن في تلك المغامرة التي كان يخوضها دائماً بلا رهبة، فاعطت ذلك التعدد والتنوع.

في «رجال في الشمس»، يتكىء غسان كنفاني على معطيات الرواية السيكولوجية الغربية ويستفيد من انجازاتها، ليرسم حالة انسانية، سياسية واجتماعية واقتصادية، في زمن فلسطيني محدد.

تقوم الرواية على تعدد الأصوات، صوت الراوي، وأصوات أبطاله التي لا نسمعها إلا من الداخل.

فلكل شخصية من شخصيات الرواية لحظتها الراهنة التي يعبر عنها صوت الكاتب. ومن تلك اللحظة تمسك الشخصية الروائية بتفصيل يرتد بالذاكرة إلى الوراء لتوغل في الماضي، أو لتستدعي من الذاكرة لحظة اخرى مشابهة. وعملية الانتقال من الآني إلى الماضي تتم بتلقائية، بلا اشارة أو فواصل، لتوحي بالتداعي الذي يهدف إليه الكاتب، حيث يرتقي مستوى التعبير الفني وشكله الى مستوى عملية التداعي النفسي في حد ذاتها.

في الحوار الذي يدور بين «اسعد» والمهرب العراقي، نجد نموذجاً لتلك الحالة:

« – ستصل! ستصل

« – كيف؟

« – انني اقسم لك بشرفي أنك ستصل إلى الكويت!

« – أقسم لك بشرفي انني سألتقيك وراء الا تشفور! ما عليك إلا أن تدور حول تلك المنطقة الملعونة وستجدني بانتظارك» (ص ٥٨).

فالصوت الأخير لم يكن صوت أحد الرجلين، ولا هو جزء من الحوار بينهما، وانما هو صوت انبثق فجأة في وعي «أسعد» استدعته اللحظة الآنية المشابهة لتجربة ماضية مر بها وسمع فيها ذلك الصوت من رجل آخر.

بمثل تلك التلقائية، يقفز الماضي الى الحاضر فجأة أو يرتد الحاضر إلى الماضي. وفي مثل هذا الانتقال الفجائي، ترتد الشخصية إلى تاريخها الشخصي وتوغل فيه، ونوغل أكثر في التعرف عليها من خلال تدفق الذاكرة لديها. وهكذا ترتسم أمامنا

ثلاث شخصيات (أبو قيس، أسعد، مروان).. تتقدم كل منها الينا منفردة في الفصول الثلاثة الاولى للرواية.

يبدأ كل فصل من هذه الفصول الثلاثة من النقطة التي ينتهي اليها سابقه. فحيث ينتهي فصل «ابو قيس»، عند مغادرته مكتب الرجل السمين، المهرّب يبدأ فصل «اسعد» في نفس المكان. وكذلك، يبدأ فصل «مروان» من حيث انتهى فصل «أسعد».

لكن هذه الفصول التي بنيت على الشخصية المنفردة، تقود إلى الفصل الرابع «الصفقة»، الذي يجمع بين هذه الشخصيات جميعاً. وتطل فيه شخصية اخرى جديدة هي «ابو الخيزران».

« – لقد اجتمعت العصابة كلها الآن، أليس كذلك؟» (ص ٨٩).

وفي فصل «الطريق» الذي يسلكه الرجال الأربعة، تبدأ معاناة جديدة، وتأخذ الشخصية الجديدة، «أبوالخيزران» في التشكل أمامنا بملامحها الراهنة وابعادها، بنفس الطريقة التي تشكلت فيها الشخصيات الاخرى..

وبينما السيارة تمضي في فصل «الشمس والظل» فوق الأرض الملتهبة من حرارة الشمس، كانت الأصوات الأربعة ماضية في همومها، تتدفق بها بصمت. وكما انتفت الفواصل بين الماضي والحاضر في الصوت الواحد، فانها تنتفي بين هموم الصوت والصوت الآخر، إلا من هدير محرك السيارة المترافق معها واقعيا، لكنه، في الشكل الفني الذي جاء فيه (تكراره بصياغات مختلفة بين صوت وآخر – ص ١٣٠ – ١٣١) وضع ليقوم بدور الفاصلة، فساهم في اضعاف الايحاء بتوحد الاصوات كلها، بهمومها، في هم كبير واحد وجماعي تختلط فيه الألوان وتمتزج.

هذا الطريق، يقود الرجال الى فصلهم الأخير «القبر»، ذروة رحلتهم الواهمة. اما ذروة العمل الفني فكانت تلك الصرخة «لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان؟ لماذا؟ لماذا... لماذا» (ص ١٥٢).

وإن انتمت رواية «ما تبقى لكم» إلى ذات الاتجاه، إلا أنها تظل تحتفظ بتميزها، حيث تميل الى تقنية أكثر تركيباً وتعقيداً. فهي الاخرى تستفيد من الانجازات المتقدمة للرواية السيكولوجية (رواية تيار الوعي) وتوظف تلك الانجازات وتستثمرها بطريقة خلاقة، وبخاصة رواية وليم فوكنر «الصخب والعنف».

ولا ينفي غسان كنفاني تأثره برواية فوكنر[١٩]، ليس في اسلوبها وتقنيتها فحسب، وانما في بعض تفاصيلها (هموم الأخ لفقدان شرف الأخت، الساعة...).

ذلك لا ينقص من قيمة المغامرة التي خاضها الكاتب، ولا يقلل من أهمية الرواية وقدرتها على التعبير بشكل متقدم عن قضية نعيشها.

تقوم الرواية على ثلاثة أصوات (حامد، مريم، الصحراء)، وتتم بدفقة واحدة على

امتدادها، فلا يفصل بينها التقسيم التقليدي إلى فصول، فكأنها فصل واحد لاهث، تتقاطع فيه الأصوات وتندغم، ثم تعود لتتقاطع لتندغم من جديد.

ولا يحد من اندفاعة الدفقة وتشابك الأصوات واندغامها سوى فاصل شكلي تقني يعتمد على تغيير سمك الحرف (بين اسود وأبيض) ليعطي ايذاناً بالانتقال من صوت إلى آخر.

وفي التوضيح الذي يستبق الرواية، نلمس اشكالية الكاتب في هذا النوع من الكتابة، والتي وجد لها حلاً يستفيد من التجارب السابقة دون أن يكون مقتنعاً به ذاتياً، ولكنه لم يجد بديلاً له. يقول غسان كنفاني في توضيحه: «إن تغيير حجم الحرف ذاك يعرقل جزءاً هاماً من عملية الانتقال التي كان لا بد أن تحدث دون وعي ودون إشارة، وستبدو كأنها ترتيب مقصود لعالم غير مرتب في الحقيقة، ولكن تجارب سابقة من هذا النوع أثبتت أن مثل هذا العمل هو شيء لا مفر منه» (ص ١٥٩).

لا تتم التقاطعات هنا بين لحظة الوعي الآنية والماضي في ذات الشخصية فحسب، بل يقطع اندفاعة صوت الشخصية تدخل صوت آخر لشخصية اخرى عند نقطة محددة.

تداعيات الأصوات تلك، هي التي تشكل مبنى الرواية، وتقاطعها وتداخلها يعطي دفقتها الواحدة، في اختلاطها المكاني والزماني.

هكذا يتقاطع صوت «الصحراء» مع صوت «مريم»:

«**قال انه يطلب حبي لأنه ليس باستطاعته ان يكرهني**. ليس باستطاعتك ان تكرهني يا زكريا، ليس باستطاعتك ان تفعل ذلك» (ص ١٧٢).

فالصوت الأول، بالحرف الأسود، هو صوت «الصحراء» تتحدث عن «حامد» الذي تحتويه بفضاء مكانها. والصوت الثاني، بالأبيض، هو صوت «مريم» تتحدث إلى «زكريا» دون ان يقف معها في ذات المكان، والصوتان المتقاطعان (مريم والصحراء) يفصل بينهما المكان، لكن تداعيات اللغة «**ليس باستطاعته ان يكرهني**. ليس باستطاعتك ان تكرهني» تمهد لانعطافه السياق، وتصبح مدخلاً للصوت الآخر ونقطة تتقاطع عندها الأصوات.

مثل ذلك، نجده في تقاطع صوت «مريم» مع صوت حامد البعيد وكلمة «تبقّى» هي التي تمنح مثل هذا التداعي، وتكون نقطة التقاطع بين الصوتين.

«...**وتركني وانزلق فوق السلم ثم صفق الباب.. ما تبقى. ما تبقى لكم جميعاً**. فما الذي تبقى لنا وبيننا أيها الشبح الصامت الغاضب» (ص ٢١٨).

فالصوت الأول، بالأسود، هو صوت «مريم» تحكي عن «حامد» البعيد. والصوت الثاني، بالابيض، هو صوت «حامد» في «منولوغ» داخلي يخاطب الجندي الاسرائيلي الجالس أمامه.

وهكذا ايضاً يتقاطع صوت «الصحراء» مع صوت «حامد» القريب، ونقطة التقاطع هي صوت خطوات الأقدام.

«**أصوات خطوات ثقيلة تنسحب فوق الرمل الناعم وراء الهضبة تماماً**. لقد أخذت حواسي جميعاً تعمل دفعة واحدة. ومضيت اقيس أصوات الخطوات البعيدة» (ص ٢٠٤).

هذا التقاطع، يجد ذروته في النهاية، لحظة المواجهة التي تتم في آن واحد، رغم البعد المكاني؛ حيث يزداد التشابك والتوتر وفوضى الأصوات، فتسحب المواجهة توترها على الشكل، ويعبر الشكل المتوتر باخلاص عن توتر لحظة المواجهة وفوضاها.

في رواية «ام سعد» يتوسل غسان كنفاني شكلاً فنياً متقشفاً، أكثر بساطة، وأقل عناية بالمغامرة والتجريب، ليصل بيسر إلى أعرض قطاع يستطيع الوصول إليه. ففي لوحاتها التسع المنفصلة، لاحدث محورياً ينمو، وانما أحداث تتراكم وتتمحور حول الشخصية الروائية المحورية «ام سعد» لتغذيها وتنميها، فهي رواية الشخصية بالدرجة الاولى، وبناؤها يقترب أكثر من الشكل التسجيلي.

وإن حقق هذا التبسيط غاياته التعليمية والتحريضية، فقد كان ذلك على حساب الانجاز الفني الذي حقّقه الكاتب في روايتيه الاولى والثانية، رغم انهما حققتا بدورهما الغايات التعليمية والتحريضية بدرجة ارتفاع مستواهما الفني وليس بدرجة ارتفاع النبرة التعليمية والتحريضية فيهما.

فالكاتب، في الرواية، لا يمثل شخصية محايدة، وان بدا كذلك في الوهلة الاولى، ولكنه جزء منها، يعلم المرأة ويتعلم منها، ويُسقط على لسانها رؤياه السياسية الايديولوجية:

– «ذلك الناطور يتعقبني من قرنة إلى قرنة، يريدون ضربنا ببعضنا، نحن المشحّرين، كي يربحوا ليرتين» (ص ٣١٩).

– «حجاب؟ انني اعلقه منذ كان عمري عشر سنين، ظلنا فقراء، وظللنا نهترىء بالشغل، وتشردنا، وعشنا هنا عشرين سنة. حجاب؟ هناك اناس ينتفعون بالضحك على لحى الناس» (ص ٣٣٦).

ولا شك أن غسان كنفاني، بهذا الشكل المغرق في تقشفه، كان يخوض مغامرة اخرى، فلم يقتحمها إلا بعد أن خلف وراءه تركة كبيرة. وهو يقول في هذا الصدد: «طرحت جانباً ما كنت اعتقد انه انجاز فني ثمين حققته في «ما تبقى لكم» وحاولت أن اجعل من «ام سعد» كتاباً تقرأه الجماهير، ويكون صلة بين ما نتعلمه منها، وما يجب أن نعلمه لها»[٢٠].

وينطبق هذا القول، وان بدرجة أقل، على رواية «عائد إلى حيفا»؛ فهي تنتمي إلى نتاج ذات المرحلة التي شهدت صعوداً سياسياً، فاستجابت لمتطلبات السياسة من تعليم

وتحريض. انها رواية الحوار السياسي بالدرجة الاولى، وشخصياتها لا تنبض بقدر ما تمثل موقفاً سياسياً يعبر عنه مباشرة من خلال الحوار.

فالشخصيتان الأساسيتان في الرواية «سعيد.س» وابنه «خلدون» الذي أصبح «دوف»، هما قطبا الصراع، وكل منهما يمثل حالة فكرية وسياسية، يطمح الكاتب من خلالهما وعبر حوارهما للوصول إلى إجابات حول تساؤلات مطروحة: ما هي الابوة؟ ما هو الوطن؟ ما هي القضية؟

ولا يمثل «دوف» كياناً انسانياً، بقدر ما يتمثل كحالة ايديولوجية زائفة، وكـ «وعي» تشكل في هكذا مجتمع. يقول «سعيد.س» لزوجته « – أي لحم ودم تتحدثين عنهما؟ وأنت تقولين انه خيار عادل! لقد علموه عشرين سنة كيف يكون، يوماً يوماً، وساعة ساعة، مع الأكل والشرب والفراش...» (ص ٣٨٤).

مثل تلك الشخصيات، تلك الحالات الفكرية الصارمة، تجد عالمها في بنيان روائي صارم في عقلانية، وشديد الترتيب. فالأحداث تتسلسل بانتظام، فان تفجر اللاوعي بلحظات الماضي، تقفز عقلانية الرواية لتقمع تلقائيته بأن تشير بوضوح إلى حالة الانتقال تلك. أما الحوار الذهني فيبقى هو عصب الرواية الذي يريد الكاتب أن يصل من خلاله إلى ما يريد. وما يريد أن يوصلنا اليه، يضعه أمامنا بكل وضوح ومباشرة، حيث يتوصل «سعيد.س». إلى تقرير تلك الحقيقة التي يطمح الكاتب إلى ايصالها: «والآن أنا أكثر من يعرف أن الانسان هو قضية، وليس لحماً ودماً يتوارثه جيل وراء جيل مثلما يتبادل البائع والزبون معلبات اللحم المقدد» (ص ٤١٠)

وهكذا يخوض غسان كنفاني مغامرة اخرى متقشفة، تتقارب من الرواية السابقة لكنها لا تراوح إلى جانبها. بيد أنها تظل في النهاية عملاً يرتد، على المستوى الفني، عن انجازاته في روايتيه الاولى والثانية.

وتشكل «العاشق» بداية لم تكتمل لطموح غسان كنفاني الملحمي. ففيها يعود الكاتب إلى مواصلة المغامرة الصعبة، ويقتحم تجربة روائية أكثر تركيباً، وأقل عناية بالاطروحة السياسية أو الايديولوجية المباشرة.

هنا، نجد تطويراً اسلوبياً جديداً يستفيد من الأشكال السابقة التي اعتمدها الكاتب في روايتيه الاولى والثانية ويتجاوزها.

ورغم محورية الشخصية في هذه الرواية، إلا أن أصواتها متعددة. وتتناوب الشخصيات عملية القص مع الراوية نفسه ومع بعضها البعض، وتتداخل. وهنا يتخلى غسان كنفاني عن الفاصل الشكلي التقني، بتغيير سمك الحرف الذي اعتمده في رواية «ما تبقى لكم» لتمييز الانتقال من صوت إلى آخر، لكي يدع عملية الانتقال تجري بسلاسة وتلقائية أكثر، مع انها سوف تبدو للقارىء أكثر صعوبة وتحتاج منه إلى يقظة أكثر.

منذ الصفحة الثانية للرواية (ص ٤٢٢)، نلمس هذا التعدد والتداخل في الأصوات، فمن صوت الراوية (الكاتب) ندخل إلى صوت «الشيخ سلمان» الذي يتسلم عملية القص بضمير الأنا، ومنه ننتقل إلى صوت «قاسم» الذي يحكي بضمير الأنا أيضاً عن ذات اللحظة التي يتحدث عنها «الشيخ سلمان».. ثم نرجع مرة أخرى إلى صوت الأخير ليتابع حكايته..وهكذا. أما الفاصل بين الصوت والآخر فلا يتعدى النقطة أو، في الغالب، الانتقال إلى فقرة جديدة.

ولا تلتقي شخصيات الرواية في زمان ومكان محددين، فمعظمها تطل كشخصية راوية ثم لا تعود لتطل من جديد، ذلك لأن قدر الشخصية المحورية كان الهروب من مكان إلى آخر، فحيث يتنقل «العاشق» في زمانه ومكانه، تبرز شخصيات جديدة لتشكل صوتاً جديداً في الرواية، وكعلاقة مع الشخصية المحورية التي تثير حولها دائماً زوبعة من الدهشة والتساؤل.

وفي القسم السادس من الرواية، تبرز تعددية الأصوات بأكثر ما تكون. حيث تساهم في صياغته مجموعة من الأصوات بعضها نتعرف إليه للمرة الاولى، فهناك صوت «العاشق» الذي أصبح اسمه «حسنين»، وصوت «الحاج عباس»، ثم صوت «الرئيس»، وصوت «زينب». ومجموعة هذه الأصوات المتناوبة والمتداخلة هي التي تفصح عن علاقات الشخصيات الروائية بعضها ببعض، وعلى الأخص عن علاقتها بالعاشق وعلاقته بها. ومن خلالها يتنامى البناء الروائي.

يكاد هذا الشكل يقترب أكثر ما يكون من عملية «المونتاج» السينمائي، ويتجلى في القسم الرابع من الرواية.

تلعب عملية «المونتاج» في هذا القسم دوراً بالغاً لرسم مشهد محاولة القاء القبض على «العاشق». ولا يرتسم المشهد بصورة وصفية خارجية بصوت الكاتب، وانما من خلال التدفق الداخلي للشخصيتين داخل الموقف («العاشق» و«الضابط الانجليزي»). وهنا يلعب التقطيع والوصل المتوتر بين صوت وصوت / لقطة ولقطة الدور البارز في تشكيل المشهد الدرامي في أقصى حالات توتره.

يتم القطع والوصل هنا بين صوتين متوازيين، يتناوبان تقديم لقطات متوازية ومتنامية، حيث تضيف كل لقطة عناصر تفصيلية الى اللقطة السابقة التي صدرت عن الصوت الآخر. وهكذا نشهد تطوراً متوازياً للحدث ينمو من طرفين ويتصاعد. وبهروب «العاشق» نكون قد وصلنا الى تشكيل المشهد الذي قادتنا اليه مجموعة تلك اللقطات المتقاطعة والمتواصلة.

وتشكل «الأعمى والأطرش» محاولة كتابية جديدة لم يطرقها الكاتب من قبل، فهي رواية ذهنية تجهد في شقها الأول لاعطاء معادل ذهني لواقع نعيشه، وفي شقها الثاني تتضح معالم الواقع، لكن ذهنية الكاتب تُسقط عليه.

ويستجيب الشكل لتلك الازدواجية، فتتحرك الشخصية / الفكرة في عالم من الافكار وتعبر عنها بشكل يتناقض مع بساطتها ويتجاوز امكانياتها الذهنية الفعلية، مما يخل بها كشخصية انسانية بسيطة ويهدر إمكانيات نموها على هذا المستوى، إذ تضيع ملامحها الانسانية تحت وطأة ذلك العبء الكبير من الحمولة الفكرية التي ارهقها بها الكاتب. فهل تستطيع شخصية الأعمى، العامل في الفرن أن تحتمل مثل كل هذه الأفكار دون أن تفقد نفسها كشخصية انسانية بسيطة!... «الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء إلا الاحلام الكبيرة».. «المعجزة ليست اكثر من الجنين الغريب الذي ينمو في رحم اليأس» (ص ٤٧٣). ومثلها شخصية الأطرش، العامل في وكالة الغوث «الحقائق الكبيرة، كما يبدو، لا يحتاج مجيئها الى مناسبات» (٤٧٩)... «ليس اجن منك الا انا، نبحث في كوم الطين عن كنز مسروق، ورأس عبد العاطي يضحك علينا» (ص ٤٨٩).

تعتمد الرواية، في بداياتها، على توازي الصوتين ثم التقائهما. ففي القسم الأول من الرواية، يبرز صوت «الأعمى» وحيداً، وفي القسم الثاني يبرز صوت «الأطرش» وحيداً. لكن الصوتين المتوازيين يشهدان انحناءات تقربهما من بعضهما، فهمومهما مشتركة، وطريق بحثهما عن الخلاص مشتركة، ونقطة التقائهما عند ضريح الولي هي التي تشهد اندماجهما. ففي القسم الثالث من الرواية، يتوحد الصوتان في صوت واحد تلتحم فيه هموم ومعاناة الأعمى والأطرش معاً «انني أمد اليك يدي، أيها الشيخ التقي الميت، من قاع هذا الصمت (وقاع تلك القمة) التي لا يسبر غورها (...) مد لي يدك يا عبد العاطي، يا عاطي، وانتشلني من هذا الصمت (والظلام) (...) أصيح بين الجدران التي لا ترى في عالمي المعتم (الأصم) (...) أطلب الفكاك من أسر الصمت (والظلام)، اسألك يا ملك الصمت (والظلام)..» (ص ٤٨٥).

ويبدأ الشق الآخر من الرواية مع مطلع القسم الثالث عشر فيها. وهنا تتحول الرواية من الذهنية إلى الواقعية، ويميل شكلها واسلوبها إلى البساطة والوضوح، رغم انه يخلق تناقضاً وازدواجية في بنية العمل الفني.

ولا يدع الكاتب واقعية الرواية تأخذ مسارها، بل يجهضها بالاسقاطات الذهنية، السياسية والايديولوجية. ليجعل من الشخصية الجديدة التي برزت في هذا الواقع (والد حمدان، الفدائي المسيس) نقيضاً فكرياً للأوهام الايديولوجية التي يمثلها الولي «قال ان الأولياء مثل الافاعي التي في قصة الزير، اذا قطعت لها رأساً طلعت مكانه سبعة رؤوس (...) المهم اذا هدمت قبر الولي فعليك ان تقلعه من شروشه، وان لا تسمح لولي آخر بأن يأتي من وراء ظهرك...» (ص ٥٦٩، ٥٧٠). وهذه الشخصية، في الوقت نفسه، نقيض لشخصية اخرى تمثل حالة فكرية تكرس الوهم، فشخصية «مصطفى» هي ذلك النمط من الوهم الايديولوجي.. ولكن بملابس مرقطة.

وإن اعتمدت «برقوق نيسان» على الحدث المحدد زمانياً ومكانياً في رقعة صغيرة، فان شكلها الجديد الذي يلجأ اليه غسان كنفاني، للمرة الاولى، يكمن في تعميق الحدث الآني بالتشعبات من خلال الهوامش الموازية له.

فتداركاً للاخلال بكثافة اللحظة التي يرصدها الكاتب والاخلال باللغة الشاعرية التي تميزها، فانه يلجأ إلى تسجيل التاريخ الشخصي لابطاله بعيداً عن السياق، في الهوامش التي تقوم بهذه المهمة، وبلغة تتميز غالباً بالتقريرية.

هكذا نتعرف على شخصيات الرواية بعمق تاريخها الشخصي، «ابو القاسم» و«قاسم» و«طلال» و«سعاد» و «زياد» والجندي الاسرائيلي «ابراهام». ولا يشكل تاريخ الشخصية مجرد تاريخ فردي يعمق معرفتنا بالشخصية فحسب، بل بالتاريخ العام، الفلسطيني خاصة، في مراحل معينة. وهنا لا يسقط الكاتب وعيه على ابطاله في داخل السياق، وانما يقدمه كوعي مستقل، اذا افترضنا أن للهوامش استقلاليتها النسبية، من حيث كونها تتحدث بوعي الكاتب نفسه وهو يحكي عن أبطاله من مسافة تبتعد عن لحظة الحدث وزمانه وسياقه. وان انقذ هذا الشكل الحدث الأساسي من الوقوع في المباشرة والاسقاط السياسي، فان الهوامش لم تنقذ الرواية من ذلك، فشكلت تحايلاً فنياً يخدم السياسة «.. وساقتها هذه الدراسة إلى القاء نظرة دراسية على الحزب الشيوعي، وعلى بنية حركة القوميين العرب التي شعرت آنذاك أنها آخذة بالتمزق تحت وطأة صراع سياسي حاد في صفوفها لم يكن من الممكن الحفاظ مع حدته على الوحدة التنظيمية للحركة لو لم تكن مشدودة إلى قانون صارم للعلاقات الداخلية، ولم يكن من الممكن معرفة ماذا كان سيحث لسعاد ولحماسها السياسي لو لم يصعد حزب البعث في تلك الآونة إلى مرتبة السلطة، وقد كان لسعاد آراء غامضة، ولكنها بالغة التأثير، بالتغير الذي يطرأ على الأحزاب السياسية عموماً، وذات البرامج الفضفاضة والغامضة خصوصاً، حين تهيمن على دفة السلطة..» (هامش ص ٥٨٦)

لكن لغة الهوامش تبتعد عن التقريرية السردية والسياسية، إذ تقوم بمهمات فنية أكثر عفوية، كالاستدراك.. «في الواقع انه يشعر الآن انه أكبر سناً مما هو حقاً..» (هامش ص٥٨٥). أو اضافة تفصيل صغير لسياق الحدث الأساسي.. «دخلت البيت، وانتزعت الزهرة الحمراء من شعرها وهي تقول له: البرقوق ورد الفقراء يا أبا القاسم..» (هامش ص ٥٨٩)

هذه الهوامش، التأريخية والاستدراكية والتفصيلية، هي التي تمنح العمل بعده الروائي، ودونها يظل هذا العمل قصة قصيرة، جميلة.. وشاعرية.

■ ■ ■

**الرمز.. في المبنى والتفاصيل**

في بحثه عن المبنى الرمزي في أعمال غسان كنفاني الروائية، توقف الدكتور احسان عباس عند رواية «رجال في الشمس» في محاولة لقراءة جديدة تتلمس البعد الرمزي فيها، فانتهى من قراءته إلى التأكيد على أن «سطوع الواقع في قصة غسان هذه، وجبروت ذلك الواقع كما كان مستمراً في حياة الفلسطينين جميعاً، كان يضائل من قيمة الرمز، وان

كانت القراءة الرمزية نفسها تمنح ذلك الواقع عمقاً آخر، وتجعل ما فيه من بشاعة قضية مفلسفة معللة»[٢١].

إن هذه الرواية، تظل تحمل في داخلها ذلك التزاوج الفذ بين الواقع والرمز معاً دون ان يؤثر تغييب احدهما على الرواية عند قراءتها من جانب واحد. فهي ترصد واقعاً معاشاً باحداثه وشخصياته وزمانه واشيائه، وتظل، في الوقت نفسه، قابلة لمنح دلالات رمزية لتلك الأحداث والشخصيات.

في ذلك تتجلى عبقرية الرواية، من امكانية قراءتها من زاوية واحدة، زاوية الواقعية أو زاوية الرمز، أو من الزاويتين في اندماجهما وتشابكهما معاً. رغم أن غسان كان يطمح إلى ايصال الجانب الرمزي في الرواية، فيؤكد انها إذا «...كانت قد عجزت عن نقل هذه الناحية (أي البعد الرمزي) فاني أعد نفسي مخفقاً»[٢٢].

مثل هذا الاقرار من قبل الكاتب نفسه، يبيح للدارس والناقد البحث عن المعنى الرمزي للرواية ودلالات الأحداث والشخصيات والأشياء فيها، والذي يصل أحياناً إلى حدود الاسقاط الذاتي والمغالاة في القراءة الرمزية للرواية.

وفي سياق هذا البحث الذي يغالي في النزعة الرمزية، يكون الهاجس الوحيد هو ايجاد معادل واقعي للرمز، أو البحث عن معادل رمزي للأحداث والشخصيات الواقعية في الرواية. فتصبح كل الشخصيات والتفاصيل رموزاً لا تكتفي بنقل الواقع أو تقديم ايحاءات رمزية عنه، وانما تغرق في ايجاد المعادل الذي يتطابق هندسياً معه.

ويحاول فضل النقيب أن ينفي رمزية الرواية بتأكيده أن سرها لم يكن في أن فيها رمزية «تلخص القضية كلها، وأن سائق السيارة الذي كان مهتماً بالمغامرة الجنسية، وهو عاجز جنسياً، يرمز للجيوش العربية التي كانت متهمة بشهوة الحرب وافتراس اسرائيل وهي عاجزة حربياً. هذه رمزية مبتذلة لا تعجب أحداً. الحقائق التي يعرفها كل الناس لا تثير اهتمامهم عندما تطل عليهم من جديد بقناع الرمزية...»[٢٣].

لكن مثل هذا النفي الذي أعطى، في البداية، معادلاً رمزياً لتلك الشخصية، «أبو الخيزران»، لكي ينزعه عنها في النهاية، كان مرتبكاً ومربكاً، إذ أوقع ناقداً مثل الدكتور احسان عباس في فهم يغالط القصد، حيث تمسك بفهم أن فضل النقيب«...يرى في «أبو الخيزران» رمزاً للجيوش العربية»[٢٤]. دون أن يستوعب أن النقيب خلق المعادل الرمزي لا لشيء سوى لكي ينفيه.

ولا يختلف الدكتور احسان عباس في مسألة رؤية «ابو الخيزران» كرمز، لكنه يختلف في معناه، إذ يراه «رمزاً للقيادة الفلسطينية في بعض الظروف التي مرت بها القضية» [٢٥].

وتجمع الدكتورة رضوى عاشور بين كلتا الرؤيتين، التي صاغها ونفاها فضل النقيب، والتي اعتقدها احسان عباس، لتقرر بأن أبا الخيزران هو «... رمز لقيادة

الشعب الفلسطيني التي قصّرت أثناء النكبة وبعدها مباشرة في الاضطلاع بدورها. وقد تكون الاشارة هنا أيضاً للقيادات العربية، الملوك والرؤساء العرب ابان فترة ١٩٤٨»[٢٦]. لكنها تعود لتؤكد بأن ثراء تلك الشخصية يستعصي على اختزالها إلى مجرد اشارة سياسية محددة في معناها. فيتأكد حضور تلك الشخصية بواقعيتها التي هي أغنى من كل رمز يمكن اسقاطه عليها أو اقحامه من خلالها.

وتتسع دائرة الاجتهاد لتتسع معها دائرة رؤية الرمز في تفاصيل الرواية: الصهريج، الشمس، الصحراء، الجرذان، الموت. وكلها أشياء قابلة في حد ذاتها لتشكيل عناصر رمزية تنسجم في مبنى رمزي عام اذا ما نظر الى الرواية من هذه الزاوية.

وفي محاولته آنفة الذكر، يعتقد الدكتور احسان عباس بأن محاولات غسان كنفاني في المبنى الرمزي لم تتكرر في أعماله اللاحقة باستثناء رواية «ما تبقى لكم»[٢٧].

ولعل البناء الفني لهذه الرواية، باختلاطه وتشابكه، يعطي للباحث عن الدلالات الرمزية مجالاً أوسع في عملية البحث، ويساهم بدفعه إلى ذلك حالة التغريب التي لجأ اليها الكاتب حين جعل من الصحراء والساعة شخصيات مؤنسنة ناطقة أو فاعلة، بحيث تتعدى دلالتهما مجرد الاشارة إلى الزمان والمكان الروائيين.

فالصحراء ليست مجرد مكان للحدث الروائي فحسب، ولكنها بنبضها واحاسيسها وتعاطفها ونطقها، تكتسب بعداً رمزياً يتخطى مجرد الدلالة المكانية لأية صحراء اخرى. ورؤيتها كذلك، لا تفترض البحث عن معادل موضوعي احادي المعنى يوضع مقابلاً لها، لأن ذلك سوف يقضي على الكثير من الايحاءات الرمزية الثرية التي تنطق بها هذه الصحراء وتمثلها، والتي لا يمكن اختزالها في كلمة أو كلمات تختصر امتدادها وثراءها.

ولا تمثل الساعة شخصية ناطقة في الرواية، لكنها تظل فاعلة وثرية في دلالالتها الرمزية، تستعصي على الاختزال أو الاكتفاء بمعادل واحد لها. كالزمن، أو المستقبل، أو الموت، أو الانبعاث، أو الجدب.. الخ، لأنها تحمل كل هذه الدلالات وما هو أكثر منها. لكن سحر فعلها يكمن في كونها تظل قادرة على أن تمنح من دلالاتها الكثير لأعماق الشخصيات الانسانية في الرواية.

وتغيب الام كشخصية حاضرة وانسانية لتمثل رمزاً أكثر وضوحاً ومحدودية... انها وهم الخلاص، الذي يتكرر بايقاع رتيب خلال رحلة البحث عن الخلاص «لو كانت امي هنا... لو كانت امي هنا» (ص ١٦٩).. «لو كانت أمي هنا لكان لجأ اليها، للجأت اليها أنا» (ص ١٧١).

وتتواجد التفاصيل الرمزية في كل الأعمال الروائية اللاحقة للكاتب، حتى في أشدها واقعية. ففي «ام سعد» تحمل الدالية دلالة رمزية ايحائية عن الواقع الذي ترسم

افقه الرواية.. انها البراعم الخضراء التي انبثقت من العرق اليابس حين ضربت جذوره في عمق الأرض فاستمد نماءه منها.

فالدالية هي رمز النماء والامتداد الأخضر الذي يتماهى مع نماء الواقع الفلسطيني الجديد والطاقة الفلسطينية التي انبثقت من جفاف التاريخ فانطلقت قوة متفتحة قادرة على العطاء وضاربة جذورها في رحم الارض لتستمد منها قوتها.

انها الخيط الرمزي الذي يشد الأطراف الواقعية للرواية، والذي بدونه يفقد العمل عنصراً من أهم عناصره.

ونمو الدالية يتم بصورة لا مرئية، لا نحسها ولانشعر بها ونحن نتابع تنامي الواقع على امتداد الرواية. انها تنمو في ظل قانون التراكم الكمي، الذي تبدو كل اضافة فيه خفية، حتى نشهد التحول الكيفي في تفجر البراعم في الكلمات الأخيرة للرواية. وهكذا، تقدم الدالية دلالتها الرمزية بمحاذاة نموها مع نمو الواقع بتراكماته التي ادت إلى بروز تلك الكيفية التحولية الجديدة في الفعل الثوري الفلسطيني. وأما امتداد الدالية الذي لم تشهد عليه الرواية، فانه بغيابه يترك الاحتمالات مفتوحة أمام التاريخ. ولكن التفاؤل الذي يفيض في الرواية يدع مكاناً للحلم، فالدالية ستمتد، ومن مثالها سينمو الفعل على صعيد الواقع... ويمتد.

ونستطيع أن نلمس تفصيلاً رمزياً في رواية «عائد إلى حيفا»، وإن بدا أقل دلالة لاغترابه عن مسار الحدث الروائي الأساسي، وسقوطه في الفصل المفتعل المماثل للحدث دون أن يتداخل فيه، حيث تتفرع الرواية، دون مبرر فني، نحو حكاية «فارس اللبدة» الذي عاد الى بيته في فلسطين المحتلة ليحصل على «صورة» اخيه الشهيد التي تركها على جدار بيته حين غادره منذ عشرين عاماً. وما يهمنا هو رمزية «الصورة ودلالاتها. ما تعنيه لفارس اللبدة، وما تعنيه للعربي الذي سكن بيت اللبدة وظل مقيماً على الأرض الفلسطينية بعد احتلالها. وهنا يزدوج الرمز في الدلالة، فالصورة بالنسبة للأول هي مجرد شيء من اشيائه القديمة التي يعتز بها لأنها ترسم وجه أخيه الغائب المناضل والشهيد. لكنها بالنسبة للآخر تحمل دلالات اعمق من مجرد كونها صورة لانسان يعتز بانتمائه إليه من خلال صلة الدم. انها الجسر الذي يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، وبين النازح والمقيم. «... وحين شهدت الصورة، وجدت فيها سلوى. وجدت فيها رفيقاً يخاطبني ويتحادث إلي ويذكرني بامور اعتز بها واعتبرها اروع ما في حياتنا. قررت عندها استئجار البيت. ففي ذلك الوقت، تماما كما هو الامر الآن، يبدو لي ان يكون الانسان مع رفيق له حمل السلاح ومات في سبيل الوطن شيئاً ثميناً لا يمكن الاستغناء عنه» (ص ٣٩١ – ٣٩٢)... «... الصورة لا تحل مشكلتكم، ولكنها بالنسبة لنا جسركم الينا وجسرنا اليكم» (ص ٣٩٣).

ويتراجع المبنى الرمزي في رواية «العاشق» لحساب تصاعد الواقعية في طموحها الملحمي، دون أن ينفي ذلك امكانية الالتفات إلى تفصيل رمزي شديد الايحاء يكاد في حضوره أن يندغم مع حضور الشخصية المحورية في الرواية.

فالحصان هو مرادف رمزي لشخصية البطل، «العاشق»، الواقعية، يغني الشخصية الواقعية برمزيته. فمثلما يتنقل العاشق من اسم إلى آخر، فانه يتنقل من حصان إلى آخر يطلق عليه اسماً جديداً (سمرا، ريح، الهيجا)... ويظل هو يشبه الحصان.. «وبدا لي لوهلة، وهو محني فوق الوهج أمام صفحة السماء الشهباء، يشبه الحصان الفتي» (ص ٤٢٣).

تتغير الأسماء، وتتغير الجياد، لكن الحصان يظل حاضراً يرافق الشخصية في مصيرها المحكوم بالجموح والانطلاق، فيصبغ هذا الرمز في دلالته، على الشخصية، دلالات جديدة تعمقها وتثريها.

يرتبط «العاشق» بالفرس «سمرا» بعلاقة حميمة تقترب من درجة التوحد، فهو «يحادث سمرا وينام إلى جوارها فوق هسيس التبن» (ص ٤٢٩، ٤٣٠). فتصبح الفرس كياناً متعاطفاً مع الصديق، تحزن وتنوح لمصائبه. وفي هروبه وتقمصه لاسم آخر، يتوسل الجياد مرة اخرى فتكون جديرة بحفظ السر «وسميت نفسي - قاسم - وكانت - ريح - أول من عرف، ومضينا طوال الليل نسير ونقف ونغفو قليلاً ونتحادث ونغني بصوت خفيض، ونبحث عما يتعين علينا أن نفعل...» (ص ٤٤٩).

ويبرز التلاقي بين الواقع والرمز في توحد العاشق والحصان في قدرهما المشترك ومصيرهما الواحد «ان اقدار الخيل مثل اقدار الرجال، افي ذلك ايما شك؟ ومثل اقدار الرجال تتلاقى اقدار الخيل، ولولا ذلك لما لاقيت الهيجا، ولما كان بوسعي ان اكمل فراري من الطيرة» (ص ٤٦٠).

أما رواية «الأعمى والأطرش» فانها جاءت لتحمل الرمز والواقع معاً، ولكن بانفصال تام. إذ تبدأ من الرمز وتستمر فيه لتعود في شقها الثاني إلى الواقع مستجيبة لمتطلباته المباشرة.

فالأعمى والأطرش، الباحثان عن الخلاص في أحد رموز الوهم، يكتشفان أن هذا الرمز لا يجترح المعجزات. لكن وعي الوهم لا يكون وحده قادراً على تحطيم الرمز. وقرار تحطيمه لا يكفي وحده لتحقيق الفعل. وإذ يغيب الفعل، يظل العاجزان عاجزين «ماذا أستطيع أنا وعبد العاطي أن نفعل في وجه العالم؟ هل بقي لدينا، بعد، متسع من الوقت لنفعل شيئاً؟» (ص ٥٢٩).

ولا يتحقق الفعل الحقيقي، بداية طريق الخلاص، من خلال هذين العاجزين، ثم انه لا يتحقق على المستوى الرمزي. فقد جاء خارجاً عنه، ونبت من أرض الواقع، في الشق الثاني من الرواية الذي انفصل تماماً عن الرمز الذي تميز في البداية... وارتد إلى واقع حار تهيمن فيه الهموم السياسية.

إن مسار الرواية الذي انتقل فجأة من البنيان الذهني الرمزي إلى البنيان الواقعي الذي يخدم وجهة النظر السياسية المباشرة، يسمح بالارتداد مرة اخرى إلى الشق الأول

لاعادة قراءته من جديد قراءة سياسية تتجاوز القراءة الاولى التي رأت في الولي رمزاً للايديولوجية الغيبية المضللة.

وفي هذه القراءة، يمكن رؤية الولي كرمز سياسي يمثل القيادة القومية العربية التي تعلق فيها الفلسطيني طويلاً بأوهام الخلاص الوطني، فاكتشف، في النهاية، ان مثل هذا الخلاص هو محض وهم. ولم يتحقق تراجع هذا الوهم الا بظهور الانسان الفلسطيني الجديد.

وينسحب التفصيل الرمزي في «برقوق نيسان» مع امتداد مسار الحدث الواقعي، ينبثق من داخله ليمنحه غنى متزايداً ويكتسب من ارتباطه بالواقع مزيداً من الدلالات.

فزهر البرقوق يتجاوز قيمته الجمالية العادية، أو مجرد كونه هدية صغيرة يحملها العجوز «أبو القاسم» إلى رفيقة ابنه الشهيد. فهذه الهدية، رغم صغرها، تظل رمزاً زاخراً بالدلالة، فهي ورد الفقراء، واللهب المتوهج في لحظة المواجهة، انها دماء الأرض ودماء الشهداء، ورمز الانتماء إلى الأرض «وقد شعر بالتعب وهو يستل الزهور الغضة، وبدت له أشد تمسكاً بالأرض مما خيل إليه...» (ص ٥٨٦، ٥٨٧).

انها الرمز السري رغم علانيته، الذي يؤدي مهمة الربط بين المناضلين بعضهم ببعض، وهي الاشارة الاولى لبدء العلاقة الحميمة التي تنشأ بينهم «فقد تذكر انه حين رأى سعاد لأول مرة في أريحا لفت نظره قرص أحمر من زهر البرقوق يتوقد وسط شعرها الفاحم السواد، وأن ذلك بعث فيه السعادة لأن طلال قال له ان سيدة تحمل وردة حمراء ستزوره في أريحا، وتحدثه عن قاسم» (ص ٥٨٧).

وفي دائرة الحصار، حيث يقع العجوز في الكمين الذي نصبه جنود الاحتلال، فانه يظل متشبثاً بهذا الرمز، ويصبح زهر البرقوق مجالاً غامضاً للاتهام تحوم حوله الأسئلة. لكن زهر البرقوق يحتفظ في تلك اللحظة، بسرية معناه الرمزي، مثلما يجدر به أن يكون في لحظة كهذه، ومثلما يجدر بكل الناس والأشياء أن يحافظوا على السر. «انها باقة زهر يا سيدي، وهي لا تعنى شيئاً خطيراً على الاطلاق» (ص ٥٩٧).

ولكن زهر البرقوق، في تلك اللحظة، يعني الكثير. انه الرمز الكبير للعلاقة الحميمة، الخارجة من رحم الأرض،والتي يلتف حولها الجميع متوحدين... في زمن المواجهة.

■ ■ ■

يكتب غسان كنفاني:

«إن الدنيا عجيبة، وكذلك الأقدار. إن يداً وحشية قد خلطت الأشياء في السماء خلطاً رهيباً فجعلت نهايات الامور بداياتها والبدايات نهايات..»[٢٨]

وكان قدر غسان أن يشهد زمن الوهم، وأن يفضح الوهم. وكان قدره أن يكون

شاهداً على زمن سقوط الوهم، وان يرصد لحظات سقوطه بعد ان كان قد بشر بانبعاث «العروس»، البندقية الفلسطينية المقاتلة[٢٩]، فيصبح بعد ذلك شاهداً على زمن الأحلام لا زمن الأوهام.

لكن العمر لم يمهله لحظة اخرى ليعيش زمن تحقق الحلم الذي قدم حياته ثمناً من أجل تحقيقه، والذي ما زال الرجال الذين يترسمون خطى غسان يقدمون دمهم ضريبة من أجل أن يتحقق ذلك الحلم.

وفي ممارسته الابداعية، الروائية بشكل خاص، اختزل غسان زمنين: زمن الأوهام وزمن الحقائق. وكان الشاهد في أوج العطاء عندما تحول الى شهيد. انه العاشق الجديد وشهيد المرحلة الجديدة التي ترفض أن يختنق ابطالها بين جدران الخزان.

نهاية زمن الوهم، كانت بداية زمنه الروائي. ونتاجه الروائي كان بدايات شهدت نهايتها باستشهاد كاتبها قبل أن تكتمل. لكنها رغم الموت وعدم الاكتمال، تبقى شهادة عن سقوط زمن الوهم.. وترهص بالأحلام القادمة.

---

( ١ ) عن حديث أجراه كاتب سويسري مع غسان كنفاني قبل استشهاده باسابيع ونشرته «**شؤون فلسطينية**» بيروت، مركز الابحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، العدد ٣٥، تموز ١٩٧٤؛ ثم اعيد نشره في كتاب «**غسان كنفاني انساناً واديباً ومناضلاً**»، بيروت، منشورات الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينين، تموز ١٩٧٤.

( ٢ ) **المصدر نفسه.**

( ٣ ) **المصدر نفسه.**

( ٤ ) **المصدر نفسه.**

( ٥ ) في ندوة ادبية عقدت في دار الفن والادب، بيروت، ١٥ أيار ١٩٧٢، حول الرواية والواقع، وعما إذا كان الادب تعبيراً عن الواقع أم هروباً منه إلى الماضي أو مجابهة الحاضر، اشار غسان كنفاني إلى أن الروائي هو كل هذه المعالم مجتمعة. راجع: فاضل عباس هادي «قضية فلسطين والرواية العربية المعاصرة»، مجلة«**شؤون فلسطينية**»، العدد ١١، تموز ١٩٧٢.

( ٦ ) صدرت عن دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٣.

( ٧ ) صدرت عن دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٦.

( ٨ ) صدرت عن دار العودة، بيروت، ١٩٦٩.

( ٩ ) صدرت عن دار العودة، بيروت، ١٩٦٩.

(١٠) نشرت في «**شؤون فلسطينية**»، العدد ١٦، كانون الأول ١٩٧٢.

(١١) نشرت في «**شؤون فلسطينية**»، العدد ١٦، كانون الأول ١٩٧٢.

(١٢) نشرت في «**شؤون فلسطينية**»، العدد ١٣، أيلول ١٩٧٢.

(١٣) نشرت هذه الروايات السبع في المجلد الأول من «**الآثار الكاملة**» للكاتب، لجنة تخليد غسان كنفاني ودار الطليعة، بيروت، تشرين الثاني ١٩٧٢. (وهي الطبعة التي نعتمدها لاشاراتنا في هذه الدراسة).

(١٤) غسان كنفاني، «**الآثار الكاملة**»، المجلد الثاني (القصص القصيرة)، بيروت، لجنة تخليد غسان كنفاني ودار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٣، ص ٦١١.

(١٥) د. رضوى عاشور، «**الطريق إلى الخيمة الاخرى**»، بيروت، دار الآداب، حزيران ١٩٧٧، ص ١٠٢ - ١٠٤.

(١٦) فاروق عبد القادر، «المنفى والفداء في الأدب الفلسطيني»، «**دراسات عربية**»، بيروت، العدد ١٠، آب ١٩٧٨.

(١٧) «**الحوادث**»اللبنانية،الاعداد: ٥٠٢ (٢٤ حزيران ١٩٦٦)، ٥٠٣ (١ تموز ١٩٦٦)، ٥٠٤ (٨ تموز ١٩٦٦)، ٥٠٥ (١٥ تموز ١٩٦٦)، ٥٠٦ (٢٢ تموز ١٩٦٦)، ٥٠٧ (٢٩ تموز ١٩٦٦)، ٥٠٨ (٥ آب ١٩٦٦)، ٥٠٩ (١٢ آب ١٩٦٦)، ٥١٠ (١٩ آب ١٩٦٦).

(١٨) عن مقابلة أجراها معه ماجد السامرائي ونشرها في كتابه، «**شخصيات ومواقف**»، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٧٨، ص ٧١.

(١٩) في آخر لقاء اذاعي مع غسان كنفاني نشرته مجلة «**الهدف**» البيروتية، ١٥ أيلول ١٩٧٣، العدد ١٢٩، قال الكاتب: «بالنسبة لفوكنر أنا معجب جداً بروايته «الصخب والعنف» وكثير من النقاد يقولون إن روايتي «ما تبقى لكم» هي امتداد لهذا الاعجاب بـ «الصخب والعنف»، وأنا أعتقد أن هذا صحيح.. أنا متأثر جداً فوكنر ولكن «ما تبقى لكم» ليست تأثراً ميكانيكياً بفوكنر بل هي محاولة للاستفادة من الادوات الجمالية والانجازات الفنية التي حققهافوكنر لتطوير الادب الغربي» راجع د. رضوى عاشور، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٢ - ٨٦.

(٢٠) ماجد السامرائي، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٣.

(٢١) د. احسان عباس، المبنى الرمزي في قصص غسان» (مقدمة الجزء الأول من الآثار الكاملة لغسان كنفاني) **مصدر سبق ذكره** ص٢٢.

(٢٢) **المصدر نفسه** ص ١٦.

(٢٣) فضل النقيب، «عالم غسان كنفاني» «**شؤون فلسطينية**» العدد ١٣، ايلول ١٩٧٢.

(٢٤) د. احسان عباس، **مصدر سبق ذكره**، هامش ص ١٧.

(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ١٧

(٢٦) د. رضوى عاشور، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٩ - ٧٠.

(٢٧) د. احسان عباس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣.

(٢٨) في رسالة لغادة السمان، مجلة «**الهدف**»البيروتية، العدد ٤٤٥، ٧ تموز ١٩٧٩.

(٢٩) اشارة إلى قصته القصيرة «العروس» التي كان يعتز بها بشكل خاص، من مجموعته القصصية «**عالم ليس لنا**» الآثار الكاملة، المجلد الثاني، **مصدر سبق ذكره** ص ٥٨٩ -٦٠٦.

# محادثات سياسية ومهنية ناجحة لوفد اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين في برلين وبراغ

عاد يوم الاحد ٧/٩/١٩٨٠، وفد الامانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، برئاسة الاخ يحي يخلف وعضوية الاخوة غانم زريقات، بسام ابوشريف، جميل هلال، وزياد عبد الفتاح، من براغ وبرلين، بعد ان اجرى محادثات سياسية ومهنية ناجحة في البلدين.

في المانيا الديمقراطية التقى الوفد اتحادي الكتاب والصحفيين، واجرى مع كل منهما مباحثات تناولت آفاق التعاون بين الاتحادين في المستقبل، والتنسيق بينهما في المؤتمرات الدولية. ووقع اتحاد الكتاب والصحفيين اتفاقية للتعاون مع اتحاد الصحفيين في المانيا الديمقراطية مدتها خمس سنوات، يبدأ العمل بها اعتبارا من تاريخ توقيعها ١/٩/١٩٨٠. ونصت الاتفاقية على ان يسهم الاتحادان بكل الوسائل، في تعميق الوعي لدى شعبي البلدين ودعم نضالهما المشترك من اجل السلام العادل والامن والتقدم الاجتماعي. وادان الاتحادان العدوان الصهيوني المستمر، واكد اتحاد الصحفيين الالمان الديمقراطيين دعمه الكامل لنضال الشعب الفلسطيني في سبيل حقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته الوطنية المستقلة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. وتضمنت الاتفاقية، التي وقعها الرفيقان هاري زيبوك رئيس الاتحاد الالماني الديمقراطي، ويحي يخلف امين عام الاتحاد الفلسطيني، سبعة بنود تتضمن، بالاضافة الى التنسيق في المؤتمرات وتبادل الزيارات، استعداد الاتحاد الالماني لتقديم كافة اشكال الدعم في ميادين تأهيل الصحفيين الفلسطينيين وتدريبهم في كلية التضامن في المانيا الديمقراطية، بما في ذلك اقامة دورات تخصص للفلسطينيين في برلين الشرقية وبيروت يشرف عليها اتحاد الصحفيين في المانيا الديمقراطية، وتزويد اتحاد الصحفيين الفلسطينيين بالمواد الفنية التي تخدم هذا الغرض.

وعلى هامش الزيارة، دعا الاخ الدكتور عصام كامل، مدير مكتب م.ت.ف. في برلين، الى حفل استقبال شارك فيه اتحادا الكتاب والصحفيين في المانيا الديمقراطية وممثلو لجنة التضامن وبعض الرسميين من وزارة الخارجية، وتحول الحفل الى تظاهرة دعم لنضال الشعب الفلسطيني.

وتكللت الزيارة باللقاء الطويل، الذي دام ساعة ونصف الساعة، مع الرفيق هيرمان عضو المكتب السياسي، الذي قدم تحليلا متكاملا للوضع الدولي اكد من خلاله حتمية انتصار النضال الفلسطيني، مؤكدا وقوف المانيا الديمقراطية بحزم في القسم من الجبهة المشتركة ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية، وتقديمها الدعم والتضامن الكاملين لنضال الشعب الفلسطيني.

وتعرض الرفيق هيرمان الى الصراع الايديولوجي اليومي الذي تخوضه المانيا الديمقراطية في مواجهة وسائل الاعلام الغربية، وختم حديثه بعبارة: «اطمئنوا ايها الرفاق ليس عندنا تبن يحرقونه». وابدى الاخ يحي يخلف، باسم الوفد الفلسطيني، ارتياحه للتأييد والدعم الكبيرين اللذين تقدمهما المانيا الديمقراطية لنضالنا، مؤكدا «ان رجاحة موازين القوى نحو المعسكر الاشتراكي يقربنا من الانتصار».

وفي براغ اجرى الوفد محادثات ناجحة مع اتحاد الصحفيين التشيكوسلوفاكيين، ووقع اتفاقية تضمنت ثلاثة عشر بندا للتعاون، لمدة سنتين، اعرب الاتحادان خلالها عن دعمهما الكامل لنشاط منظمة الصحفيين العالمية «I,O,J» ومساعيها لتطوير الصحافة التقدمية في العالم. كما تضمنت الاتفاقية، بالاضافة الى تبادل الخبرة والمعلومات، استعداد اتحاد الصحفيين التشيكوسلوفاك لارسال مدرسين، على نفقته، لتدريب وتأهيل الصحفيين الفلسطينيين، وكذلك تقديم منح العلاج والدراسة بحدود الامكانات المتوفرة.

وعلى الجانب السياسي، استُقبل الوفد الفلسطيني من قبل الرفيق كمبني عضو المكتب السياسي ومهندس السياسية الاقتصادية في تشيكوسلوفاكيا، حيث قدم عرضا متكاملا للوضع السياسي والاقتصادي في بلاده وفي الدول الاشتراكية، اكد من خلاله رجاحة ميزان القوى لصالح الدول الاشتراكية في سباقها مع الرأسمالية، مؤكدا ان هذا الرجحان يخدم قضايا النضال العادل للشعوب في سبيل الحرية والتقدم.

وبعد ان ادان سياسة كامب ديفيد، اكد ان علاقات الصداقة بين تشيكوسلوفاكيا و م.ت.ف.، تعود الى سنوات عدة، وان الطرفين ارسيا تقاليد مميزة، وان الاتفاقية الجديدة التي وقعها اتحاد الصحفيين في البلدين هي خطوة جديدة لتعميق وتطوير اساليب دعم تشيكوسلوفاكيا لكفاح الشعب الفلسطيني العادل.

وختم حديثه بالقول: «ان نضالكم يلعب دورا استثنائيا، وواجبنا المقدس ان ندعم هذا النضال حتى يحصل الشعب الفلسطيني على ما هو حق له».

وقد شكر الوفد الفلسطيني للرفيق كمبني التحليل الرصين، واكد الامين العام استمرار الشعب الفلسطيني في لعب هذا الدور الاستثنائي، مؤكدا ان «الممارسة علمت الشعب الفلسطيني ان يفرز معسكر الاصدقاء من معسكر الاعداء، وان لا مجال للعودة للوراء».

وفي الايام الثلاثة الاخيرة، اجرى الوفد الفلسطيني مباحثات هامة جدا مع المنظمة العالمية للصحفيين، التي تعلق اهمية بالغة على الدور الخاص الذي يمكن ان يلعبه اتحاد الصحفيين الفلسطينيين. وتميزت هذه المباحثات بالصراحة والود، استعرض الجانبان خلالها نشاط المنظمة في السنوات المنصرمة، وآفاق التعاون في المستقبل. ووقع الجانبان اتفاقية مدتها ثلاث سنوات، اكدا فيها حرصهما على النضال الدؤوب ضد كافة اشكال الامبريالية والكولونيالية والصهيونية والفاشية. ونصت بنود الاتفاقية الستة عشر على كافة اشكال الدعم، ليس للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين فحسب بل ولكل المؤسسات الاعلامية الفلسطينية. كما نصت، على التبادل المسبق للمعلومات المتعلقة بكافة المؤتمرات الدولية التي تنظمها المنظمة العالمية، والحرص على ان يؤدي اتحاد الصحفيين الفلسطينيين دوره الكامل في المشاركة فيها.

واكدت بنود الاتفاقية على فتح كافة المعاهد التي تشرف عليها المنظمة العالمية لتدريب الصحفيين الفلسطينيين وتأهيلهم. وقد شارك من سكرتاريا المنظمة العالمية الرفاق كوبكا، تريكفورن واورليان نستور، في حين شارك عن الجانب الفلسطيني الاخوة يحي يخلف الامين العام، وغانم زريقات امين السر، وبسام ابو شريف مسؤول العلاقات الخارجية، وجميل هلال مسؤول العلاقات المهنية، وزياد عبد الفتاح مسؤول العلاقات الداخلية.

ولا بد في نهاية هذا التقرير العاجل من تسجيل الملاحظات التالية:

١ – عقد الوفد الفلسطيني عدة مؤتمرات صحفية في برلين وبراغ وبراتسلافيا.

٢ – حظي الوفد بحفاوة بالغة، وتعتبر نتائج الزيارة انجازا هاما وكبيرا.

٣ – من المفهوم ان الامانة العامة للاتحاد الفلسطيني سوف تواصل نشاطها مع الاتحادات التقدمية والصديقة من اجل بناء علاقات متينة وواضحة معها.

**غانم زريقات**

# مبدأ رابين في ضواحي بيروت

يمكن القول، في ضوء التطورات العسكرية والسياسية التي بدأت بقيام مجزرة ٧ تموز الكتائبية ولم تنته بالتوقف المؤقت لمعارك الحدث ومنطقة بعبدا ضد مواقع الجيش اللبناني ورئاسة الجمهورية، ان ما ينفذ حاليا، في لبنان هو المشروع الذي طرحه اسحق رابين رئيس الوزراء الاسرائيلي السابق بشأن السياسة الاسرائيلية (والاميركية؟) في لبنان. وهذا المشروع، الذي سمي آنذاك «مبدأ رابين»، اعلن في ١٣ تشرين الاول ١٩٧٨ وكانت معارك عسكرية قد احتدمت في الاشرفية بالمنطقة الشرقية من العاصمة اللبنانية.

وقد حدد رابين، في هذا المشروع، ثلاثة اتجاهات عمل امام «الجبهة اللبنانية» التي كان يرئسها السيدان كميل شمعون وبيار الجميل:

الاتجاه الاول، يقضي «بتطوير القوة العسكرية للمسيحيين وتأمين القدرة الكافية لهم اذا كانوا يستطيعون ويريدون مساعدة انفسهم؛ ومن اجل ذلك فإن اسرائيل قامت وتقوم بالكثير، وآمل ان يسود الشعور بالقلق، الموجود لدينا، المسيحيين ايضا».

اما الاتجاه الثاني، فهو الامل بأن ينجح «المسيحيون» مثلما «نجح الاستيطان اليهودي عشية حرب الاستقلال سنة ١٩٤٨ (قرار انشاء الكيان الصهيوني) في اقامة قيادة سياسية واحدة وقيادة عسكرية واحدة، وحتى الآن لم يتوصلوا الى ذلك».

ويضيف رابين: «اضافة الى تقوية المسيحيين سياسيا وعسكريا، على اسرائيل ان تبادر بسلسلة من النشاطات السياسية التي بدأت تعطي نتائجها، سواء في ما يتعلق بالتدخل الاميركي – الفرنسي ودول اوروبية اخرى، ام في تدخل بعض القوى في العالم العربي، وبخاصة مصر؛ فهذه القوى بدأت تهتم بما يجري في لبنان وبأهمية العمل بشكل حثيث لمنع السوريين من تنفيذ مآربهم، اي شل المسيحيين سياسيا وعسكريا بحيث يفقدون القدرة على تأمين دور ومكانة لهم في النظام الذي يتم بناؤه حاليا في لبنان».

اما بخصوص الاتجاه الثالث – يقول رابين – فإن «ما ينبغي على اسرائيل ان تعمله هو القيام بعمليات ايحائية تبرهن للسوريين خطورة التوجه الاسرائيلي اذا كان هدف سوريا انهاء قدرة المسيحيين على الصمود».

ويستخلص رئيس الوزراء الاسرائيلي الاسبق، ان هذه الاتجاهات الثلاثة (بناء «قوة مسيحية»،

المبادرة الى تحركات سياسية اسرائيلية – مصرية – انعزالية، ضربات صهيونية «ايحائية») يجب ان تسير معا «وان تهدف الى التوصل الى حل سياسي للنزاع في لبنان... والا فحل عسكري».

ولدى الاطلاع على الخيط الذي يربط بين سلسلة التطورات السياسية والعسكرية الاخيرة ولاسيما تلك التي تحدث في الجنوب وفي الشمال وبينهما: ضواحي بيروت، فإنه يتضح بأن «مبدأ رابين» آخذ في التحقق، او في محاولة التحقق، ضمن سياق متكامل يقال ان الذي يشرف عليه هو السفير الاميركي في بيروت بالتنسيق مع قادة ومسؤولي حلف شمالي الاطلسي.

وقبل الدخول في تحليل خلفيات هذه التطورات نشير الى ظاهرة بالغة الاهمية تتعلق بالانقلاب العسكري الذي حصل مؤخرا في تركيا. فقد لاحظ بعض الدبلوماسيين وجود علاقة وثيقة بين الانقلاب الذي قضى على آخر الحريات الديمقراطية وكرس نفوذ حلف الاطلسي في الاراضي التركية التي يعتبرها بريجنسكي «قوس الازمات»، وبين التحرك الاميركي في المنطقة العربية في ضوء احداث ايران وفلسطين المحتلة والجنوب اللبناني. ويستفاد من المعلومات المتوافرة حتى الآن، ان التحضير للانقلاب في تركيا قد تم منذ فترة طويلة، في الدوائر الاميركية والاطلسية، خصوصا بعدما تبين ان محادثات كمب ديفيد من جهة، ومحاولات واشنطن لغزو ايران وسحق الثورة من جهة ثانية، والتحرك الصهيوني – المصري ضد لبنان وسوريا والمقاومة الفلسطينية، من جهة ثالثة، كلها منيت بفشل كامل او جزئي، وكلها تشكل، للادارة الاميركية وللرئيس كارتر الباحث عن سبيل للعودة الى البيت الابيض، نكسات متلاحقة ومن النوع الذي يؤثر على مجرى الانتخابات الرئاسية. والذي نود التركيز عليه في هذا المجال، هو ان اكثر من مؤتمر قد عقد في المدة الاخيرة للسفراء الاميركيين في الشرق الاوسط، كان ابرزها المؤتمر الذي عقد في القاهرة ولعب فيه السفير الاميركي في بيروت، جون غونتر دين، دورا مهما وحساسا. وقد بحثت في هذه اللقاءات، مسائل متعددة، تبدأ بتخريب الوضع الداخلي في لبنان وضرب وتفتيت المناطق غير الخاضعة للسيطرة الكتائبية، وبكيفية تأمين دعم اسرائيلي قوي للخطط الانعزالية الداخلية، كما تطرق البحث الى التسهيلات العسكرية التي يمكن ان تقدمها مصر وعُمان والصومال لاستخدامها في اي هجوم عسكري تقوم به الولايات المتحدة بواسطة «قوات التدخل السريع»، ضد ايران او الخليج العربي او غير ذلك.

ويقال ان فشل التدخلات ضد ايران والتطورات التي حصلت في لبنان والارض الفلسطينية، فضلا عن فشل التخريب الداخلي في سوريا، واخيرا قيام الخطوة الوحدوية بين سوريا والجماهيرية مع مؤشرات تدل على انها خطوة جدية وموجهة ضد الأمبريالية الاميركية والمواقع الصهيونية والرجعية في المنطقة.. هذه التطورات هي التي رجحت او اكدت الميل الى الاسراع بتوجيه ضربة قوية وسريعة في تركيا. ويقال ايضا ان هذه التطورات هي التي ستدفع الاميركيين الى تعزيز دورهم والدور الاسرائيلي في لبنان، وهي التي تجعلهم يعيدون الحيوية الى الافكار التي سبق لقادة اسرائيليين ان طرحوها وكانت تبدو بالغة التطرف في نظر بعض القادة الاميركيين في عام ١٩٧٨ وما بعده. ومنها، الافكار التي اوردناها اعلاه والتي يمكن تسميتها «مبدأ رابين».

## توحيد القوات وتبدل النظرة الى الجيش

وبشأن تعزيز وتوحيد القوات «المسيحية»، فهذا الشعار، الذي طرح من جانب تل – ابيب في العام ١٩٧٨ او قبله بقليل، كانت تعترض تنفيذه صعوبات جمة. ومنها ان القوى السياسية المعنية، اي القوى التي كانت داخلة في «الجبهة اللبنانية» او متعاونة معها، لم تكن على درجة من الاتفاق ومن التنسيق تسمح لها بايجاد قيادة موحدة. ولم تكن الكتائب قد طرحت بصورة مكشوفة ووفقا لمشروع متكامل، فكرة اقامة دويلة مسيحية كما عادت وفعلت عند قيامها بمجزرة ٧ تموز ١٩٨٠؛ ولم يكن شعار توسيع رقعة السيطرة الفاشية وبحيث تشمل منطقة القصر الجمهوري بالذات، قد طرح بالعنف والصراحة اللذين طرح بهما في مطلع ايلول ١٩٨٠. ولم تكن قد توضحت، بعد، العلاقة بين ميليشيات «الجبهة اللبنانية» وبين الجيش اللبناني الرسمي. والمعروف ان النظرية الكتائبية (المعلنة على الاقل) بشأن المؤسسات كانت تقوم

«تقليديا» على مقومات من ابرزها «الدفاع عن النظام»، وصيانة «رئاسة الجمهورية» كمقام وكمنصب ومهما يكن الرئيس، واعتبار الجيش اللبناني ذا «رسالة مقدسة». وقد ركزت الكتائب، اكثر فأكثر على هذه النظرية في دعايتها اليومية، وشجعها على ذلك كون النظام الاقتصادي – السياسي – الاجتماعي قد اعطى الكتائب (وما تمثل) حصة الاسد على اكثر من صعيد، وكون رئاسة الجمهورية قد خدمت الكتائب، فكرا وممارسة، في كل شيء والى درجة قيل فيها ان رئيس الجمهورية الحالي فضل الكتائب على مجموع القوى اللبنانية، وانه ضحى بالاجماع السياسي والنيابي والشعبي المعادي للفاشية الكتائبية بعد ٧ تموز الماضي واصر على ان يعمل بكافة الطرق لفك العزلة عن بشير الجميل ومشروعه السياسي والعسكري. اما المؤسسة الثالثة، وهي الجيش، فإنها هي ايضا قدمت للكتائب من الخدمات ما يعرف وما لا يعرف، وان القانون الجديد المتعلق باعادة تنظيم الجيش على اسس وطنية ومتوازنة قد جرى تجميده بناء لضغط كتائبي. اذن، على الرغم من كل هذه التسهيلات والخدمات الرسمية لحزب الكتائب، والتي اضيفت اليها التسهيلات والخدمات الدبلوماسية، فإن مخطط بشير الجميل وصل الى حد التهديد بالاطاحة بالمقدسات الثلاثة: النظام الطائفي، رئاسة الجمهورية، الجيش. واذا كان بشير الجميل قد اعلن منذ سنة ١٩٧٦، بأن «صيغة» الحكم التي وضعها ميثاق ١٩٤٣ بين زعماء البلاد والطوائف قد سقطت ودفنت الى غير رجعة؛ اذ انها لم تعد تتوافق مع الطموح الى فرض المشروع الصهيوني – الفاشي المباشر على لبنان، فإن «الاقنيمين» المقدسين الآخرين، وهما رئاسة الجمهورية والجيش، قد سقطت قدسيتهما من ذهن الكتائب وبدأ الاستعداد العملي، بل التنفيذ العملي، لاسقاطهما على الصعيد الميداني.

وما حدث ويحدث في منطقة بعبدا بالذات، وفي ختام السنة الرابعة من ولاية الرئيس سركيس، انما يشكل تتويجا لذلك كله. وهو يشكل نقطة التقاطع «المركزية» بين ما يجري في اطراف البلاد، ولا سيما العدوان الاسرائيلي المتصاعد في الجنوب واعمال التخريب الرجعية والمشبوهة في الشمال.

## النكسة والحكم

وفي هذه الاجواء، فمن الطبيعي ان تدرك القوى السياسية كلها ان هناك تبدلا في الاسلوب الذي انتهجته الكتائب طيلة الفترة الماضية بالنسبة الى العلاقة مع القوى الممثلة للسلطة الشرعية ولا سيما الجيش منها. فلقد تبين من توجيهات القيادة العسكرية الكتائبية ومن النشاط السياسي والاعلامي الذي تقوم به، كما تبين من الممارسة على ارض الواقع، ان الكتائب لم تعد تعتبر نفسها حليفا او رديفا لاجهزة القمع الرسمية اذا قامت هذه الاجهزة «بمهمتها» في قمع الحركة الشعبية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية، وهذا الاعتبار قد سقط منذ بداية السبعينات، اي منذ ان بدأت الكتائب تدرك بأن دورها هي، يجب ان يكون الدور الطليعي حتى في مهمة الدفاع عن النظام السياسي بالمعنى الذي تفهمه، اما الجيش فالكتائب اخذت تنظر اليه على ان دوره هو الرديف والمساعد، وبمقدار ما تطور المشروع الانعزالي وصولاً الى طرح شعار «تحرير كل لبنان» فإن النظرة الى الوضع الامني والى المؤسسات العسكرية قد تطورت ايضا. وهذا الامر احدث خلافات معينة مع الرئيس سركيس الذي تبين له ان كل جندي يتم ارساله الى منطقة السيطرة الكتائبية في بيروت الشرقية والمتن الشمالي وكسروان وجبيل، سيكون، عمليا، خاضعا للسيادة الكتائبية او مرتهنا بها غير ان ما لم يكن في حسبان رئيس الجمهورية هو ان تسعى الكتائب الى مطاردة السلطة الشرعية وجيشها في المنطقة التي كانت اوساط الحكم تعتبرها المنطقة «النموذجية» لعمل الجيش والمنطلق الذي سيبدأ منه الجيش بتنفيذ اية خطة انتشار عسكري في سائر المناطق (والمعروف ان رئيس الجمهورية حرص، خلال الشهرين الماضيين، على اعتبار «الخطة الامنية» امرا اكثر اهمية واشد الحاحا من مسألة تأليف حكومة جديدة، وذلك وفقا للفكرة القائلة ان اية حكومة ستأتي يجب ان تكون ملتزمة مسبقا بتنفيذ خطة امنية يكون الجيش هو ابرز المشاركين فيها، حتى لو اصرت القوى الوطنية والتقدمية والهيئات الاسلامية على الاعتراض على تركيبة الجيش ونهجه وسياسته...). وقد جاءت معارك الكتائب ضد الجيش وضد منطقة الحدث – بعبدا القريبة من رئاسة الجمهورية، لتشكل نكسة ضخمة للحكم، في سياسته العامة، وفي مسألة الخطة الامنية بالذات. وقد استنتجت القوى الوطنية اللبنانية ان هذه المعارك، التي

اوقفتها السلطة في منتصف الطريق، بعقدها اتفاقا لوقف اطلاق النار مع الميليشيا الكتائبية، انما هي تأكيد جديد على صحة الموقف الوطني الذي يقول ان الاولوية هي للخط السياسي للحكم، وليس للنهج «الامني»، وان المطلوب هو في الدرجة الاولى حسم الموقف الرسمي من الدويلة الكتائبية في الداخل ومن العدوان الصهيوني ومسألة تحرير الشريط الجنوبي. كما طالبت القوى الوطنية، وخصوصا بعد احداث منطقة الحدث، بأن يحسم رئيس الجمهورية امر الفراغ الحكومي الذي تستفيد منه القوى التقسيمية والفاشية فتتولى تصعيد هجومها على الشرعية وعلى وحدة البلاد.

ولقد استفادت الكتائب، بالفعل، من النهج الرسمي في التعامل مع خطها السياسي ومع تدابيرها التقسيمية، كما استفادت من اتفاق «وقف اطلاق النار» ومن «الترتيبات» المشتركة، ولم تقتصر هذه الاستفادة على الكسب السياسي و «الميداني» وتشديد محاصرة الحكم، وانما وصلت الى حد الاسراع في بلورة فكرة توحيد «القوات اللبنانية» وفقا لهيكلية جديدة واسس جديدة. وهي العملية التي بدأت، بصورة ملموسة، بعد مجزرة السابع من تموز والقضاء على الوجود العسكري المستقل للرئيس الاسبق كميل شمعون.

واذا كان كميل شمعون قد اضطر، بعد احداث ٧ تموز، لان ينصاع للأمر الواقع ويرضى بأن ينضم بعض من قواته الى قوات بشير الجميل «الموحدة»، فإنه بعد احداث منطقة الحدث (التي انفجرت عندما استنجد شمعون بالجيش لرد العدوان الكتائبي على مراكزه الحزبية، هذا العدوان الذي ساندته محازبون لشمعون ممن اعلنوا انضمامهم للميليشيا الكتائبية) بعد هذه الاحداث اصبح «مضطراً» للوقوف مع الكتائب وضد الجيش بالذات.. واخذ يساير، ان لم يؤيد علناً، الفكرة الكتائبية القائلة ان الجيش اللبناني انما هو «جيش احتلال» في الحدث وفي بعبدا بالذات؟.

## الدولة و«توحيد المسيحيين»

ويبدو ان اجتماعات مكثفة حصلت، بعد مشاكل الحدث وقبلها ببعض الوقت، بين كميل شمعون وقادة الكتائب ولا سيما بشير الجميل منهم، وقد شارك موفدون من السلطة مشاركة فعالة في عقد هذه الاجتماعات بعيدا عن الاضواء، وكان الهدف منها البحث عن صيغة «لتوحيد الجهود» وعدم اضاعة الوقت في «الصراعات الجانبية بين المسيحيين». وقد طرحت عدة افكار حول هيكلية جديدة تعيد النشاط الى «الجبهة اللبنانية» وتعطي كل واحد دوره. والهيكلية تتناول القيادة السياسية والهيئات السياسية للجبهة، ويجري وضعها وتنفيذها جنبا الى جنب مع تدابير توحيد القوات العسكرية. وقد لوحظ من البداية ان جهود الكتائب واوساط الحكم انما تهدف الى تحقيق ثلاثة اغراض دفعة واحدة.

الاول فك العزلة عن الكتائب ولا سيما في الوسط الماروني وفي «الشارع المسيحي» بصورة عامة، بعد ان كان قد نشأ شبه اجماع على ادانة النهج الفاشي ولا سيما بعد الحملة العسكرية على «الاحرار».

والثاني هو توحيد «الجبهة الداخلية» في ظل قيادة فعلية هي ميليشيا الكتائب وقيادة سياسية او هيئة سياسية عليا سيكون لكميل شمعون دور بارز فيها (وقد «ينتخب»، من جديد، رئيسا «للجبهة اللبنانية» ولكن، بالطبع، من غير صلاحيات مهمة).

اما الهدف الثالث فهو الحفاظ على لحمة الجيش. فقد تبين ان القيادة الكتائبية واجهزة اعلامها، وخصوصا اذاعة المجلس الحربي الكتائبي «صوت لبنان الحر»، شنت حربا نفسية متواصلة على الجيش واعلنت بأنه سينقسم وبأن العديد من الضباط رفضوا ويرفضون «اطلاق النار على المسيحيين». وقد جرى استصدار العديد من البيانات التي حملت، من الوجهة الشكلية، اسم «اهالي الحدث» او مهجري الدامور» وما الى ذلك، وكلها تطالب باخراج الجيش من المنطقة بصورة نهائية... وقد ذكرت بعض المعلومات ان هناك بالفعل خلافات حول ما اذا كان بالامكان، وما اذا كان من المصلحة، مواجهة المشروع الكتائبي او رد الهجمات الكتائبية. وهذه من الاسباب التي جعلت المراجع العليا في الحكم وفي قيادة الجيش تتولى تقريب وجهات النظر بين بشير الجميل وكميل شمعون.

ومع المعرفة المسبقة بأن هذه الجهود من شأنها ان تعطي المشروع الكتائبي دفعا جديدا مما يشكل المزيد من الخطر على مواقع السلطة بالذات، الا ان اوساط السلطة تستمر في مساعيها رغم كل هذه المحاذير. ويستمر بالتالي، العمل لتوحيد مقاتلي الكتائب والاحرار. وهناك من يعتبر ان الهدف من عملية التوحيد هذه، والتي تجري بصورة قسرية وترافقها دعاية محمومة ضد الفلسطينيين والخطر الفلسطيني، انما هو الوصول في وقت قريب الى اعلان خطوة تقسيمية «كاملة»؛ وبحيث يستلم بشير الجميل مقاليد الامور بصورة مكرسة رسميا ويضع السلطة ورئيس الجمهورية بالذات امام الأمر الواقع؛ وهناك من يعتقد، في المقابل، ان الهدف من التوحيد هو الاستعداد لاعمال تفجيرية جديدة ليس في الجنوب وحده وانما في الداخل ايضا. وفي كل حال فإن اجهزة الاعلام الكتائبية ابان معارك الحدث بالذات وجهت انذارات و «نصائح» الى قوات الجيش الرسمي مفادها ان على هذا الاخير ان يترك كل «المنطقة المسيحية» وان يأخذ مواقعه على خطوط التماس مع العدو الحقيقي، وخصوصا في بيروت وضواحيها. فهل تكون الرغبة في اعادة تفجير الجبهات التقليدية في العاصمة، جنبا الى جنب مع ما يحكى عن امكانية احتلال صهيوني لقسم من الجنوب، هي التي تدفع «اخصام الامس القريب» الى الانخراط مجددا في قوة عسكرية واحدة بقيادة بشير الجميل؟ وما هو دور اسرائيل في هذه العملية وهل انها ميالة الى اعطاء دور معين لكميل شمعون في قيادة العمل الهادف «لتحرير لبنان» او على الاقل، لتكريس الدويلة الكتائبية واخضاع مواقع السلطة الشرعية واضعاف المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية او ضربهما؟

## المنطقة والاحتمالات

الاسئلة كثيرة، والاحتمالات تبدو متعددة. غير ان بعض المطلعين يقولون ان كميل شمعون قد شعر، منذ معارك الاشرفية وطريق بيروت – طرابلس في ٧ تموز الماضي، ان اعتماد اسرائيل الاساسي انما هو على حزب الكتائب، وان هذا هو السبب الذي جعل نداءاته واتصالاته تبقى من غير مجيب. وبعد مناقشات طويلة ومشاحنات بعضها من النوع الدامي عاد شمعون وفضل الانحناء امام العاصفة الكتائبية، ربما انتظارا لظروف افضل او لتبدلات معينة في لبنان او في الشرق الاوسط، او انتظارا لما يمكن ان يحصل قبيل انتخابات الرئاسة الاميركية او بعدها. وقد يكون في التطورات المحتملة في ضوء المبادرات الاوروبية القادمة، بصيص نور لاعادة خلط الاوراق في المنطقة وفي لبنان.

الا ان هذا السياق من التطورات، والذي يصب كله في اتجاه تعزيز امكانيات «الهجمة» الكتائبية على جبهات رئاسة الجمهورية والجيش وكميل شمعون، يجب الا يعني ان الامر قد استتب للقيادة الكتائبية، لا على صعيد المناطق الخاضعة لنفوذها ولا على صعيد القوى والشخصيات المارونية. واذا كانت الكتائب تراهن على انها استطاعت وسوف تستطيع، بقوة السلاح وبفضل التدابير الاخيرة من اقتصادية وادارية و «انمائية» ومالية ومواصلاتية وصحية، ان «تضبط الامور» في مناطق سيطرتها وان تضمن للمواطنين الامن الذي لم يكن متوفرا بوجود التنظيمات العسكرية المتعددة و «الدكاكين»، فإن هذه المراهنة لا تبدو كثيرة الدقة. فلا احد يستطيع، في عالمنا هذا، ولو كان مستوعبا جميع دروس الفاشية والهتلرية والصهيونية، ان «يقطع» منطقة معينة عن العالم كله وان يحولها الى سجن «آمن» او الى معسكر هادىء»، سواء كان ذلك باسم المتاجرة بدين او طائفة، او كان تحت ستار انقاذ القوم من خطر خارجي او من عدوان «دولي». والانفجارات التي تحصل بصورة مستمرة في المنطقة الشرقية وسائر مناطق السيطرة الفاشية، هي مثال على ذلك. اما المثال الاقوى، والاكثر تأثيرا على المدى البعيد، فيتمثل في الهجرة المتزايدة من مناطق «الغيتو» ومن اوساط الشباب المسيحي ممن لا يستطيع ان يعيش في كابوس من القمع والقهر والغرائز العنصرية والقبيلية.

كما ان القوى المفترض فيها ان تساند المشروع الكتائبي باستمرار وتمده بالامكانيات والدعم، ومعظمها قوى خارجية، ليست كلها «طليقة الايدي» وليست دائما مضطرة لوضع مصالح الاقلية الفاشية اللبنانية فوق مصالحها بالذات. فلا الولايات المتحدة الاميركية، التي يعطيها «مبدأ رابين» دورا مهما في

التنفيذ، من خلال السادات وغيره، طليقة اليدين على طول الخط، وهذا يتوقف، في كل حال، على نتائج الانتخابات الاميركية وعلى الوضع العربي ومصير القواعد الاميركية في المنطقة؛ ولا اسرائيل نفسها طليقة اليدين، فلديها مشاكلها الداخلية والخارجية كما ان اية عمليات عسكرية صهيونية في الجنوب ستكون فادحة الثمن لجيوش الغزو وعملائهم، وهذا ما اثبتته معارك الشقيف – ارنون الاخيرة حيث سقط العديد من القتلى في صفوف القوات الغازية مع انها كانت تفوق، عددا وعدة، القوى المدافعة عن القلعة. وقد اضطرت القيادة الصهيونية الى تعديل الكثير من حساباتها في ضوء هذا الصمود البطولي.

**نبيل هادي**

# معركة شقيف - ارنون بسالة القوات المشتركة احبطت اهداف العدوان

تميزت الفترة الماضية، الممتدة من العاشر من آب وحتى العاشر من ايلول، بأحداث هامة وخطيرة اجرت بعض التحولات في مسار المؤامرة ضد الثورة الفلسطينية في لبنان، على صعيد حسابات العملاء المحليين؛ وذلك بعد فشل العملية الاسرائيلية التي استهدفت قلعة الشقيف وارنون وكفرتبنيت، والتي كان الغرض منها نصب رأس جسر ارضي للتقدم واحراز مكاسب سياسية وعسكرية. هذا، وقد ترافق تصعيد العمل العسكري الفلسطيني داخل الارض المحتلة كما ونوعاً، كما اعترف العدو بذلك، مع انتصارات القوات المشتركة على قوات العدو في الجنوب. وتم في هذه الفترة ايضاً تفويت الفرصة على العدو وعملائه الذين كانوا يهدفون جميعاً الى خلق شقاق وتباعد بين الثورة الفلسطينية وجماهيرها الفلسطينية واللبنانية في الجنوب اللبناني.

## معركة الشقيف

تعد معركة الشقيف من ابرز احداث هذا الشهر؛ ففي قلعة الشقيف وارنون قاتل الفدائيون الفلسطينيون، في الثامن والتاسع عشر من آب المنصرم، في ظروف بالغة التعقيد وغير متكافئة ضد قوات العدو الصهيوني من لواءي غولاني والمظليين «٣٧»، واوقعوا خسائر فادحة في صفوفها ظهرت من خلال الارقام التي اعلنت والصور التي نشرت و «حوادث الطرق» التي تضاعفت فيها اعداد القتلى والجرحى خلال اسبوع معارك الشقيف وارنون، فقط.

**سير المعركة**: كان لواء غولاني الصهيوني مع وحدات من المظليين قد اجرت مناورات في المرتفعات السورية المحتلة قبل الهجوم على ارنون والشقيف بحوالى اسبوعين، وقد شارك في هذه المناورات قوات من سلاح المشاة المحمولة «المظليين» «غولاني»؛ ومن سلاح المدفعية؛ وسلاح الدبابات؛ وسلاح الجو (ر.إ.إ.»، ١/٨/٩٨٠).

وبعد احتلال لسبع هضاب التي استهدفتها المناورات، اجرت القوات المشاركة في المناورات انسحابا تم سيرا على الاقدام لمسافة ٣٥ كلم.

وكان قائد اللواء غولاني قد صرح لصحيفة «معاريف» (١ - ١٠/٨/١٩٨٠) بعد المناورة، «ان بين الزهراني والليطاني ارضا يسيطر عليها الفدائيون سيطرة كاملة، وعلينا مهاجمتها دون هوادة فإما ان نمارس سياسة المبادرة واما ان نعيش في ظل التهديد بوقوع هجمات مفاجئة».

اما الجنرال مردخاي تسيبوري، نائب وزير الدفاع الاسرائيلي فقد قال، قبل الهجوم على ارنون بثلاثة ايام «ان الهجمات المباشرة على الفدائيين الفلسطينيين في جنوب لبنان افضل بكثير من القصف المدفعي والجوي لانها تضاعف خسائرهم» («ي. ب» ؛ «أ.ب»؛ «أ ف» ، ١٥/٨/٩٧٥).

وفي مقابلة لتسيبوري مع تلفزيون اسرائيل قال:

يجب ان نبقي الفدائيين، طوال الوقت، في وضع يفكرون فيه بكيفية الدفاع عن انفسهم، بدلا من ان يفكروا بمهاجمتنا. وكلما كانت المبادرة في ايدينا زاد الهدوء، انني افضل الضربات المباشرة التي لها اهمية كبرى.

وقد كانت المناورات والتصريحات التي سبقت الهجوم جزءا من سير المعركة، كما ان العدو كان يهدف من ورائها الى امرين هما:

- تحقيق عنصر المفاجأة.
- القيام بعمليات تمويهية، وتحرك في اكثر من مكان من الجنوب والشاطىء.

وقد اشرف مناحيم بيغن، رئيس وزراء الكيان الصهيوني، شخصيا على سير المعارك؛ وذلك لاهميتها، واهمية الاهداف المراد مهاجمتها، ولدقة الوقت؛ وكان يرافقه في ذلك مردخاي تسيبوري، نائب وزير الدفاع، ورفائيل ايتان، رئيس اركان القوات الصهيونية، وافيغدور بن غال قائد المنطقة الشمالية.

بدأت قوات العدو زحفها عند الساعة التاسعة من مساء ١٨/٨/١٩٨٠؛ وفي هذا الوقت كانت توجد زوارق حربية قرب شاطىء صور والراشيدية والشواكير. وعند الساعة العاشرة، قصفت المدفعية الاسرائيلية بلدة ومنطقة يحمر بقصد التمويه، وتشتيت انتباه القوات المشتركة في هذه المناطق. كما قامت طائرات مروحية، في نفس الوقت، باكثر من طلعة فوق هذه المواقع وبخاصة الشواكير وصور والراشيدية ويحمر.

اسقط العدو قواته المظلية في الثانية عشرة والنصف حول منطقة ارنون، وكفرتبنيت، والقلعة، وباشرت طائراته المروحية بقصف القوات المشتركة في هذه المواقع بالصواريخ لتسهيل عمليات الانزال التي قدرت بسريتي مشاة، وحاولت التقدم باتجاه الرادار. ولدى الانزال، اصطدمت القوة بكمين للقوات المشتركة. ثم تابعت قوة اخرى زحفها باتجاه القلعة، وتمكنت القوات المشتركة في القلعة من صدها، عند الساعة الواحدة والربع صباحا، وافشال خطة الهجوم. وقد منعت قوات العدو من الوصول الى القلعة، كما ساندت القلعة جميع المواقع التي تمت مهاجمتها، وحتى الساعة الخامسة الا خمس دقائق؛ حيث بدأ الطيران الصهيوني الحربي هجومه على القلعة وبقنابل ٣٦٠٠ باوند لفك الحصار عن قواته التي حوصرت في اكثر من موقع وهي منسحبة باتجاه الخردلي.

## محور كفرتبنيت

بدأت القوات المشتركة، في هذا المحور، استعدادها على ضوء تقديرها للموقف المترتب عن حشودات وتحركات قوات العدو؛ وذلك منذ ان بدأ العدو في اجراء المناورات لقواته في الجولان آخذة بعين الاعتبار تصريحات قادة الكيان الصهيوني.

وبدأ العدو هجومه على محور كفرتبنيت بإنزال قواته في موقعين:

١ - من جهة قصر غندور (رياض الصلح سابقا)، والذي يشرف على جسر الخردلي ويواجه حرش النبي طاهر، وفي هذا الموقع، فوجئت، قوات العدو بكمين للقوات المشتركة اشتبك معها بمختلف الاسلحة ووجها لوجه.

٢ - جسر الخردلي؛ حيث تمركزت قوة مشاة قصفت بمدفعيتها بلدة كفرتبنيت لتسهيل عملية الانزال في حرش النبي طاهر. ثم بدأت هذه القوات في التقدم باتجاه الحرش، ثم كفرتبنيت البلدة. لكن المواجهة الفلسطينية واللبنانية من القوات المشتركة، كانت ضارية، وبخاصة في حرش النبي طاهر؛ حيث جرت بعد نفاذ الذخائر، اشتباكات بالسلاح الابيض، كما تبين فيما بعد، من آثار الدماء وسير المعارك، وقد قدر حجم القوات المعادية التي هاجمت كفرتبنيت وحرش النبي طاهر بـ كتيبتين؛ نفذت الاولى منهما العملية، وشكلت الثانية خط دفاع وحماية امتد من الخردلي حتى البلدة، وشمل قرب القلعة والحرش بقصد قطع طرق الامداد على القوات المشتركة. ورغم كثافة قوات العدو، وتفوقها بنسبة «٢٠ الى ١» فإن قوات الاسناد والامداد للقوات المشتركة وصلت في الوقت المناسب والى المكان المحدد للمشاركة، في افشال الهجوم الاسرائيلي، بل حاصرت معظم القوة الاسرائيلية التي هاجمت محاور كفرتبنيت والحرش وبدأت في تمشيط المنطقة. ولم تفلت هذه القوة من الحصار الا بعد

تدخل طيران العدو الذي قصف المنطقة قصفا لم تشهده المعارك السابقة؛ اذ بلغت طلعاته ٣٢ طلعة خلال ساعتين، فقصف القلعة ومعظم قواعد ومراكز القوات المشتركة والقرى اللبنانية المحيطة بالطيران.

وتبين فيما بعد، من خلال اعترافات العدو، ان وحدات المشاة استخدمت النظارات الليلية المزودة بالاشعة ما تحت الحمراء؛ والتي تتيح للجندي الصهيوني ان يتصرف وكأن القتال يجري نهارا.

اما في الرادار جنوبي القلعة، فقد اشتبكت مجموعة من القوات المشتركة بالسلاح الابيض مع القوة المعادية المهاجمة التي بلغ عدد افرادها اكثر من مائة جندي موزعين على ثلاثة مجموعات؛ ورغم ذلك، لم يتمكنوا من اكمال تقدمهم عبر الخندق الواصل بين الرادار والقلعة. وتبين ان قوة اخرى معادية قد تم انزالها غربي القلعة، وبدأت بالتقدم باتجاهها، الا ان القوة المتمركزة في القلعة اعاقت تقدم هذه القوة وكذلك القوات المعادية المتقدمة من جهة الرادار؛ اذ طلب قائد موقع القلعة قصف مداخلها اضافة الى المنطقة المحيطة، حتى يمكن لقوته مساندة مواقع اخرى طلبت الاسناد. وجرى ذلك، فقد سقطت اول قذيفة من القوات المشتركة على بعد ٣ امتار من سور القلعة وبدأت قوات العدو بالتقهقر، عندها قال قائد موقع القلعة انه يستطيع مساندة المواقع الاخرى. ولم يصب احد في موقع القلعة طيلة ساعات القتال الا بعد مجيء الطيران الاسرائيلي، حيث سقط خمسة شهداء، تعذر سحب جثثهم لبعض الوقت بسبب ركام القصف الذي ارتفع كثيرا، مما شكل صعوبة في وصول اية آليات لاستخدامها في رفع الانقاض، وكذلك بسبب استمرار العدو في قصف الموقع.

**اهداف العدو من وراء عملية ارنون والشقيف**

اجمع المراقبون والمحللون السياسيون، المحليون والاجانب، على ان عملية القوات الصهيونية ضد ارنون – الشقيف ومحور كفرتبنيت ومواقع القوات المشتركة في تلك المنطقة كانت تهدف الى:

● شل القدرة الفلسطينية العسكرية، ومحاولة الحاق هزيمة عسكرية بالقوات الفلسطينية تمهيدا لتنفيذ مآرب ثالوث كمب ديفيد.

● نقل معركة المواجهة بين الثوار الفلسطينيين والعدو الصهيوني من داخل ارضنا الفلسطينية المحتلة الى خارج الارض المحتلة، والى جنوب لبنان بالتحديد.

● الاقتراب من خطوط التماس مع القوات السورية؛ اذ ان العدو الصهيوني مقبل على ضم الجولان نهائيا وبالتالي يريد احراز مواقع دفاعية متقدمة لحماية مواقعه الخلفية.

● خلق حقائق سياسية وجغرافية جديدة في المنطقة، في محاولة، لاخراج ثالوث كمب ديفيد من عزلته وبالتحديد اخراج اسرائيل من عزلتها التي تفاقمت بعد قرار ضم القدس، والقرارات الدولية المتلاحقة التي تدين الكيان الصهيوني وطبيعته العدوانية.

● التحرش بالقوات السورية، في محاولة لجرها الى معركة تفرض فيها اسرائيل المكان والزمان، لتوجيه ضربة عسكرية وقائية ضد القوة العسكرية السورية المتنامية.

● تعميق الشرخ في الصف الوطني الفلسطيني واللبناني وتأليب المواطنين اللبنانيين والجنوبيين بوجه خاص، ضد القوات المشتركة من خلال استمرار عمليات القوات الاسرائيلية ضد المواقع الوطنية.

**نتائج معركة الشقيف**

حتى اليوم (١٥/٩/١٩٨٠)، توالي الوفود الصحفية العالمية والملحقين العسكريين في السفارات الاجنبية في لبنان، زياراتها لمناطق سير المعارك لدراسة المعركة من كل جوانبها وابعادها العسكرية والسياسية والجغرافية، ومعرفة موازين القوى في المنطقة، وسر الهزيمة الصهيونية.

ولانفشي سرا ان قلنا ان اسرائيل تكبدت خسائر فادحة في الارواح والمعدات و «السمعة». فقد هزمت اسرائيل، رغم تفوقها العددي، في ارض المعركة والمواجهة (٢٠ جنديا صهيونيا مقابل مقاتل فلسطيني واحد، ولبناني وطني واحد)،

ورغم الاسناد المدفعي والصاروخي المذهل الذي لم تشهد ارض الجنوب مثيلا له الا خلال حرب الـ ٨ ايام؛ ورغم اسناد الطيران المروحي الذي يشارك لاول مرة بقصف جوي من صواريخ جو – ارض يدوم حتى بزوغ الصباح، بالاضافة لمشاركة الطائرات الحربية الصهيونية من انواع «كفير» وف ١٥، وف١٦، في قصف الشقيف ومواقع القوات المشتركة.

هذا، وقد اعترفت القيادة الاسرائيلية بمقتل ثلاثة جنود (ضابطان وصف ضابط) وباصابة اثني عشر جنديا بجراح. وهناك صورة ذات دلالة وزعت عبر وكالة الـ «اسيوشيتدبرس» الامريكية لمناحيم بيغن مع جنرالاته وضباط اركانه في مستوطنة المطلة على الحدود اللبنانية الفلسطينية يبدو فيها الفشل ظاهرا على وجهه ووجوه اركانه وقادة حربه. ومما يكتسب دلالة في هذا المجال، ذلك التقرير الذي اعده قائد شرطة العدو، والذي جاء فيه ان حوادث الطرق وعدد القتلى والجرحى من جرائها، تضاعف خلال الاسبوع الذي اعقب معركة ارنون والشقيف؛ مما اعتبره المراقبون خسائر صهيونية، في هذه المعركة، عزيت الى حوادث الطرق في محاولة لرفع معنويات المستوطنين الصهاينة وعدم الاعتراف بحجم الخسائر البشرية.

وعقب انتهاء معركة الشقيف وارنون، قال مكتب اعلام الامم المتحدة في بيروت، ان قوات اسرائيل دخلت منطقة الشريط الحدودي في القطاعين الاوسط والشرقي. وان القوات الاسرائيلية وقوات الامر الواقع (ميليشيات سعد حداد) منعت القوات الدولية من التجول في الشريط الحدودي.

اذن القوات الاسرائيلية تريد الانتقام واعادة الكرة لاحتلال المواقع التي فشلت، في المرات السابقة، باحتلالها، ورد الاعتبار الى لواء غولاني الذي لم يذق طعم الهزيمة منذ تكوينه عام ١٩٤٨، الا على ايدي القوات المشتركة.

سير المعركة كما رواها الناطق باسم القيادة المركزية للقوات المشتركة، وكما نقلته («وفا» فجر يوم ١٩/٨/١٩٨٠):

اولا: منذ الساعة التاسعة الا خمس دقائق مساء تشاهد زوارق حربية عدة معادية مقابل منطقة الراشيدية – الشواكير – رأس العين.

ثانيا: عند الساعة العاشرة والنصف، قام العدو الصهيوني الانعزالي بقصف مدفعي على منطقة يحمر ولا يزال القصف مستمرا حتى الآن.

ثالثا: عند الساعة ١١,٥٥، يقوم طيران العدو المروحي بطلعات استكشافية فوق منطقة الراشيدية – الشواكير ويحمر.

رابعا: عند الساعة ١٢,٣٠ قام العدو الصهيوني بعملية انزال حول منطقة ارنون، وكفرتبنيت، والقلعة، وتقوم قواتنا في منطقة القلعة بالتعامل مع القوات الصهيونية المغيرة.

خامسا: عند الساعة ١٢,٣٠ قام العدو الصهيوني بعملية انزال حول منطقة ارنون، وكفرتبنيت، والقلعة، وتقوم قواتنا بالتعامل مع قوات العدو، ما زالت قواتنا في منطقة القلعة تتعامل مع القوات الصهيونية المغيرة.

سادسا: ما زالت قواتنا في منطقة القلعة تتعامل مع القوات الصهيونية المغيرة التي تستخدم طائرات الهيلوكبتر بهدف انجاح عملية الانزال في الساعة الثانية عشرة وخمس وخمسين دقيقة.

سابعا: عند الساعة الواحدة والربع افشلت قواتنا خطة العدو بالوصول الى اهدافه، وتقوم القوات المشتركة بالتصدي للقوات المعادية وتتعامل معها بكافة الاسلحة.

ثامنا: عند الساعة ١,٣٠، لا تزال قواتنا في القلعة، وحرش النبي طاهر تقوم بالتعامل مع العدو الغازي.

تاسعا: تقوم القوات المشتركة بتعزيز قواتنا الملتحمة مع العدو في بلدة كفرتبنيت.

عاشرا: الساعة الثانية الا خمس دقائق، الوضع في القلعة ما زال جيدا، تقوم القوات المشتركة بدعم قواتنا في مواجهة تحركات القوات المعادية ومحاولة الاقتراب من بلدة ارنون.

حادي عشر: عند الساعة الثانية والربع، بدأ العدو بقصف مدفعي على القلعة، ولا تزال الاشتباكات مستمرة في حرش النبي طاهر.

ثاني عشر: تقوم مدفعية العدو الثقيلة، بعيدة المدى بقصف القلعة بشكل عشوائي كثيف بعد ان فشلت قواته في الوصول اليها عدة مرات.

ثالث عشر: افشل ثوارنا عملية الهجوم الاسرائيلية عند الساعة الثالثة والنصف على القلعة وارنون وكفرتبنيت وتقوم قواتنا بملاحقة فلول العدو في حرش النبي طاهر، وتساعد قواتنا في ارنون قواتنا في حرش النبي طاهر وحول كفرتبنيت.

رابع عشر: تمكن ثوارنا من افشال الهجوم ومحاصرة قوة للعدو وهي منسحبة باتجاه جسر الخردلي في حرش مجاور للجسر.

خامس عشر: قامت اربع طائرات حربية اسرائيلية، صباح اليوم ١٩/٨/١٩٨٠ الساعة السادسة، بقصف قلعة الشقيف بالقنابل الثقيلة والصواريخ ونتج عن القصف الوحشي استشهاد اربعة من ثوارنا الابطال واصابة خمسة بجراح. ويهدف العدو من قصف القلعة الى وقف مقاومة ثوارنا بعد صمودهم الاسطوري في وجه محاولة الانزال والاحتلال الفاشلة التي قام بها على القلعة وبلدة ارنون وكفرتبنيت وحرش النبي طاهر والمنطقة المحيطة. وكذلك العمل على اخلاء خسائر قواته التي عجز عن اخلائها حتى الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم ١٩/٨/١٩٨٠.

سادس عشر: بلغ عدد شهداء القوات المشتركة احد عشر شهيدا واثني عشر جريحا، في حين ان خسائر العدو بلغت اكثر من ثلاثين بين قتيل وجريح.

ومما يجدر تسجيله عن سير المعركة الوقائع التالية:

● روى المراسلون الصحفيون العرب والاجانب ان جزءا من المعارك جرى بالسلاح الابيض وبخاصة في موقعي الرادار جنوبي القلعة، وحرش النبي طاهر.

● لم تتبق ذخائر او اعتدة لدى جميع الشهداء الذين سقطوا من القوات المشتركة؛ مما يدل على مدى الصمود الذي استمر حتى الرمق الاخير.

● النجدات الفلسطينية وصلت بسرعة مما اذهل العدو واربك قواته.

● اشرف الاخ ياسر عرفات، رئيس اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف. والقائد العام لقوات الثورة الفلسطينية، على المعركة شخصياً، وذلك فور عودته من الرباط، حيث عقد مؤتمر لجنة القدس، وكان مركز قيادته على بعد مئات من الامتار من ارض المعركة مما رفع الروح المعنوية لدى المقاتلين الفلسطينيين والقوات المشتركة.

**الرواية الاسرائيلية لعملية الشقيف:** نقلا عن (ر.إ.إ.»؛ «أب»؛ «ي.ب»؛ «و.أ.ف.»). قال الجنرال يهوشوا ساجي، رئيس الاستخبارات الحربية الاسرائيلية، «ان العملية الاسرائيلية التي تمت ضد قواعد الفدائيين في لبنان، تعد واحدة من اكبر العمليات التي تمت خلال السنوات الثلاث الماضية، سواء من حيث الاهداف التي هوجمت ام من حيث عدد العناصر العسكرية التي اشتركت فيها».

واضاف ساجي يقول في مؤتمر صحفي عقده بعد انتهاء العملية في المطلة: «ان جميع الاهداف التي تقع في منطقة ارنون ومزرعة علي الطاهر ويحمر وجبل طهارة قد هوجمت». وقال ساجي: ان هذه المواقع الواقعة في اصبع الجليل قد دأبت على فتح نيران اسلحتها على الجيب المسحي في مرجعيون وان ما بين ٢٠٠ – ٣٠٠ فدائي متمركزون فيها. واشار الى ان هدف اسرائيل من العملية وقائي وهو خلخلة تنظيم الفدائيين، ومنعهم من شن عمليات جديدة ضد اسرائيل، وذكر ان هذه العمليات زاد عددها ثلاثة اضعاف خلال الشهرين الماضيين (٦٠ عملية).

واعترف ساجي بشراسة القتال وصمود مقاتلي القوات المشتركة وقال: ان الفدائيين « في حالة طوارىء منذ ٣ اسابيع، وقد استغرقت المعارك مدة ساعتين، وحدث خلالها اكثر من التحام مباشر من اجل احتلال مبان وحصون للفدائيين وان ثلاثة جنود قد قتلوا وجرح ١٢ احدهم في حالة الخطر.

**الموقف الاميركي:** ومن اهم ردود الفعل على العدوان الصهيوني الموقف الاميركي؛ فقد

قال ناطق بلسان وزارة الخارجية، وهو يرد على سؤال صحفي حول عدوان اسرائيل، إن الادارة الاميركية تعرب عن قلقها لما حدث؛ وذكر الناطق ان القوات الاسرائيلية قد عادت الى قواعدها في اسرائيل.

**رد القوات المشتركة** («**وفا**»، ٢٠/٨/١٩٨٠): يوم الـ ٢٠ من آب، قصف العدو مدينة النبطية وقصفت طائراته مخيمها، وشوكين وقلعة الشقيف وتلة ارنون؛ وقد دام القصف من الساعة الثانية عشرة وخمس واربعين دقيقة حتى الساعة الخامسة عشرة وخمس عشرة دقيقة بشكل كثيف ومتواصل، ووصلت عدد الطلعات الى ٢٨ طلعة طيران وقصف.

وردا على ذلك، قامت وحدة الصواريخ الثقيلة في القوات المشتركة، عند الساعة الثامنة صباح الـ ٢٠/٨/١٩٨٠، بقصف صاروخي مركز على الاهداف العسكرية والحيوية في مستوطنة كريات شمونة ردا على الهجوم الصهيوني على النبطية وارنون وكفرتبنيت وقلعة ارنون، وقد اصابت الصواريخ اهدافها واوقعت عددا من الاصابات المباشرة في المستوطنة.

**الموقف داخل الارض المحتلة**

يقول «ضابط المتفجرات» في الشرطة الاسرائيلية يوسف وايزمن ان النشاط الفدائي داخل الارض المحتلة، يزداد كلما حاول الجيش الصهيوني ضرب قواعد الفدائيين في لبنان. ويعترف بأن واضعي العبوات هم من سكان الداخل. (**ر.إ.إ**»؛ «اذاعة الجيش الاسرائيلي»). وهذا الاعتراف مخالف لما اعتاد ان يردده الناطقون العسكريون الاسرائيليون دائما، من ان واضعي العبوات هم من الفدائيين القادمين من جنوب لبنان. ويضيف وايزمن قائلا: كما ان هناك تطورا في وضع العبوات وتصنيعها وتمويهها بصورة جيدة؛ وهكذا تزداد صعوبة كشفها باستمرار؛ وعندما لا تكتشف تقع الكوارث. ويرجو وايزمن المستوطنين الصهاينة الابلاغ عن اي جسم مشبوه، وعدم التردد في الابلاغ.

وهذه الزيادة التي يتحدث عنها وايزمن تتمثل في سلسلة من العمليات هي:

● وقع إنفجاران، ليلة ٢٩/٨/١٩٨٠، في مدينة تل ابيب، ودُمِّر منزلان.

● جرح يوم ٣١/٨/١٩٨٠، ١٤ شخصا، في مدينة يروحام، اثر انفجار قنبلة في مقهى يقع في وسط المدينة التجاري.

● جرح في حادثة طرق وقعت بالقرب من «عراد»، في اعقاب انقلاب باص تابع لشركة ايجد صباح ٢/٩/٨٠، ٤٢ شخصا، وذكر راديو اسرائيل ان سبب انقلاب الباص يعود الى «سكب زيت ـ على الطريق مما ادى الى انحراف الباص وقلبه».

● تم احراق احد المتاجروسط تل – ابيب،يوم ٣١/٨/١٩٨٠، والخسائر تقدر بالملايين من الدولارات.

● تم ابطال مفعول عبوتين ناسفتين في ديمونه والقدس يوم ١٢/٨/٨٠ («**ر.إ.إ.**»).

● القيت قنبلة مولوتوف على باص صهيوني قرب القدس وتم اعتقال ١٣ مواطنا («**المصدر نفسه**»، ١٣/٨/٩٨٠).

● احراق الطابق الخامس في جامعة تل – ابيب كلية الطب، وتقدر الخسائر بملايين الليرات؛ ومن الاجهزة التي احترقت اجهزة علمية دقيقة («**المصدر نفسه**»، ١٤/٨/٩٨٠).

● تم اكتشاف عبوة في مفترق طرق بيت ليد، حيث يوجد موقف عسكري للجنود والضباط الصهاينة، وقد انفجرت العبوة لدى تفكيكها، واصيب نتيجة لذلك العديد من الصهاينة («**وفا**»؛ «**المصدر نفسه**»)

● حريق في بناية سكنية بناتانيا، في شارع هيرتسوغ («**المصدر نفسه**»: ١٥/٨/٩٨٠).

● هاجمت جماهير مخيم الحلزون الواقع قرب مدينة رام الله سيارتين عسكريتين كبيرتين بالحجارة وحطمتهما («**المصدر نفسه**»؛ «**وفا**»؛ «**و.أ.ف**»؛ «**رويتر**»).

● ذكر مراسل إذاعة اسرائيل، في تقرير له من الحدود الشمالية لفلسطين المحتلة، ان سكان مستعمرات الجليل الاعلى ينهمكون الآن،

باصلاح الاضرار التي تقدر بمئات الملايين من الليرات، والتي الحقت بالمستعمرات من جراء اطلاق الفدائيين الصواريخ باتجاهها. وهذه الاضرار تتمثل بتحطم زجاج المباني، وقطع اسلاك الهاتف واعطاب العديد من السيارات و الى مد الاضرار بالمزروعات («ر.إ.إ.»؛ «أ.ب»).

● بعد عملية الشقيف وارنون «قتل ٢١ شخصا، وجرح ٢١٨ آخرين خلال حوادث الطرق التي وقعت خلال هذا الاسبوع، وبين الجرحى ٩٣ جراحهم خطرة («**المصدر نفسه**»).

● قتل اربعة مستوطنين، واصيب شخص آخر في حادثة طرق جنوبي بئر السبع نتيجة اصطدام شاحنة عسكرية بسيارة اجرة («**المصدر نفسه**»).

● جرت عمليتان فدائيتان في محطة وقود، الاولى في نفي ايلان، والثانية في محطة نقل جنود، عند الخروج من مدينة القدس. وقد اصيب ١٣ شخصا في الانفجار الاول وتوفي احدهم متأثرا بجراحه («**المصدر نفسه**»، ٢٥/٨/٩٨٠).

● تم اكتشاف عبوة اخرى في هرتسليا وتم تعطيلها كما زعم الناطق الصهيوني («**المصدر نفسه**»، ٢٥/٨/٩٨٠).

● تم اكتشاف عبوة ناسفة وابطال مفعولها وتفجيرها في سوق الكرمل تل - ابيب («**المصدر نفسه**»، ٢٥/٨/٩٨٠).

● نسف العدو منزل المواطن الفلسطيني حسن علي نمير من مدينة نابلس، بدعوى ان له علاقة بحركة فتح، وانه مسؤول عن وضع عبوات في سوق الكرمل تل -ابيب، مما ادى الى قتل واصابة العشرات من الصهاينة («**المصدر نفسه**»، ٢٦/٨/٩٨٠).

● تم تفجير سيارة في مستوطنة كريات غات في حي غليكسون تعود لضابط مخابرات صهيوني («**المصدر نفسه**»؛ ٢٨/٨/٩٨٠؛ «**وفا**»).

● انفجرت قنبلة في المحطة المركزية في شارع «يسود همعلاه» بتل - ابيب اسفرت عن خسائر مادية، وتكتم العدو عن خسائره البشرية («**المصدر نفسه**»؛ «**وفا**»، ٣١/٨/٩٨٠).

● عبوة ناسفة موقوته داخل شارع رزئيل بمدينة ناتانيا، اعترف العدو باصابة اثنين من مستوطنيه فيها («**المصدر نفسه**»، ٤/٩/٩٨٠؛ «**وفا**»).

## الموقف في الجنوب اللبناني

قبل قيام القوات الاسرائيلية بعمليتها الفاشلة لاحتلال الشقيف قامت بعملية انزال فاشلة شمالي مدينة صيدا، وكانت على جانب كبير من الخطورة والاهمية؛ بحيث لا تقل اهمية وخطورة عن عملية الشقيف. ففي الساعة السابعة من يوم ١٥/٨/٩٨٠، سجلت مراقبات الثورة الفلسطينية نشاطا بحريا اسرائيليا امتد من منطقة صور وحتى الزهراني، وبناء على هذه التحركات صدرت الاوامر الى القوات والكمائن المنتشرة على الشاطىء بالحيطة والحذر. وعند الساعة الثامنة واربعين دقيقة، سجلت تحركات قبالة صيدا - المدينة الصناعية، وقبالة الجيه. وعند الساعة التاسعة والاربعين دقيقة، قامت الزوارق الاسرائيلية بعملية انزال كوماندوس على الشاطىء المقابل للمدينة الصناعية في صيدا، وانتشرت خلف السد المائي المسلح بالاسمنت. وفور نزول القوة الاسرائيلية، اشتبك الكمين الارضي مع القوة الصهيونية واستشهد البطلان هراج بابكيان اوهاني وموفق خالد حسن وهما يلتحمان في قتال مع القوة الاسرائيلية. وسارعت قوات اسناد الى ارض المعركة وساهمت في افشال العملية وانزلت بالقوات المعتدية خسائر فادحة. وخلف العدو في ارض المعركة اسلحة وذخائر وآثار دماء («**وفا**»، ١٥/٨/٩٨٠).

وقالت وكالتا «أ.ب» و «**الصحافة الفرنسية**»، نقلا عن مصادر اسرائيلية في تل ابيب، ان الجنرال رفائيل ايتان . رئيس اركان الجيش الاسرائيلي، كان يشرف بنفسه على الهجوم الاسرائيلي قاصدا منه وضع رأس جسر ارضي للانتشار شمالا وجنوبا، وعزل المنطقة لتحدث عملية ارنون الشقيف - النبطية مع عمليات اخرى، في مناطق اخرى، وبالتناغم مع ميليشيات الانعزاليين في شرقي بيروت لمشاغلة المناطق الوطنية وتنفيذ خطة الاوكارديون التي تحدث عنها الاخ ياسر عرفات.

وقد منح ياسر عرفات اوسمة للمقاتلين الفلسطينيين ومقاتلي القوات المشتركة الذين صدوا الهجوم شمال صيدا.

كما تخلل الفترة، ما بعد عملية الشقيف الفاشلة، عمليات قصف مدفعي وصاروخي لمدن صيدا والنبطية وصور والمخيمات الفلسطينية المحيطة، وكذلك للقرى اللبنانية وصدت القوات المشتركة اكثر من محاولة اسرائيلية للانزال على طول الساحل الممتد من بيروت حتى صور.

ويوم ١٩٨٠/٨/٢٩، حاولت زوارق العدو الصهيوني الانزال في القاسمية والراشيدية. وقد تصدت القوات المشتركة للزوارق الصهيونية واجبرتها على العودة والانكفاء الى عرض البحر، رغم الغطاء الجوي لهذه الزوارق والقصف البري الممهد لعملية الانزال («**السفير**»، ٩٨٠/٨/٣٠).

**عبد الحميد سالم ابو الفتوح**

# إدانة اسرائيـل في مجلس الامن
# وجولة لينوفيتش في المنطقة

يبدو ان الرئيس السادات لا يملك في مواجهة التشدد الاسرائيلي ازاء محادثات الحكم الذاتي التي تجري حسب اتفاقيات كامب ديفيد، الا اتباع مناورة وحيدة اصبح الاسرائيليون يدركون ابعادها، ومسارها، والى اين تنتهي. فبعد كل تصرف اسرائيلي يزعج السادات، يلجأ هذا الاخير الى مناورة وقف المحادثات الجارية بين الوفدين الاسرائيلي والمصري، وإظهار التشدد، ثم لا تلبث الادارة الاميركية ان تتدخل، ويتراجع السادات ويعلن، من جديد، عن استئناف المحادثات اظهارا لحسن نواياه، واستجابة لرغبة الادارة الاميركية في استمرار مسيرة السلام، وبخاصة في الظروف الحالية، التي تسبق معركة الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة.

**اسلوب تبادل المذكرات**

وهكذا، لم يجد السادات، فيما يتعلق بالقدس ردا على قرار الكنيست الاسرائيلي، اسلوبا افضل من لعبته المعروفة، فبادر الى الاعلان عن وقف المحادثات المتعلقة بمفاوضات الحكم الذاتي. ومن اجل تفادي أزمة حادة في مسار السلام، لجأ الى استخدام اسلوب الرسائل المتبادلة مع مناحيم بيغن رئيس الوزراء الاسرائيلي. فقد ارسل السادات خلال شهر آب (اغسطس) الماضي، ثلاث رسائل، وتلقى ردودا عليها من بيغن، وما لبث السادات نفسه ان اعلن وقف هذا الاسلوب لعدم فائدته، ودعا الى العودة للحوار عبر الاساليب الهادئة.

والواقع، ان اي تقدم لم يطرأ،نتيجة للرسائل، على الموقف، بل على العكس، فقد اكد الطرفان على مواقفهما المعروفة بالنسبة لكل القضايا موضوع الخلاف.

فقد تضمنت رسائل الرئيس المصري، اعلان استيائه من التصرفات الاسرائيلية فيما يتعلق ببناء المستوطنات، وقانون القدس، والابتعاد عن روح اتفاقات كامب ديفيد. وطالب، اساسا، بعقد قمة ثلاثية بعد الانتخابات الاميركية. ولم تخل ردود مناحيم بيغن من اتهام مصر بأنها اوقفت محادثات الحكم الذاتي في كل المرات التي حصل فيها ذلك. ولم يرفض بيغن مباشرة طلب السادات عقد قمة ثلاثية، لكنه حدد موقفه بأن اي قرار «بشأن خطوة كهذه، يجب ان يتخذ بالتشاور بين اسرائيل ومصر والولايات المتحدة، وليس بصورة إفرادية» («ر. إ. إ.»، العدد ٢١٣٣، ١٨ و١٩ / ٨ / ٩٨٠، ص ١٢٠).

ولو تفحصنا مقاطع من احدى رسائل بيغن للسادات، والتي تسربت نصوصها كاملة الى الصحافة الاسرائيلية،لتبين لنا الى اي حد وصل حوار الطرشان بين الطرفين عبر اسلوب المذكرات المتبادلة. ففي رسالته المؤرخة بتاريخ ١٨/٨/١٩٨٠، رد بيغن على رسالة السادات

الثالثة، متناولا كل فقرة على حدة. فبالنسبة للمستوطنات، كذب بيغن ما ذكر عن التزامه بوقف بناء المستوطنات الجديدة، بموجب اتفاقات كامب ديفيد. وذكر السادات بالمذكرة التي ارسلها الى كارتر بهذا الشأن في ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨، والتي جاء فيها «اتشرف بأن اعلمك انه خلال فترة المفاوضات المتفق عليها [ثلاثة اشهر] للتوقيع على اتفاق السلام، لن تقام مستوطنات جديدة من قبل حكومة اسرائيل» («**هارتس**»، ٢٠/٨/١٩٨٠). وبالنسبة للقدس، اكد بيغن موقفه المعروف، والقائل ان القدس عاصمة اسرائيل، وهي مدينة موحدة لا يمكن تقسيمها. وحول اقتراح السادات قيام سلطتين للاشراف على القدس، رد بيغن بكل صراحة ووضوح، انه لا يؤيد الفكرة: «انني لا افهم خطة تقضي بأن تكون مدينة واحدة تحت سلطتين، او ان تكون سلطتان على مدينة واحدة» (**المصدر نفسه**).

واعاد بيغن إلى الاذهان قضية العبارات المختلفة لتفسير قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ [كل الاراضي، والاراضي، واراض]. مشددا على ان الامر بالنسبة للاسرائيليين، ليس قضية عبارات مجردة. واكد رفض اسرائيل القبول بالعبارتين الاولى والثانية، وذلك منذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧، وتمسكها بعبارة «آراض». ومما قاله بيغن: وعلى هذا الاساس، «لسنا ملزمين بأي صورة بتنفيذ ما يدعى انسحاباً كاملاً» (**المصدر نفسه**). واخيراً، رد بيغن على النقطة الاخيرة التي اثارها السادات والمؤلفة من قسمين:

أ - عدم استئناف مفاوضات الحكم الذاتي حتى ٤ تشرين الثاني (نوفمبر)، وارجاء انعقادها الى موعد غير محدد بعد الانتخابات الاميركية.

ب - بعد هذا الموعد يجري عقد لقاء قمة ثلاثي يضم السادات وبيغن وكارتر.

طالب بيغن في رده على هذا الاقتراح، استئناف محادثات الحكم الذاتي دون اي تأخير. وبالنسبة لاجتماع القمة الثلاثي، قال بيغن: «لقد فهمت انكم لم تستشيروا الرئيس كارتر، واسمح لي بالقول، انه كان هناك مجال لاستشارته واستشارتي بالطرق الدبلوماسية، وربما نستطيع بهدوء، الآن على الاقل، تقييم الموضوع، والتاريخ، والمكان، اذا ما وافق الاطراف الثلاثة على المبدأ نفسه. ويجب الا يمنع هذا الامر، تحت كل الظروف، استئناف محادثات الحكم الذاتي بلا توقف». (**المصدر نفسه**).

وفي القاهرة، وصفت رسائل بيغن بأنها لا تحمل اسسا ايجابية تمكن من استئناف المفاوضات. وبناء عليه، قرر السادات وقف اسلوب تبادل الرسائل. والحقيقة ان الرد الاسرائيلي كان ينبع دائما من اعتبار ان السادات يريد، بهذا الاسلوب، المحافظة على جمود الموقف. فالرئيس السادات، يطالب بعقد قمة ثلاثية مع انه «يمكن التكهن بأن الرئيس الاميركي لا يستطيع التفرغ، في معركة الانتخابات المرشحة، الآن، للدخول في اعلى مسار لها، كي يعتزل مع رئيس الحكومة الاسرائيلية ومع الرئيس المصري بغية تحريك الموقف. والواضح، انه لا يمكن توقع اي تقدم حتى تشرين الثاني (نوفمبر). والسؤال هو، بماذا سيملأ السادات الفراغ الذي سينتج بعد توقف حرب الرسائل» («**معاريف**»، ٢٠/٨/١٩٨٠، الافتتاحية). وحقيقة الامر، ان كل التعليقات الاسرائيلية حول موضوع الرسائل، التقت على تأكيد ان السادات يهدف الى كسب الوقت الى ما بعد الانتخابات الاميركية «وربما حتى بعد الانتخابات في اسرائيل. هذا دون خلق انطباع، انه يقوض اتفاقيات كامب ديفيد» (اريئيل غيناي، «**يديعوت احرونوت**»، ١٥/٨/١٩٨٠). ويضيف اريئيل، ان السادات يمهد الارض للعودة الى الصف العربي، وهذا واضح من خلال ربط رسائله بالتحركات التي يقوم بها على الصعيد العالمي. فقد ارسل بطرس غالي، وزير الدولة، الى رومانيا لتسليم رسالة الى الرئيس الروماني، وتوجه الى اوروبا، عبر حسني مبارك نائب الرئيس الذي قام بجولة واسعة فيها. وكذلك توجه الى دول العالم الثالث واميركا، حيث ارسل كمال حسن علي، وزير الخارجية، للقاء رؤساء وفود تلك الدول في مركز الامم المتحدة في نيويورك. ومن الطبيعي ان توجه السادات «لتأجيل محادثات الحكم الذاتي، تصطدم برغبة اسرائيل في استئنافها قبل الانتخابات الاميركية

لاستخدام ضغط صوت الناخب اليهودي» (**المصدر نفسه**).

**دعوة نافون لزيارة مصر**

في هذه الاثناء، سلم السفير المصري في اسرائيل، يوم ١٤/٨/١٩٨٠، اسحاق نافون الرئيس الاسرائيلي دعوة رسمية لزيارة القاهرة. واخبر نافون السفير انه، وفق القانون الاسرائيلي، يحتاج سفره كي ينفذ إلى موافقة الحكومة؛ لذلك فسوف يتشاور مع الحكومة لترتيب موضوع الزيارة.

وعرض الموضوع للنقاش في جلسة الحكومة، وجرى نقاش مطول بين الوزراء، فأعرب عدد منهم عن معارضة مبدأ الزيارة، بينما تحفظ آخرون على برنامجها. فقد عارض هوروفيتس، وزير المالية، قيام رئيس الدولة بالقاء خطاب امام مجلس الشعب المصري، لان السادات التزم امام بيغن، بأن يقوم هذا الاخير بالقاء خطاب امام المجلس «مقابل خطاب السادات الذي القاه امام الكنيست في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧، وان تجاهل ذلك من خلال دعوة الرئيس نافون لالقاء الخطاب هو اهانة لاسرائيل» (**«عل همشمار»**، ١٨/٨/١٩٨٠). اما نائب وزير الدفاع مردخاي تسيبوري، فقد عارض مبدأ الزيارة من اساسها لانها «سوف تستغل من قبل المعراخ في معركة الانتخابات». واضاف تسيبوري، ان السادات «ينظر الى اسرائيل كدولة من الدرجة الرابعة، وان كل نواياه تتركز على المساس ببيغن» (**المصدر نفسه**).

ومن جهة اخرى، وضمن مسيرة الشكوك المتبادلة بين كل من الطرفين المصري والاسرائيلي، اعتبرت كل التعليقات الرسمية وغير الرسمية في اسرائيل، ان السادات يريد استغلال زيارة نافون لاسباب خاصة به. فكتبت صحيفة «**هآرتس**» ١٨/٨/١٩٨٠، افتتاحيتها، تقول، ان الرئيس المصري يعتزم «غرس اسفين بين المعسكرين المتعارضين داخل الجمهور الاسرائيلي. وهو يريد ان يستخدم رئيس الدولة كأداة في لعبته السياسية ضد رئيس الحكومة».

وبين أ.شفايتسر، معلق صحفي التناقض البارز في دعوة نافون لزيارة مصر. فهي خطوة تظاهرية، تتم في الوقت الذي يعمل فيه السادات على وقف محادثات الحكم الذاتي، وفي الوقت الذي وصل فيه ممثله بطرس غالي الى «اتفاق شامل ومفصل مع الرئيس الروماني نيقولا تشاوتشيسكو في موضوع تنسيق خطوات السلام» (**المصدر نفسه**). وشبه المعلق سياسة السادات هذه بسياسة العصا والجزرة، فمصر تسعى لتحقيق هذه السياسة، عبر اظهار التمسك بسياسات السلام، والاستعداد للاعلان عن الصداقة مع اسرائيل ممثلة بالسيد نافون. لكن إن استمرت حكومة اسرائيل في ادارة المسائل بالروح السلبية التي تميزها فلا مناص من انهاء الشراكة مع اسرائيل، والمقصود بالاساس، اتفاقي كامب ديفيد وواشنطن (**المصدر نفسه**).

ورغم التحفظات، التي ابداها بعض الوزراء، على سفر رئيس الدولة، والتوقيت غير المناسب بالنسبة للاسرائيليين، فقد اقترح بيغن مبدأ السفر بالصيغة التالية: «قررت الحكومة اعتمادا على البند ١٨ من القانون الاساسي لرئيس الدولة، ان يتم سفر الرئيس الى مصر بعلم الحكومة» (**«عل همشمار»**، ١٨/٨/١٩٨٠). وارسل الرئيس نافون، في وقت لاحق، رسالة الى الرئيس المصري يوم ١/٩/١٩٨٠ ابلغه فيها قبوله للدعوة. وتسلم السادات الرسالة عبر السفير الاسرائيلي في القاهرة. ولم يتطرق نافون في رسالته الى موعد الزيارة وبرنامجها، ومما جاء فيها: «ان الزيارة سترسخ مسار السلام، وسيحمل السلام نفسه الازدهار وسعادة الشعبين الاسرائيلي والمصري» (**«ر.إ.إ.»**، العدد ٢١٤٦، ٢و٣/٩/١٩٨٠، ص ٩). ولم يطلب نافون، في رسالته، السماح له بالقاء خطاب امام مجلس الشعب المصري. وعلم مراسل اذاعة اسرائيل، انه رغم عدم تحديد موعد الزيارة، فالاغلب ان تتم في النصف الثاني من شهر تشرين الاول(اكتوبر) من العام الحالي.

**ادانة اسرائيل في مجلس الامن**

بعد عدة مداولات في مجلس الامن لتقرير ما هي الخطوات التي يجب على المجتمع الدولي اتخاذها ردا على اعلان قانون القدس الذي

اصدرته الحكومة الاسرائيلية، وصادق عليه البرلمان الاسرائيلي، جرى التخلي عن مشروع قرار اعدته مجموعة الدول العربية والاسلامية لصالح مشروع قرار تقدمت به الدول الاوروبية مع ضمان عدم استخدام الفيتو ضده من قبل الولايات المتحدة. وقد وافق مجلس الامن، يوم ١٩٨٠/٨/٢٠، على مشروع القرار الاوروبي بأغلبية ١٤ صوتا وامتناع الولايات المتحدة الاميركية عن التصويت. وعبر مجلس الامن في قراره عن قلقه ازاء قانون القدس الذي يضر بطابع المدينة، ويؤثر على السلام والامن في الشرق الاوسط. وجاء فيه كذلك، ان كل «الخطوات التي اقرتها اسرائيل في القدس، والتي تهدف الى تغيير طابع المدينة، وبخاصة قانون القدس باطلة وملغاة ويجب وقفها فورا» (**معاريف**»، ١٩٨٠/٨/٢١). ودعى القرار جميع الدول التي تحتفظ بممثليات دبلوماسية في القدس الى اخراجها منها.

**رد الفعل الاسرائيلي والموقف من اميركا:**

وجاء رد الفعل الاسرائيلي الاول على قرار مجلس الامن من قبل يهودا بلوم الممثل الاسرائيلي في الامم المتحدة، فاتهم الامم المتحدة بأنها مجندة في المعركة ضد اسرائيل، وان مجلس الامن عقد هذه السنة ٦٠ جلسة كانت ٣٤ منها متعلقة باسرائيل. واعلن بلوم «ان القدس كانت وستبقى دائما عاصمة الشعب اليهودي» (**المصدر نفسه**). واضاف المندوب الاسرائيلي، ان العرب هم الذين يلحقون الاذى بقدسية القدس، وان مجلس الامن يؤيدهم في ذلك.

وعقدت الحكومة الاسرائيلية جلسة خاصة يوم ١٩٨٠/٨/٢٤، لبحث قرار مجلس الامن، واصدرت بيانا، قام بيغن بالقائه امام الصحافيين وجاء فيه، ان حكومة اسرائيل ترفض وتشجب القرار الذي اتخذه مجلس الامن في العشرين من آب (اغسطس) بشأن القدس. وفي اشارة مباشرة للهجوم على السياسة الاميركية، قال البيان، لقد صدر ذلك القرار عندما امتنعت الولايات المتحدة عن استخدام حق النقض(الفيتو). ويشكل هذا العمل «استسلاماً امام ابتزاز الدول النفطية. واننا نأسف لقرار الدول بنقل سفاراتها من القدس الى تل – ابيب. كما نأسف لموقف الولايات المتحدة، الذي يدعو للاستغراب اذا ما قارناه بخطاب وزير الخارجية الاميركي» («و.إ.إ»، العدد ٢١٣٨، ٢٤و١٩٨٠/٨/٢٥، ص ١١و١٢). وتابع البيان هجومه على الولايات المتحدة قائلا، ان الموقف الاميركي كما هو معلوم، سمح باتخاذ قرار دفع بعدد من السفارات الى مغادرة القدس، على الرغم من الوعود الصريحة التي اعلنتها الولايات المتحدة عن نقل السفارة الاميركيةمن تل – ابيب الى القدس. واضاف البيان «ان شعب اسرائيل الذي تمتد جذوره الى الماضي البعيد ليس بحاجة لاعتراف مجلس الامن، ولا لموافقة جميع اعضائه على ان تكون القدس عاصمة لدولة اليهود. وستظل القدس على ما كانت عليه عبر اكثر من ثلاثة الاف سنة، عاصمة لاسرائيل، ومدينة واحدة لا تقبل التقسيم، ومركز حياة الشعب اليهودي» (**المصدر نفسه**).

وذكرت مصادر موثوقة، انه خلال اجتماع مجلس الوزراء، هاجم بيغن موقف الولايات المتحدة بشدة، وقال للوزراء، انه اخبر السفير الاميركي لويس اثناء لقائهما يوم ١٩٨٠/٨/٢١، ان امتناع الولايات المتحدة عن استخدام حق النقض هو «رضوخ للعرب، يشابه رضوخ اوروبا للنازيين» (**المصدر نفسه**).

والواقع، ان الغضب الاساسي الذي عبرت عنه المواقف الاسرائيلية كان رد فعل على موقف الولايات المتحدة. فقد بذلت الدبلوماسية الاسرائيلية محاولات عدة مع مسؤولي الخارجية الاميركية لاستخدام حق النقض في مجلس الامن ضد اي قرار يفرض عقوبات على اسرائيل. واقصى ما فعلته الادارة الاميركية لتفادي اغضاب اسرائيل كان الخطاب الذي القاه ادموند ماسكي وزير الخارجية الاميركية في مجلس الامن. فقد وصف ماسكي قرار مجلس الامن بأنه غير ملزم، ويفتقد لقوة التطبيق، ويشكل محاولة رخيصة لفرض السياسات. وهذا ما دعا وزير الخارجية الاسرائيلي الى القول امام السفير الاميركي في اسرائيل ان المفروض ان تلتزم الادارة الاميركية بأقوالها المعلنة على لسان وزير خارجيتها، وان اقوال ماسكي «تكشف عن مبررات تشير بشكل اساسي الى ضرورة التصويت ضد القرار، وليس الامتناع عن التصويت والسماح

باتخاذه» («**المصدر نفسه**»، العدد ٢١٣٦، ٢١و٢٢/٨/١٩٨٠، ص ١٠).

**الاميركيون يردون على الاتهامات**: واستمرت الحملة الاسرائيلية على موقف الادارة الاميركية، ودخلت الحكومتان في اتهامات متبادلة لا حد لها. والسؤال المطروح هو،كيف يفسر الاسرائيليون موقف الولايات المتحدة من قرار مجلس الامن؟ لقد تركزت معظم التعليقات الاسرائيلية غير الرسمية على تأكيد ضعف الولايات المتحدة عشية الانتخابات الرئاسية، رغم كل الادعاءات التي تحاول فيها الادارة الاميركية تغطية موقفها. واُشارت التعليقات الى ضعف الولايات المتحدة، الذي «ظهر في قضايا ايران وافغانستان، والذي ظهر ايضا اثناء ترددها في صد الهجوم السوفييتي - العربي ضد الانجاز الاميركي الكبير في الشرق الاوسط (اتفاقيتي كامب ديفيد). فدول اوربا تشعر بهذا التردد الاميركي، لذلك فإن السياسيين الاوروبيين يتحدثون عن تغييرات مرتقبة ستتم بعد انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر)» (موشي زاك، «**معاريف**»، ٢٢/٨/١٩٨٠).

ويضيف المعلق الصحفي زاك ان عمق المشكلة لا يتمثل في قضية ادانة اسرائيل، وانما في «المحاولة التي جرت على الساحة الدولية لتقويض السياسات الاميركية في الشرق الاوسط. وان الرد الاميركي على الهجوم المركز على سياستها، يدعو حتى المصريين الى الدعوة لضرورة تغيير اتفاقيات كامب ديفيد» (**المصدر نفسه**). وعلى ضوء هذه الحقيقة، يجب النظر الى رسالة السادات الاخيرة الى بيغن، فالسادات «لا يقترح عقد مؤتمر قمة يعقد فورا لنقاش المسائل التي تحتاج الى حلول عاجلة. فاقتراحه عمليا، اقتراح مراجعة لتلك الاتفاقيات» (**المصدر نفسه**).

ومن جهة اخرى، سارع الرئيس الاميركي الى تهدئة خواطر اليهود الاميركيين. وجرى ترتيب لقاء مع زعمائهم؛ حيث ابدى قسم من هؤلاء ملاحظات تفيد «اذا كان كارتر مستعدا للمخاطرة باغضاب اصدقاء اسرائيل قبل ٨٠ يوما من الانتخابات، حيث ان الصوت اليهودي يعتبر حاسما في حملته الانتخابية، فليس من الصعب التكهن كيف سيتصرف بعد ذلك، عندما لا يكون محتاجا لهذا الصوت» («**يديعوت احرنوت**»، ٢٤/٨/١٩٨٠). واستخدم كارتر في اقناعه زعماء اليهود الامريكيين، تأكيدات كان قد تلقاها من مسؤولين اسرائيليين، بينهم يوسف بورغ وزير الداخلية، تضمن تجميد طرح قانون القدس. وعلى اساس تلك التأكيدات استطاع كارتر اقناع السادات باستئناف محادثات الحكم الذاتي. ولكن عندما اقر قانون القدس بالاغلبية، وبتأييد حكومي فعّال «شعر كارتر ومستشاروه انهم خدعوا من قبل اسرائيل، وبدوا مرتبكين امام مصر» («**المصدر نفسه**»، ٢٧/٨/١٩٨٠). ورغم نفي بورغ لادعاءات كارتر التي نقلت على لسانه، فقد اكد كارتر للزعماء اليهود، ان امتناع الولايات المتحدة عن التصويت في مجلس الامن حول القدس «ليس معناه ضعف التأييد الاميركي لاسرائيل. فهذا التأييد مستمر الى الابد» (**المصدر نفسه**). وتحدث كارتر عن الموقف الجديد للولايات المتحدة بشأن مفاوضات الحكم الذاتي، واكد على ضرورة المحافظة على نفس الخط مع دول اوروبا الغربية، واضاف انه خشي ان يغضب الفيتو الاميركي «كلا من الرئيس السادات ودول اوروبا الغربية، والدول العربية المعتدلة. وهو امر قد يضع نهاية لكل الخطوات التي بدأت مع اتفاقيات كامب ديفيد» (المصدر نفسه).

وبعد لقائهم مع كارتر اكدت المصادر، ان الزعماء اليهود خرجوا من اللقاء مقتنعين بالنوايا الصادقة للرئيس. وقال احدهم، وهو بول تسوكرمان من دوترويت، وكان رئيسا للجباية اليهودية سابقا «ان نوايا كارتر جيدة تجاه اسرائيل، وانوي العمل من اجله بكامل استطاعتي» (**المصدر نفسه**).

ومن جهته استغل شمعون بيرس، زعيم المعارضة العمالية، الخلافات القائمة بين الحكومتين الاميركية والاسرائيلية ليوظفها لصالحه، فقد اقترح امام احدى الصحف الباريسية الرئيس كارتر، وقال عنه «انه يعاني من بعض المشكلات في صراع الشرق الاوسط كإسرائيلي، وخاصة حيال موضوع اقامة دولة فلسطينية» («ر.إ.»، العدد

٢١٤١، ٢٧و٢٨/٨/١٩٨٠، ص ٨). واكد بيرس للصحيفة، انه سمع اشياء واضحة بهذا الخصوص، من كارتر نفسه في لقائهما الاخير في واشنطن. وبرأيه، ان الولايات المتحدة «بعيدة عن الرضوخ لضغوط دول العرب النفطية التي تؤثر عبرها على العالم» (**المصدر نفسه**). وكان بيرس بذلك، يرد على الاتهامات التي كررتها حكومة بيغن كثيرا ضد الادارة الاميركية، بأنها خضعت في موقفها بمجلس الامن لابتزاز الدول النفطية.

**اثر القرار على الخلاف الحزبي الداخلي:** في حقيقة الامر، استطاع بيغن ان يضع المعارضة، ممثلة بزعامة حزب العمل في وضع صعب عندما قرر عرض قانون القدس على الكنيست للتصويت عليه، فقد اضطرت المعارضة الى التصويت الى جانب القانون، رغم معرفة كثير من نوابها بالاخطار التي ستنتج بعد اقرار مثل هذا القانون، اضافة الى تحفظهم على توقيت عرضه. وفي اعقاب ادانة مجلس الامن للقانون وبدء عدد من الدول سحب سفاراتها من القدس تنفيذا لقرار المجلس، جرى نقاش حاد بين بيغن ورئيس المعارضة شمعون بيرس في جلسة كانت تعقدها لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست، خصصت اساسا للاستماع الى تقرير بيغن عن عملية الجيش الاسرائيلي الفاشلة في جنوب لبنان. لكن سرعان ما تحول النقاش الى الوضع الذي نتج عن اقرار قانون القدس. فقد اعتبر بيرس ان تصرف الحكومة قاد الى فشل سياسي، وان القانون لم يكن ضروريا. واوضح بيرس ان حزبه «لا يعارض مضمون القانون، وانما توقيت اتخاذه. وانه حاول اقناع الحكومة بعدم تأييدها لطرح القانون على التصويت في الكنيست، لكن رئيس الحكومة الغى اللقاء معه للبحث بهذا الموضوع في اللحظة الاخيرة» («**يديعوت احرنوت**»، ٢٤/٨/١٩٨٠). ورد بيغن على اقوال بيرس فقال: ان المعارضة «زرعت الحيرة لدى الشعب» واضاف، انه عندما قطعت الدول الافريقية علاقاتها مع اسرائيل اثناء حكم المعراخ، فإن الليكود لم يستثمر ذلك سياسيا.

وكشف المعلق الصحفي تيدي بروس حقيقة موقف كل من الائتلاف الحاكم بزعامة بيغن، والمعارضة، ازاء طرح قانون القدس. فالتعليلات التي ينادي بها رؤساء حزب العمل في تأييدهم لقانون القدس «تنبع اساسا من الدوافع القومية العامة، ومن اعتبارات المصلحة الانتخابية كذلك» («**دافار**»، ٢٠/٨/١٩٨٠). وهم يقولون، ان القانون لا يزيد ولا ينقص من وضع العاصمة، لكن لو صوتنا ضده «لأذاقنا بيغن وطاقمه، طعم الموت واعتبرونا كخونة. ولادعوا اننا مستعدون لتسليم القدس الى سلطة غريبة. ومقابل ذلك، ان تأييد القانون يمكن ان يعطي فوائد ان لم تكن فعالة، فهي غير ضارة» (**المصدر نفسه**). واضاف الكاتب موضحا ورطة حزب العمل في تصويته لصالح القانون قائلاً: «لو ان الحزب صوت ضد القانون لاستطاع الحديث الان، لكن بعد ان صوت نوابه مع القانون فإنهم لا يستطيعون رفع اصواتهم ضد هتحياه والليكود، الذين باعوا القدس مقابل حركة مسرحية» (**المصدر نفسه**).

اما بالنسبة لموقف الليكود، فقد اعتبر الكاتب، ان قانون القدس هو احد الالغام التي يزرعها بيغن في وجه الحكومة التي ستأتي بعد سنة، وهو واحد من الالغام الكثيرة التي زرعها منذ مجيئه الى السلطة.

واعترف معلق آخر بحقيقة موقف جميع الاسرائيليين على اختلاف تياراتهم من مسألة القدس. وانها كانت بشكل او بآخر عاصمة لاسرائيل رغم عدم وجود اعتراف بذلك وتساءل، هل ان وجود حكومة الليكود هو السبب في الازمة القائمة حول قانون القدس؟ وهل ان حكومة عمالية تنقذ الوضع؟ واجاب على تساؤله قائلا، انه لا اساس لهذا الكلام «فالقدس ليست لليكود، ومعارضة العالم ليست ناتجة لوجودها تحت سلطة حكومة بيغن، وانما لوجودها بأيدي اليهود. فتوحيد القدس، وتطبيق القانون الاسرائيلي على جزئها الشرقي، كان من عمل حكومة الاتحاد الوطني التي قامت في العام ١٩٦٧. وكان ذلك بالحقيقة تعبيرا وتجسيدا لارادة كل اليهود، في ذلك الوقت، وفي كل الاوقات. وفي ذلك الوقت، لم يكن هناك شك، داخل اي انسان في الدولة، بأن هذا العمل تتويج لحقيقة عودة صهيون وان الامر التزام بحقيقة الفكرة الصهيونية» (شموئيل شفايتسر، «**معاريف**»، ٢٢/٨/١٩٨٠).

**زيارة السفير لينوفيتش لمصر واسرائيل**

مع زيارة المبعوث الاميركي سول لينوفيتش لكل من مصر واسرائيل، لمحاولة تقريب وجهات النظر، من اجل استئناف محادثات الحكم الذاتي، يطرح سؤال، هل تلتقي مصلحة اطراف كامب ديفيد الثلاثة في استئناف المحادثات الآن ام لا؟ الواقع، ان اراء الاسرائيليين تجمع على القول، ان السادات يطالب بتجميد الوضع حتى ما بعد الانتخابات الاميركية؛ حيث يعقد مؤتمر قمة ثلاثي يجمعه مع بيغن وكارتر. اما الادارة الاميركية، فإنها «لا تقبل تقدير السادات، بأن لا معنى لاستمرار محادثات الحكم الذاتي في الظروف الحالية» («**المصدر نفسه**»، ١٧/٨/٩٨٠). والادارة المذكورة لا ترفض عقد لقاء على مستوى القمة، لكن، في هذه الاثناء، لا يجب الانتظار، وانما العمل لتحقيق تقدم. وهو الشيء الذي يطمح اليه كارتر من اجل تعزيز موقفه في الانتخابات القادمة في الولايات المتحدة.

وبالنسبة للموقف الاسرائيلي، هناك اعتبارات عديدة تجعل الاسرائيليين يفضلون الاستمرار بالمحادثات، اهمها ان الجمود يوفر المناخ الملائم لبروز مبادرة اوروبية تعتمد على بيان قمة البندقية. اضافة الى ضرورة الاستفادة من الفترة التي تسبق الانتخابات الاميركية؛ حيث يكون للصوت اليهودي ضغط مؤثر على مواقف الرئيس الاميركي. لذلك يضع الاسرائيليون شرط موافقتهم على عقد لقاء القمة المقترح، استئناف مباحثات الحكم الذاتي فورا.

وعلى ارضية هذه المواقف المتباينة لاطراف كامب ديفيد، وخاصة الخلافات التي نتجت في اعقاب قانون القدس، وقرار مجلس الامن، جاءت زيارة المبعوث الاميركي الخاص لمحادثات الحكم الذاتي الى كل من مصر واسرائيل في محاولة لاستئناف المحادثات المتوقفة منذ اكثر من شهر.

**الموقف الاسرائيلي من الزيارة:** عشية زيارة المبعوث الاميركي، عقدت اللجنة الوزارية الاسرائيلية لشؤون مفاوضات الحكم الذاتي اجتماعا، استعدادا لاستقبال لينوفيتش. واشير بارتياح في الجلسة التي حضرها بيغن، الى «حقيقة ان اسرائيل والولايات المتحدة تقفان، هذه المرة، في جانب واحد، وتتطلعان معا الى استئناف محادثات الحكم الذاتي فورا» («ر.إ.إ»، العدد ٢١٤١، ٢٧و٢٨/٨/١٩٨٠، ص ٣). وحسب تقدير اللجنة، فإن مفتاح استئناف المحادثات هو في ايدي مصر «وسوف يقال ذلك للسفير الاميركي». وبعد المداولات، سرب المجتمعون رأيا يقول «ان احتمالات نجاح زيارة لينوفيتش ليست كثيرة» (**المصدر نفسه**).

ولدى وصول لينوفيتش، والبدء بزيارته، ظهرت حقيقة وهي انه لا يهدف الى القيام بجولات مكوكية بين القاهرة وتل - ابيب، وانما يريد تقريب وجهات النظر، وكسر الجمود القائم. وقد رددت اسرائيل امامه القول، ان السادات اوقف المحادثات اربع مرات، وان المفتاح بيد مصر. وقالت مصادر مطلعة في اسرائيل، ان المبعوث الاميركي يحاول اقناع الطرفين «بأن الوقت ليس في صالح اسرائيل او مصر او الولايات المتحدة. فالدول العربية تضغط وتهدد. والمبادرة الاوروبية تتربص في الزاوية، وبد الولايات المتحدة اقصر من ان تستطيع تأجيل تلك المبادرة، الا اذا استؤنفت المحادثات» («**المصدر نفسه**»، العدد ١٤٥ ، ١و٢/٩/١٩٨٠، ص ٩).

ورغم ان اللجنة الوزارية، ابلغت لينوفيتش في اجتماعها الثاني معه، يوم ٢/٩/١٩٨٠، ان اسرائيل لن توافق على دفع ثمن استئناف المحادثات من جانب واحد، الا ان اوساط اسرائيلية مطلعة كشفت عن نجاح لينوفيتش في التوصل الى «حل وسط تقوم اسرائيل بموجبه بمبادرات حسن نية كقاعدة لاقناع السادات» («**المصدر نفسه**»، العدد ٢١٤٦، ٢و٣/٩/١٩٨٠، ص ٧). فاسرائيل، التي لم تكن راغبة في دفع ثمن استئناف المفاوضات استجابت لطلب السفير، الذي حاول الحصول على اي تنازل يرضي السادات. ومع ذلك، «ليس هناك خطوات ذات قيمة كالتي كان يفضلها لينوفيتش» (**المصدر نفسه**)، وكانت الاوساط الاميركية قد رددت، ان اسرائيل ستفرج عن بعض المعتقلين الفلسطينيين كبادرة حسن نية تجاه السادات.

وحسب تقدير الاوساط الاسرائيلية، فإن

لينوفيتش اقتنع بأن ما حققه من شأنه «اغراء الرئيس السادات. وقد بدا المبعوث الاميركي متفائلا. وسيسافر الى مصر ليعرض على الرئيس السادات، اضافة الى اعلان النوايا، وثيقة توضح ابعاد الاتفاق على استئناف المحادثات، وابعاد العكس» («**المصدر نفسه**»، ص ٨).

**نجاح جولة لينوفيتش:** خلال اجتماع استمر ٤٥ دقيقة، بين لينوفيتش والرئيس السادات يوم ١٩٨٠/٩/٣، استطاع السفير الاميركي اقناع السادات باستئناف المفاوضات المجمدة. وتلا بعد القاء بياناً مشتركا اسرائيليا مصريا قال ان السادات وبيغن كلفاه بتلاوته امام الصحافيين. وجاء في البيان الذي شرح تفاصيل الاتفاق، ان الطرفين «اتفقا على انهما سيظلان ملتزمين بإتفاقي كامب ديفيد، وانهما مقتنعان بإنهما قدما كل شيء ممكن من اجل السلام الشامل في الشرق الاوسط» («**السفير**»، ١٩٨٠/٩/٤). واضاف السفير الاميركي، ان الطرفين قررا استئناف عملية السلام من اجل انجاحها دون النظر الى الصعاب الطارئة التي قد تقف في طريق السلام.

وكشفت مصادر اميركية، ان قبول مصر استئناف المفاوضات جاء بعد ان تقدمت اسرائيل بثلاثة تنازلات نقلها لينوفيتش الى السادات وهي:

«١ - اطلاق سراح عدد من المعتقلين الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية، دون تحديد الرقم.

«٢ - تأجيل نقل مكاتب رئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيغن الى القدس الشرقية. والوعد بالغاء هذه الخطوة كليا اذا ما تم التوصل الى اتفاق كامل خلال المفاوضات.

«٣ - التوقف عن اقامة مستوطنات جديدة في الاراضي العربية المحتلة» (**المصدر نفسه**).

ومن جهة اخرى، نفى وزير الداخلية الاسرائيلي ورئيس الطاقم الوزاري لمفاوضات الحكم الذاتي الانباء التي تحدثت عن وجود مثل تلك التأكيدات، واضاف قائلا، مع انني رئيس الطاقم الاسرائيلي للمفاوضات «لا استطيع القول، حتى الآن، ان رئيس الحكومة قد قدم اية تعهدات. واستطيع القول انه في كل مفاوضات، اما ان تتحرك وفق بنود محددة، اووفق اجواء معينة. واعتقد ان زيارة السفير لينوفيتش قد ساعدت في خلق جو من التفاهم نجح في نقله الى مصر» («ر.إ.إ»، العدد ٢١٤٧، ٣و٤/٩/١٩٨٠، ص ٦).

ولدى عودته الى واشنطن، اوضح لينوفيتش في مؤتمر صحفي برنامج استئناف المفاوضات حول الحكم الذاتي الذي وافقت عليه القاهرة وتل - ابيب، وهو كما يلي:

«١ - تبدأ الاسبوع المقبل في واشنطن اتصالات ثنائية بين الولايات المتحدة واسرائيل والولايات المتحدة ومصر على مستوى الخبراء.

«٢ - تتم لقاءات ثنائية بين الخبراء الاميركيين والاسرائيليين.

«٣ - تستأنف المفاوضات، بشكل رسمي، على مستوى رؤساء الوفود حوالي منتصف تشرين الاول (اكتوبر)» («**السفير**»، ١٩٨٠/٩/٧). واعرب لينوفيتش عن اعتقاده بأنه من الضروري احراز تقدم حقيقي على وجه السرعة، كي تتاح الفرصة لنجاح القمة الثلاثية. واعترف بأنه ينبغي التغلب على العراقيل الخطيرة، قبيل عقد مثل تلك القمة.

**خطة شارون لانهاء محادثات الحكم الذاتي:** في اطار جولة المحادثات التي اجراها سول لينوفيتش مع الطاقم الاسرائيلي لمحادثات الحكم الذاتي، كشف النقاب، ان اريئيل شارون وزير الزراعة عرض مشروعا للاسراع بالوصول الى اتفاق بشأن الحكم الذاتي. ويقضي العرض، بتوقيع اتفاق اطار بين اسرائيل ومصر بشأن المبادىء السبعة الجوهرية التي كانت مصدر خلاف. وبعد ذلك، «تواصل الاطقم الوزارية التعاون لانجاز تفاصيل الاتفاق عندما تنضم الى المفاوضات اوساط كالاردن والفلسطينيين» («ر.إ.إ»، العدد ٢١٥٠، ٧و٨/٩/١٩٨٠، ص ٤). واقترح شارون، امكانية بحث مسألة تخفيض متبادل للقوات على امتداد نهر الاردن، اذا انضم الاردن الى طاولة المفاوضات. وبالنسبة للامن الداخلي اقترح تخلي اسرائيل عن مسؤولية الامن الداخلي لهيئات الادارة الذاتية، اذا نجحت في منع العمليات [الفدائية] داخل [المناطق المحتلة].

وبالنسبة لمسألتي الارض والمياه، عرض تقسيم الاراضي الاميرية والمياه بين اسرائيل والادارة الذاتية. وان توضع تحت تصرف السكان اراض اميرية لاسكان اللاجئين. وان توضع اراضٍ اخرى كإحتياطي تحت تصرف الطرفين. وذكرت الاذاعة الاسرائيلية التي نقلت تفاصيل الخطة، ان الحلول التي عرضها الوزير «يمكن ان تشكل المدخل المحتمل للخروج من حالة الجمود التي اصابت المفاوضات» (**المصدر نفسه**). واضافت الاذاعة، ان المشروع طرح بعد ان نال موافقة كل من بيغن وبورغ عليه. واكد شارون، في اللقاء المذكور، ان مشروع الادارة الذاتية الذي تتبناه الحكومة هو الحل الوحيد الممكن لمشكلة الاراضي المحتلة. ففي السنوات الثلاث الاخيرة، نفذت عمليات في «مجال الاستيطان، وتوزيع انتشار الجيش الاسرائيلي، كان الهدف منها منع تنفيذ الحل الاقليمي الوسط الذي يتبناه المعراخ» (**المصدر نفسه**). وبناء على ذلك اقترح وزير الزراعة تنشيط حركة المفاوضات. اذ لو حصل تبديل في السلطة الاسرائيلية «لواجهت تلك السلطة معارضة قوية تسقط مشروعه السياسي لحل مشكلة المناطق المحتلة، وهذا الامر لا تعانيه الحكومة الحالية في المجال السياسي» (**المصدر نفسه**، ص ٥).

**شمير يزور القاهرة**

بعد اقل من اسبوع على انتهاء زيارة سول لينوفيتش لمصر واسرائيل، وجهت وزارة الخارجية، المصرية دعوة الى اسحاق شمير، وزير الخارجية الاسرائيلي، لزيارة القاهرة. وقد علقت اوساط مطلعة في الحكومة الاسرائيلية على هذه الدعوة، بأن مصر «معنية بتحسين اجواء العلاقات مع اسرائيل، مع انها تحاول تأجيل استئناف مفاوضات الحكم الذاتي الى ما بعد لقاء القمة، الذي سيعقد على حد اعتقاد رئيس الحكومة الاسرائيلي في شهر كانون الاول (ديسمبر) من هذه السنة» («**المصدر نفسه**»، العدد ٢١٥٠، ٧و٨/٩/١٩٨٠، ص ٦).

وترددت تقديرات في جلسة الحكومة الاسرائيلية التي ناقشت موضوع الزيارة يوم ٧/٩/١٩٨٠، ان رئيس الحكومة ووزير الداخلية يعتقدان ان هناك «هوة بين الرئيس المصري ومساعديه. ويحاول هؤلاء المساعدون، وبخاصة العاملين منهم في وزارة الخارجية، التهرب من تنفيذ التزامات اعلنها الرئيس السادات» (**المصدر نفسه**). والمعروف ان اسرائيل تحتج لدى سلطات القاهرة على عرقلتها خطوات تطبيع العلاقات المتفق عليها بين البلدين في اطار اتفاقيات كامب ديفيد. وتضيف الاوساط الاسرائيلية انها لا تريد افضلية في علاقاتها مع مصر، بل انها «تطلب علاقات عادية ومتينة» وسيتطرق وزير الخارجية شمير في مباحثاته مع المصريين الى ظاهرة «منع قيام العلاقات التجارية بين شركات اسرائيلية وبين تجار محليين بواسطة السلطات المصرية. وسيشير شمير الى الحالات التي جرى فيها استجواب اجهزة الامن المصرية لمواطنين مصريين لانهم طلبوا زيارة اسرائيل» («**المصدر نفسه**»، العدد ٢١٥١، ٨و٩/٩/١٩٨٠، ص ٣). كما سيؤكد شمير كذلك، على مطالب اسرائيل بتطبيق اتفاقيات التعاون التربوية، التي وقعت بين الدولتين في الجوهر.

تجدر الاشارة هنا، الى ان شمير، سيكون الوزير الاسرائيلي الاول الذي سيلتقي الرئيس السادات، وغيره من الزعماء المصريين بعد فترة طويلة انعدمت فيها اللقاءات بين زعماء الدولتين، حيث اقتصرت الاتصالات في الفترة الاخيرة، على تبادل الرسائل بين السادات وبيغن، او عبر سفراء الدولتين فقط.

وفي لقاءاته مع كل من الرئيس المصري وبطرس غالي، حصل شمير على توضيحات تفيد انه يوجد تغيير في الموقف المصري من تطبيع العلاقات، وهذا التغيير «جاء وفق توجيهات صريحة من الرئيس السادات» («**المصدر نفسه**»، العدد ٢١٥٣، ١٤و١٥/٩/١٩٨٠، ص ٣). وقد عزز الرئيس المصري هذا الاتجاه اثناء اجتماعه مع شمير، فقد كان السادات «متفائلا للغاية اثناء الحديث، واعرب عن ثقته الكاملة بامكانية استئناف مسار السلام وتحقيقه» (**المصدر نفسه**). وقال مراسل اذاعة اسرائيل السياسي، نقلا عن مصادر حكومية اسرائيلية، ان السادات تحدث بثقة عن امكانية حل المشكلات العالقة. وقال «لا بد من الصبر للتغلب على الصعوبات التي تعترض المحادثات» (**المصدر نفسه**). اما

شمير نفسه، الذي قدم تقريرا الى حكومته، لدى عودته من الزيارة، فقد اشار الى ضرورة «الانتظار لرؤية كيفية ترجمة النوايا المصرية الى اعمال؛ حيث سيكون ممكنا بعدها رؤية مدى التغيير في موقف القاهرة» (**المصدر نفسه**).

ومن جهة اخرى، حدد الرئيس المصري في مؤتمر صحفي عقده بعد لقائه مع شمير، خطوات العمل في المرحلة المقبلة لدفع مسيرة السلام فقال، ان وزير الدولة المصري للشؤون الخارجية بطرس غالي سوف يسافر يوم ١٩٨٠/٩/١٢ الى نيويورك لحضور اجتماعات الامم المتحدة «وسوف يذهب شمير ايضا... وسوف يلتقي الوزيران هناك، كما سيلتقيان مع زميلهما الاميركي» («**السفير**»، ١٩٨٠/٩/١١). واشار السادات الى ان شمير وغالي هما اللذان سيحددان استئناف محادثات الحكم الذاتي و قال، انني بحثت «الكثير مع شمير عن تطبيع العلاقات... وعن الماضي والمستقبل. وانني اعبر عن عرفاني بالجميل لشمير الذي قبل الدعوة لزيارتنا» (**المصدر نفسه**).

وفي البيان المشترك الذي صدر في القاهرة، لم يتطرق إلى محادثات الحكم الذاتي، ولكنه اكد الاتفاق على دعم عملية تطبيع العلاقات بين مصر واسرائيل.

**محمد عبد الرحمن**

# الصوت اليهودي ٨٠

عاد موسم «الصوت اليهودي» يملأ جوانب الساحة الانتخابية الاميركية، ويتردد في الوقت نفسه، في جنبات وزارات الخارجية «المعنية» في الشرق الاوسط، وفي مقدمتها الخارجية المصرية والاسرائيلية.

فمع اقتراب انتخابات الرئاسة الاميركية، واشتداد حدة المنافسة بين المرشحين الثلاثة: جيمي كارتر الرئيس الحالي (الديمقراطي)، ورونالد ريغان (الجمهوري)، وجون اندرسون (المستقل)، بدت ظاهرة جديدة مغايرة لما جرت عليه العادة في موسم الانتخابات الرئاسية الاميركية؛ تلك هي ظاهرة الاعتراف الصريح، بلا مواربة من جميع الاطراف - اميركية وشرق اوسطية على السواء - بالدور الذي يؤديه «الصوت اليهودي» في انتخابات الرئاسة الاميركية. بل الواقع ان اجهزة الاعلام الغربية، بوجه عام، عالجت هذا الامر هذه المرة بصراحة يمكن الزعم بأنها لم تمارسها من قبل بهذه الصورة بالنسبة لهذه المسألة.

اكثر من هذا ان مسألة الصوت اليهودي «عولجت هذه المرة، على نحو نقدي من جانب كثير من المعلقين والمحللين، فيما ذهب كافة المرشحين في الاتجاه التقليدي: اتجاه معاملة الصوت اليهودي في الانتخابات الرئاسية الاميركية على ان بينه وبين اسرائيل وحدة مصالح واهداف؛ اي التعامل مع الصوت اليهودي الاميركي على انه معني بأمن اسرائيل اكثر مما يمكن ان يكون معنيا بأي مسألة «اميركية» خالصة داخلية او خارجية. وبالتالي فإن المرشحين الرئيسيين الثلاثة لرئاسة الولايات المتحدة الاميركية، للسنوات الاربع القادمة، تسابقوا صراحة الى الوعد باعطاء اسرائيل وأمن اسرائيل ورفاهية اسرائيل الاولوية على كل ما عداها من اهداف للسياسة الخارجية الاميركية.

والواقع انه في هذه المرة بالذات - اكثر مما كان في انتخابات الرئاسة الاميركية السابقة - برزت «مسألة الشرق الاوسط» كمسألة من مسائل الحملة الانتخابية الاميركية؛ ويبدو السبب في هذا في ادق العوامل الرئيسية:

اولا - شعور المرشحين بأن المسافات الصوتية بينهم متقاربة؛ بمعنى ان اقلية ما هي التي ستكون العامل المرجح في نجاح هذا المرشح او ذاك؛ الامر الذي جعل للأقلية اليهودية بالذات قيمة فائقة مضافة الى نفوذها المالي والاعلامي المعروف. فثمة شعور لدى اللجان التي تدير الحملة الانتخابية للمرشحين الثلاثة الابرز بأن «الصوت اليهودي» اكثر من غيره هو الذي سيكون مرجحا، باعتبار ان اصوات الاقليات الاخرى - مثل اصوات السود - اكثر قابلية للتفتت من اصوات اليهود، على الرغم من ان اصوات السود اكبر عدديا من اصواتهم.

ثانيا – ان احد المرشحين الرئيسيين الثلاثة، وهو بالتحديد الرئيس الحالي جيمي كارتر، يخوض حملته الانتخابية معتبرا ان اتفاقيات «كامب ديفيد» ونتيجتها الرئيسية المتمثلة في «معاهدة السلام» بين نظام الحكم المصري واسرائيل، هي انجازه الاهم والابرز الذي ميزه على آخر ثلاثة رؤساء على الاقل حكموا الولايات المتحدة قبله. ومن ثم فإن مسألة الشرق الاوسط تحتل المساحة الاكبر في برنامجه الدعائي والانتخابي وتفرض نفسها – بالتالي – على برنامج كل من منافسيه الجمهوري والمستقل في اطار المزايدة من اجل كسب «الصوت اليهودي».

ثالثا – ان ثمة تسليما واضحا لدى كافة القوى السياسية المعنية بقضية الشرق الاوسط – داخل الولايات المتحدة وفي عواصم المنطقة – بأنه ليس في مقدور الادارة الاميركية القيام بأي تحرك ضاغط على اسرائيل في اي شأن من شؤون هذه القضية ايا كان، طوال الفترة التي تسبق انتخابات الرئاسة الاميركية؛ الامر الذي يعني ان اسرائيل تتمتع، خلال هذه الفترة، بحرية حركة لا نظير لها في الفترات الاخرى العادية، وهذا بدوره يجعل الموقف في الشرق الاوسط محل قلق وترقب خلال هذه الفترة. فالادارة الاميركية (المرشح الديمقراطي) مع شعورها بالعجز عن الضغط على اسرائيل تخشى ان تندفع هذه الاخيرة الى تصرف متطرف للغاية يهدم اركان الاستراتيجية التي تبنتها هذه الادارة خلال السنوات الماضية من حكمها؛ استراتيجية «كامب ديفيد». في حين تقف الاطراف الانتخابية الاخرى (ريغان واندرسون اساسا) في مواقع الضغط الشديد على الادارة الديمقراطية في المزايدة على تأييد اسرائيل وانتقاد «كامب ديفيد» باعتباره سياسة ضارة بأمن اسرائيل؛ اذ انه لم يؤد الى النتائج التي علقت عليه.

رابعا – ان مسألة الشرق الاوسط اصبحت تعني، في حيز كبير منها بالنسبة للناخبين الاميركيين، قضية تتعلق كثيراً بالطاقة، وبالتحديد بمسألة توفر التدفق النفطي من الشرق الاوسط الى الولايات المتحدة والى حليفاتها في الغرب. فثمة ادراك متزايد، لا شك فيه، لدى الرأي العام الاميركي بوجود ربط – على الاقل لدى مجموعة من الحكام العرب، ومنهم حكام «نشيطون» – بين امكان استمرار حصول الولايات المتحدة والغرب على النفط والمواقف السياسية النظرية والعملية التي تتخذها هذه البلدان تجاه قضية الشرق الاوسط.

ولا يعني هذا العامل ان الرأي العام الاميركي يشعر بضرورة ارضاء العرب اصحاب النفط تحاشيا لحظر نفطي – مثلا – انما يعني، حتى الآن وفي النسبة الاكبر، ان الرأي العام الاميركي والغربي معني بخلق الاوضاع الملائمة لاستمرار الحصول على النفط من الشرق الاوسط، ويهتم قسم كبير منه بأن يكون لاسرائيل دور كبير في خلق هذه الاوضاع او بالاحرى الحفاظ عليها؛ الامر الذي يفسر لهم وجود ردود فعل معارضة لدى قطاعات عريضة من الرأي العام الاميركي لبرامج التوسع في اقامة القواعد العسكرية – الاميركية في الشرق الاوسط وبرامج تكثيف الحضور العسكري الاميركي في المنطقة. وكانت مثل هذه البرامج تثير، في فترة الستينات والنصف الاول من السبعينات، معارضات حادة داخل الولايات المتحدة.

فإذا قلنا ان قسما كبيرا من الرأي العام الاميركي يريد تجنب التعرض لحظر نفطي او عقوبات من اي نوع من جانب الدول النفطية، فإن هذا لا يعني ان الرأي العام الاميركي يعارض تأمين التدفق النفطي بالقوة العسكرية، وبينها قوة اسرائيل «المجربة من قبل في المنطقة».

خامسا – ان فترة انتخابات الرئاسة الاميركية توافقت مع فترة نشاط اوروبي غربي اعاد الى الاجواء احاديث «المبادرة الاوروبية» التي تتراوح منذ سنتين بين ان تأتي او لا تأتي، بين ان تكون في اطار «كامب ديفيد» ومكملة له – او حتى منقذه له، او ان تكون اوروبية خالصة تتجاوز «كامب ديفيد» (اي تتجاوز واشنطن) وتتجه للعب دورها تحت مظلة قرب اوروبا الغربية من الشرق الاوسط ومن المصالح العربية.

ومن الواضح ان حالة «الشلل الانتخابي» الاميركي تجاه اسرائيل حرصا على «الصوت

اليهودي» شكلت فرصة لاعادة احياء مشروع المبادرة الاوروبية، وتحول هذا بدوره الى جزء من مخاوف المرشحين الاميركيين وانتقاداتهم المتبادلة حول احتمال فقدان الولايات المتحدة المبادرة في شأن هذه القضية. فإزاء شعور اوروبي غربي بأن هناك فجوة سببتها انتخابات الرئاسة الاميركية في دائرة الاهتمام بايجاد حل - يصون المصالح الغربية - في الشرق الاوسط، هناك شعور اميركي بضرورة التأكيد على ان الولايات المتحدة هي وحدها التي تملك نتائج هذا الحل التي تتمثل في علاقاتها مع طرفي الصراع وفي اعتماد احد الطرفين (اسرائيل) اعتماداً شبه كلي على الولايات المتحدة، اقتصاديا وتسليحياً ودبلوماسيا كذلك، علما ان هذه العوامل كلها تسير باتجاه تفسير تأثيرات انتخابات الرئاسة الاميركية على تناول مسألة الشرق الاوسط. ولكن تطورات الاسابيع الاخيرة كشفت عن محاولة من جانب اطراف «كامب ديفيد» الشرق اوسطية (القاهرة وتل ابيب) للتأثير في نتيجة انتخابات الرئاسة الاميركية، وبتعبير ادق، كشفت عن استخدام الادارة الاميركية الحالية، التي تمثل مرشح الحزب الديمقراطي للرئاسة، لاستخدام شريكيها في «كامب ديفيد» استخداما مباشرا لدعم فرصتها الانتخابية.

ففي بداية الاسبوع الاول من شهر ايلول (سبتمبر) المنقضي، حدث نجاح فجائي لفكرة احياء محادثات الحكم الذاتي؛ اذ اعلن سول لينوفيتش، المبعوث الخاص للرئيس الاميركي كارتر، في ١٩٨٠/٩/٣ في القاهرة، ان مصر واسرائيل وافقتا على ضرورة استئناف مفاوضات الحكم الذاتي في موعد يتحدد بين الاطراف الثلاثة: مصر واسرائيل والولايات المتحدة، وقال انه ستجري مشاورات بين الدول الثلاث للاتفاق على موعد ومكان لقاء قمة ثلاثي يتم التحضير له ويضم السادات وكارتر وبيغن.

في اليوم نفسه، اعلن كارتر في مدينة «اندبندس» بولاية ميسوري - وضمن حملته الانتخابية - ان القمة الثلاثية قد تعقد هذا العام. وفهم المراقبون انه يعني انها ستعقد في اعقاب انتخابات الرئاسة التي يحل موعدها في الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) القادم. واضاف كارتر ان عملية السلام لا تزال قائمة.

وقد اثارت هذه التصريحات المفاجئة سلسلة من التساؤلات لانها جاءت بعد رفض «قاطع» للسادات لاستئناف مفاوضات الحكم الذاتي مع اسرائيل بسبب موقفها من القدس واعلانها «عاصمة موحدة ابدية» لها. كما جاءت بعد رفض مماثل من جانب بيغن لفكرة حضور مؤتمر قمة ثلاثي مع السادات وكارتر. وقد ذكرت وكالات الانباء ان «غموضا اكتنف ما قد يكون هناك من اسباب حدت بالرئيس المصري السادات الى الموافقة على استئناف المحادثات مع اسرائيل»، بعد ان كان قد اعلن، قبل شهر تقريبا، ان مصر لن تستأنف المحادثات الا اذا عدلت اسرائيل عن قرارها بخصوص ضم القدس الشرقية واعلان القدس بأكملها عاصمة موحدة لها.

ولكن في اعقاب قرار استئناف المفاوضات مباشرة كتبت صحيفة «واشنطن بوست»، الواسعة الاطلاع، تحليلا اخباريا(٩/٥) قالت فيه: «ان نجاح الرئيس كارتر الظاهري في احياء مفاوضات الحكم الذاتي الفلسطيني المجمدة قد يكون اقل اهمية بالمقاييس الدبلوماسية منه بمقاييس السياسات الداخلية الاميركية كجزء من محاولته كسب الانتخابات».

واضافت الصحيفة ان هذه هي الدلالة المباشرة لاعلان الاتفاق على استئناف المفاوضات بين مصر واسرائيل، وان ما يدل على تأكيد اهميتها لحملة كارتر الانتخابية اسراعه الى ابلاغ اجتماع لزعماء عماليين في البيت الابيض «التزام الرئيس المصري انور السادات ورئيس الوزراء الاسرائيلي مناحم بيغن التزاما عميقا بعملية كامب ديفيد للسلام».

غير ان الصحيفة لم توضح ما اذا كان مبعوث كارتر الخاص للشرق الاوسط لينوفيتش، قد اقنع السادات وبيغن، بطريقة مباشرة، بأن يمدا يد المساعدة الانتخابية للرئيس كارتر لكنها قالت ان توقيت موافقتهما على استئناف المفاوضات وعلى عقد قمة ثلاثية بعد انتخابات الرئاسة الاميركية «ما كان يمكن ان يتم في وقت افضل من هذا بالنسبة لكارتر».

وتوقعت الصحيفة ان يظهر كارتر في وضع افضل في مواجهة منافسه الجمهوري رونالد ريغان، الذي القى خطابا انتخابيا مؤيدا لاسرائيل بقوة في اليوم السابق مباشرة (٩/٤) امام المؤتمر العالمي السنوي لمنظمة «بناي بريت» الصهيونية، اتهم فيه كارتر بانتهاج سياسة متعرجة ازاء اسرائيل واهمال تأييدها، وبأنه يحاول جر منظمة التحرير الفلسطينية الى عملية السلام. ووصف ريغان منظمة التحرير بأنها «عصابة من البلطجية»، واوصى بحل ما اسماه بقضية اللاجئين عن طريق مفاوضات مباشرة بين اسرائيل والاردن.

كما هاجم ريغان سياسة كارتر في بيع الاسلحة لدول عربية، قائلا ان كارتر لم يقر بعد بأن «اسرائيل» هي احد الاصول الاستراتيجية للولايات المتحدة في الشرق الاوسط.

وقال ريغان ان القدس هي فعلا عاصمة اسرائيل ولا يمكن تجزئتها، وان حكومة كارتر اخطأت حينما لم تستخدم حق النقض (الفيتو) ضد قرار مجلس الامن الذي ادان تصويت الكنيست بشأن القدس في آب (اغسطس) الماضي.

وانتقد ريغان سياسة «كامب ديفيد» ووصف اتفاقاته بأنها وثائق مليئة بالغموض وهو ما اوصل المفاوضات المصرية - الاسرائيلية الى مأزق خطير. واضاف انه لا ينبغي ان نطلب من اسرائيل ان تسحب قواتها من الاراضي المحتلة الا اذا اثبت جيرانها رغبتهم في التفاوض.

وبطبيعة الحال، فقد حصل ريغان بعد هذا الخطاب على اكبر عاصفة تصفيق قوبل بها خلال حملته الانتخابية على حد تعبير صحيفة «لوس انجيلوس تايمز»، خاصة عندما تحدى كارتر ان يعلن السبب في انه لم يصف منظمة التحرير الفلسطينية بأنها تنظيم «ارهابي».

وبالفعل فإن كارتر اتبع اعلان ادارته عن قرب استئناف مفاوضات الحكم الذاتي بالقاء خطاب في المؤتمر الدولي السنوي لمنظمة «بناي بريت» الصهيونية في واشنطن (٩/٥) اعلن فيه انه سيواصل دعمه القوي لامن اسرائيل، اذا فاز في انتخابات الرئاسة. وقال انه لا يزال يعارض اقامة دولة فلسطينية مستقلة وانه لن يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية ولن يتفاوض معها ما لم تعترف بحق اسرائيل في الوجود.

وفيما يتعلق بالقدس، اكد كارتر انه يعرف «اهمية القدس في التاريخ اليهودي» وانه سيكفل «ان لا يتحدد مستقبلها الا بموافقة اسرائيل الكاملة».

وذكر كارتر مستمعيه اليهود بأنه اعطى اسرائيل من المساعدات العسكرية والاقتصادية اكثر مما فعل اي رئيس آخر في تاريخ الولايات المتحدة، وانه قدم اليها نصف مجموع ما حصلت عليه من مساعدات اميركية خلال ٣٢ عاما من عمرها. وشدد على ابراز دوره بوصفه «ابا عملية كامب ديفيد». وكرر تأكيده بأن قمة «كامب ديفيد» لا تزال افضل اساس للسعي الى السلام في الشرق الاوسط، وانه ينبغي ان لا يحدث تغيير في البيت الابيض. واضاف: «لا يمكنني ان اؤكد لكم اننا سنتفق وانما نحن مع كل موقف تتخذه الحكومة الاسرائيلية، ولكن مهما كانت الخلافات التي ستنشأ فإنها لن تؤثر أبدا على التزامنا بضمان أمن اسرائيل... ولن يحدث ما يسمى باعادة تقويم الدعم لاسرائيل».

ولم تنفرد «واشنطن بوست» بتحليلها لقرار استئناف المفاوضات بأنه جزء من دعم حملة كارتر الانتخابية من اجل الصوت اليهودي، بل اتجهت صحيفة «التايمز» البريطانية الاتجاه نفسه في مقال افتتاحي لها (٩/٦) بعنوان «الذهاب صوب الصوت اليهودي»، وقالت: «ان احتمال استئناف المفاوضات بين مصر واسرائيل حول الحكم الذاتي الفلسطيني يقصد به بوضوح ان يكون دعما لفرص اعادة انتخاب الرئيس كارتر في تشرين الثاني (نوفمبر)، فإن اتفاقية كامب ديفيد للسلام تبقى انجاز ادارة كارتر الرئيسي في السياسة الخارجية وينبغي رؤيتها على انها تحقق تقدما...».

واستطردت «التايمز» قائلة انه «من سوء الطالع ان محادثات السلام الشرق اوسطية قد اصبحت تسيطر عليها في هذه المرحلة الدقيقة،

لا مصالح اولئك المعنيين مباشرة، بل الاعتبارات الانتخابية في الولايات المتحدة. ومن الواضح ان مبعوث كارتر الخاص السيد لينوفيتش قد مارس ضغطا هائلا على كلا الجانبين خلال تنقله المكوكي الاخير بين القاهرة وتل - ابيب. ولكن النتيجة مصممة اساسا للتأثير على الناخبين هناك في الوطن، في اميركا، وخاصة الملايين الستة او نحو ذلك من اليهود. ان الصوت اليهودي في الولايات المتحدة - وخاصة في نيويورك المهمة - ليس عاملا جديدا في السياسات الاميركية، ولا هو بالضرورة عامل شرير. وما يسمى بالصوت العرقي لا يكون ابدا بعيدا عن اذهان المرشحين في الانتخابات... والناخبون اليهود يبدون براعة خاصة، من جانب لانهم نشيطون للغاية - خاصة في الحزب الديمقراطي - ومن جانب بسبب التبرعات للحملات الانتخابية التي تأتي من مصادر يهودية...».

وخلصت «التايمز» في هذه الافتتاحية المهمة، الى القول ان الدليل حتى الآن يشير الى ان حوالى ثلاثين بالمائة من كل المقترعين اليهود يفكرون في مساندة السيد كارتر، وهو رقم يبدو ضئيلا بالمقارنة الى نسبة الخمس والسبعين بالمائة التي صوتت لصالحه في المرة السابقة. فإذا فشل السيد كارتر في كسب ما فقده يصبح السؤال: كم من اصوات اليهود المفقودة سيذهب الى السيد ريغان، وكم للسيد اندرسون، الذي قام في تموز (يوليو) الماضي بزيارة حماسية لاقت اعلاما واسعا. ان المنافسة على هذه الاصوات حامية. والقلق الذي يساور الاخرين في العالم هو ان لا تتسبب في قول اشياء او الدخول في التزامات من جانب المرشحين من شأنها ان تدمر فاعلية الولايات المتحدة كسمسار للسلام في الشرق الاوسط.

ولخصت صحيفة «نيويورك تايمز» التفسير نفسه في عبارات مباشرة؛ اذ قالت في مقال افتتاحي (٩/٩): «اذا كنت تتساءل الان عما يجري بين ثلاثي كامب ديفيد، فالاجابة هي: ليس بالكثير. ذلك ان جيمي كارتر في حاجة الى تذكير الناخبين - خاصة الناخبين اليهود الذين يشكون في ثبات تأييده لاسرائيل - بدوره في صنع السلام بين مصر واسرائيل، وتوجيه المبالغ الضخمة من المعونة الاميركية اليهما. اما مناحيم بيغن وانور السادات فمن الواضح انهما يرغبان في الوقوف الى جانب رئيس ساعدهما على احتلال مكان في التاريخ، وهو رئيس قد يبقى في منصبه - على اية حال - لاربع سنوات اخرى».

ولعل السؤال الرئيسي الذي يمكن ان ينشأ عن هذه التفاعلات الشرق اوسطية في انتخابات الرئاسة الاميركية هو: هل مصير «كامب ديفيد» مؤكد النجاح اذا اعيد انتخاب كارتر، وهل هو مهدد بالانهيار التام اذا اخفق كارتر ونجح اي من ريغان او اندرسون؟

والواقع انه ليس من اجابة محددة لمثل هذا السؤال سوى انتظار النتائج واستقراء تجربة الماضي. ومن استقراء تجربة الماضي يمكن ان نؤكد ان رئيسا جديدا للولايات المتحدة - ايا كان انتماؤه الحزبي - لن يحول دفة السياسة الاميركية بأية زاوية حادة عما سارت فيه في عهد الادارة التي سبقته. واذا كان هذا ينطبق على كل السياسات الاميركية الخارجية والداخلية، فإنه ينطبق بشكل خاص على السياسة الاميركية تجاه الشرق الاوسط، باعتبار ان اسرائيل تشكل احد الثوابت الاساسية في الاستراتيجية الاميركية لهذه المنطقة. ولا يمكن الزعم بأن «كامب ديفيد» غير من هذا الوضع، كما لا يمكن القول بأن انهيار كامب ديفيد يمكن ان يغيره.

واستقراء الحملة الانتخابية الاميركية الحالية نفسها انما يوصل الى النتيجة نفسها التي لخصتها صحيفة «نيويورك تايمز» (٩/٩) في قولها:

«الحقيقة ان المرشحين الثلاثة للرئاسة الاميركية ملتزمون باتفاقات كامب ديفيد والسعي وراء السبل الكفيلة بمد نطاقها على الضفة الغربية. كما انهم تعهدوا جميعا بعدم اشراك الفلسطينيين في عملية السلام الا اذا وافقوا على السلام مع اسرائيل. وهم جميعا يعلمون ان اعطاء مكان الصدارة في جدول الاعمال لوضعية القدس امر من شأنه ان يدمر المفاوضات. وربما كانوا جميعا متيقنين - كذلك - من انه لن يحدث شيء ذو شأن؛ ليس فقط بعد انتهاء

الانتخابات الاميركية، ولكن ايضا الى ان يجري الاسرائيليون انتخاباتهم في العام القادم».

وربما كانت مجلة «الايكونوميست» البريطانية اقل قطعية في معلوماتها عن «تعهدات» المرشحين الثلاثة، اذ قالت (٩/٦):

«اذا اعيد انتخاب الرئيس كارتر فإنه قد يعود سريعا بدرجة كافية الى مسائل الشرق الاوسط. اما اذا انتخب المحافظ ريغان فإن النتيجة — في افضل الاحوال — ستكون فترة جمود لعدة اشهر...».

ونستطيع ان نضيف ان شيئا لن يختلف اذا سقط كارتر وريغان على السواء، ونجح اندرسون.

لقد بقي من الآن شهر واحد على موعد انتخابات الرئاسة الاميركية، والصورة الحالية لمواقع المرشحين الثلاثة تؤكد ان كلاً منهم يولي اهتماما اكبر بأصوات الاقليات المرجحة، لان احدا منهم لا يأمل في ان يحقق «اكتساحا» يفوز فيه بفارق كبير في الاصوات. لذا فإن ثلاثتهم مهتمون ليس فقط بالحصول على اصوات اليهود، بل بعدم تفتيت هذه الاصوات بينهم. فكل منهم يريدها كلها.

على ان المسألة ليست مسألة الفترة الحرجة الباقية من الحملة الانتخابية، انما في صميم البرنامج الانتخابي لكل من الحزبين الديمقراطي والجمهوري ما يؤكد ان لا مجال لاختلاف مهم بين الموقفين من اسرائيل والقضية الفلسطينية ومسألة القدس ولا من «عملية السلام» التي بدأها كارتر «الديمقراطي».

فبرنامج الحزب الديمقراطي ينص على ان الالتزام بأمن اسرائيل هو اساس كافة الجهود التي قامت بها ادارة الرئيس كارتر لاقرار السلام في الشرق الاوسط، وانه يتعين دعم امن اسرائيل بمدها باستمرار بالمساعدات العسكرية والاقتصادية، مع الامتناع عن تزويد «اعداء اسرائيل المحتملين» بأسلحة هجومية متطورة يمكن ان تهدد امنها.

كما ينص البرنامج الديمقراطي على عدم الاعتراف او التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية الا اذا اعلنت اعترافها بحق اسرائيل في الوجود وقبولها بقراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ والالتزام بوقف كافة اعمال الارهاب والعنف ضد اسرائيل.

اما فيما يتعلق بقضية القدس، فإن برنامج الحزب الديمقراطي ينص على ان تظل القدس موحدة كما ينص على الاعتراف بالوضع القائم فيها كعاصمة لاسرائيل والدعوة الى نقل سفارة الولايات المتحدة من تل - ابيب الى القدس تمشيا مع هذا الاعتراف.

ونظرة الى الفقرات المقابلة من البرنامج الانتخابي للحزب الجمهوري تكشف عن الخطوط الاساسية نفسها. فهو ينص على ان سيادة اسرائيل وامنها ووحدتها تشكل التزاما ادبيا يخدم المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة. كما ينص على ان الحزب سيعمل - في حال الفوز في الانتخابات - على تشجيع «عملية السلام» بين مصر واسرائيل ويسعى لتوسيع نطاقها لتشمل الدول العربية الاخرى التي تريد العيش في سلام مع اسرائيل.

وينص البرنامج الجمهوري على رفض اية دعوة لاشراك منظمة التحرير الفلسطينية في محاولات التسوية النهائية؛ باعتبار ان ذلك لا يتفق، في المدى البعيد، لا مع المصالح الاسرائيلية ولا مع مصالح العرب الفلسطينيين.

وفيما يتعلق بوضع القدس فإن برنامج الحزب الجمهوري يؤكد ايمان الحزب بأن القدس يجب ان تبقى مدينة موحدة مفتوحة دائماً ودون عائق امام جميع الاديان للوصول الى الاماكن المقدسة.

ولا غنى عن القول - مجددا - ان البرنامجين يعارضان بطريقة قاطعة فكرة الدولة الفلسطينية.

فهل من جدوى وراء اي ترقب وانتظار لنتيجة انتخابات ٤ تشرين الثاني (نوفمبر)؟ وهل سبق ان اختلف الديمقراطيون عن الجمهوريين منذ الاربعينات في موقفهم من فلسطين؟

**سمير كرم**

# محاور الحملة الاعلامية الصهيونية ابان انعقاد المؤتمر العالمي لعقد الامم المتحدة للمرأة في كوبنهاغن

الحملة الاعلامية المضادة التي شنتها اجهزة الاعلام الصهيونية في الدانمارك، ابان انعقاد المؤتمر العالمي لعقد الامم المتحدة للمرأة في العاصمة كوبنهاغن (١٤ - ٣٠تموز)، ارتكزت على محورين اساسيين:

اولهما بات تقليديا: ان الوفد الفلسطيني الى المؤتمر يضم ارهابيات مسؤولات عن عمليات دموية.

ثانيهما: ان مؤتمر المرأة يجب ان يناقش المسائل الحقوقية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمرأة، وان يبذل كل جهد ممكن للحيلولة دون اقحام اعماله في السياسة. وبشكل ما فإن ادخال السياسة الى المؤتمر ربط حصرا بمناقشة القرارات المتعلقة مباشرة بالشعب الفلسطيني.

محاور الحملة هذه تبلورت في اجهزة الاعلام الدانماركي، خلال الاسبوع الذي سبق افتتاح المؤتمر. وكانت عضوية ليلى خالد في الوفد الفلسطيني، وحصولها على تأشيرة لدخول الدانمارك مرتكز الحملة على الصعيد الاول؛ الى جانب «نبش» بعض القصص القديمة او اعادة تركيب قصص جديدة حول عمليات «ارهابية» محتملة او مخطط لها في الدول الاسكندنافية.

وقد تولت المنظمات الصهيونية في الدانمارك مهمة القيام بحملة واسعة لدفع الرأي العام الدانماركي على اتخاذ مواقف عدائية من المؤتمر ككل، في حال موافقته على مشاريع القرارات الفلسطينية. ولقد تضمنت الحملة نشر عدد كبير من المقالات في الصحف، وجمع التواقيع على بيان مضاد للاقتراحات المعروضة على المؤتمر. وتم تتويج هذه الحملة بمظاهرة كبيرة نسبيا، اشتركت فيها المنظمات الصهيونية والاحزاب اليمينية الدانماركية، وقفت على ابواب قاعة المؤتمر تحت شعار: «حق اسرائيل في الوجود».

وكان للحملة الصهيونية التي سبقت انعقاد المؤتمر آثار واضحة؛ اذ ان وزيرة الثقافة الدانماركية (رئيسة المؤتمر) ظهرت في اكثر من مناسبة على شاشة التلفزيون، لتعلن انها ستبذل كل جهد ممكن للحيلولة دون تسييس المؤتمر، وان الدانمارك، مع سائر الدول الغربية، لا يمكن ابدا ان توافق على ادانة الصهيونية.

تبريرات عدم تسييس المؤتمر، او بشكل ادق عدم مناقشة القرارات الفلسطينية، كانت تتفاوت بذكائها. والنسخة الاكثر فجاجة كانت تقول ان اوضاع المرأة الاجتماعية والاقتصادية وواجبات تطويرها لا علاقة لها مباشرة بالمسائل السياسية، والنسخة الاكثر ذكاءا كانت تقول ان مؤتمر المرأة ليس المكان الملائم لمناقشة قضية الشرق الاوسط

المعقدة، وان الجمعية العامة للامم المتحدة تقوم بالفعل، في الفترة ذاتها، بمناقشة هذه القضية، فلماذا التكرار؟

**تجاهل الشعار الاساسي للمؤتمر**

هذه التبريرات تتجاهل عمدا ان القرارات الفلسطينية في المؤتمر لم تكن تتجاوز اطار شعاره العام: «**المساواة والتنمية والسلم**»، وان كان بتفسير اكثر عمومية من التفسير الضيق الافق الذي قدمته الوفود الغربية، فضلا عن انها تتجاهل ان تلك القرارات تتعلق مباشرة بالوضع الاجتماعي والاقتصادي للمرأة الفلسطينية كما جاء في التقرير الخاص الذي قدمته اللجنة الاقتصادية لدول غرب آسيا.

النتيجة الاساسية للتوجه الصهيوني – الغربي هذا تبدت في ان القضية الفلسطينية طغت بالفعل على المؤتمر بكامله. اما قضايا حركات التحرر العالمية الاخرى والشعوب التي تعاني من تعسف الانظمة الفاشية، فكانت دائما في الظل مقارنة بالقضية الفلسطينية، الى جانب دفع بعض المشاكل الاجتماعية والاقتصادية المباشرة لنساء العالم الثالث الى خلفية الصورة. من جهة اخرى، فإن وفودا عديدة شعرت بثقل الضغوطات الاقتصادية التي مارستها الدول الغربية في مقابل الموضوع الفلسطيني. كل هذا كان بهدف خلق فجوة – نفسية على الاقل – في صفوف مجموعة العالم الثالث، وتصوير القضية الفلسطينية بأنها عبء وان الدول الغربية تحصد مكاسبها، في حين تدفع بقية دول العالم الثالث ثمنها. الوفد الفلسطيني لم يكن بطبيعة الحال مسؤولا عن الاستياء الذي ساد. ولا شك في انه نجح، الى درجة ما، في احباط الخطة الغربية هذه مع عدد من الدول الافريقية، وذلك حين عمل على ربط النضال ضد الصهيونية مباشرة بنضال حركات التحرر ضد نظام جنوب افريقيا العنصري.

والقرارات الفلسطينية كانت متعددة، الا ان الضجة الاعلامية تركزت على قرارين: اولهما ينص على ان يتم انفاق المعونات التي تقدمها مؤسسات هيئة الامم المتحدة الى المرأة الفلسطينية عبر (عدِّلت لاحقا الى بالتشاور مع) منظمة التحرير الفلسطينية؛ ثانيهما مشروع القرار التالي نصه:

«بدون سلام واستقرار لا يمكن ان يكون هناك تنمية. السلم اذن شرط ضروري مبدئي للتنمية. السلام ايضا لا يمكن ان يكون دائما دون تنمية ودون القضاء على عدم المساواة والتمييز على كل المستويات. ان المساواة في المساهمة بتطوير العلاقات الصديقة والتعاون بين الدول ستساهم في تعزيز السلام وفي تطوير النساء انفسهن وفي المساواة بالحقوق على كل المستويات وفي كل مجالات الحياة، بالاضافة الى مساهمتها في النضال للقضاء على الامبريالية والاستعمار والاستعمار الجديد والصهيونية والعنصرية والتمييز العنصري والابارثيد والهيمنة والاحتلال الاجنبي والسيطرة والاضطهاد، بالاضافة الى الاحترام التام لكرامة الشعوب وحقها بتقرير المصير والاستقلال بدون تدخل اجنبي او تدخل، ولتعزيز الضمانات للحريات الاساسية وحقوق الانسان».

ولم تر الوفود الغربية في المؤتمر سوى كلمة «الصهيونية» الواردة في القرار اعلاه. حتى ان اربعة منها (وفود اسرائيل واميركا واستراليا وكندا) استخدمت هذه الكلمة حجة لعدم موافقتها على برنامج العمل بكامله، وهو البرنامج الذي عملت مختلف منظمات الامم المتحدة على صياغته خلال السنوات المنصرمة، والذي عمل المؤتمر على مناقشته خلال ١٧ يوما. اما بقية الدول الغربية فحجبت اصواتها، في حين منحته ٩٤ دولة موافقتها.

الاعلام الدانماركي، ايضا، لم يكن اقوى نظرا. فصبيحة اليوم التالي لانتهاء المؤتمر كان عنوان كبرى صحف الدانمارك: «**مؤتمر الامم المتحدة يقول: اليهود عنصريون**»، وتابعت الحملة مسارها مرتكزة على ان المؤتمر ساوى بين الصهيونية والعنصرية. وبغض النظر عن صحة هذه المساواة او عدمها، فإن احدا – عدا صحيفة الحزب الشيوعي – لم يكلف نفسه عناء قراءة نص القرار المتخذ.

**هزيمة الوفود الغربية**

ان الهزيمة التي حاقت بالوفود الغربية في المؤتمر كانت جلية. وقد عبر عنها الوفد الاميركي في مؤتمره الصحافي، عقب جلسة التصويت، بقوله: «لقد خسرنا معركة ولم نخسر الحرب بعد». وقالت وزيرة الثقافة الدانماركية، في مؤتمر صحافي في آخر ايام المؤتمر، انها تعلمت ان السياسة لا يمكن عزلها عن القضايا الاجتماعية والاقتصادية للمرأة في دول العالم الثالث. على ان هذا لم يمنعها من محاولة تمرير اقتراح اسرائيلي يقول بالتصويت على كلمة «صهيونية» فقط، عوضا عن التصويت على الفقرة بكاملها، وذلك دون الاخذ برأي المؤتمر، حتى انه لم يحل دونها ودون التعبير عن امتعاضها واسفها العميق للنتيجة التي توصل اليها المؤتمر.

الخطوط العامة للحملة الاعلامية على المؤتمر، عقب انتهائه، تتبدى في المقابلة التي نشرتها صحيفة «بولتيكن» اليومية، والتي اجراها رئيس تحريرها (الاسرائيلي - الصهيوني) مع منسق الوفد الاسرائيلي. والجدير بالملاحظة، قبل تقديم الترجمة الحرفية للمقابلة، ان الوفد الاسرائيلي دأب، خلال انعقاد المؤتمر، على اظهار امتعاضه المستمر من الوفود الغربية لعدم اتخاذها مواقف اكثر عدوانية مما فعلت. ومن ناحية ثانية، فإن الوفد الاسرائيلي، الذي كان مدعوما من عدد كبير من الصهيونيين الذين جاؤوا من الدانمارك والولايات المتحدة غالبا باسم «منظمات غير حكومية»، عمل طوال المؤتمر على اثارة مواضيع ما سمي باضطهاد المرأة اليهودية في الدول العربية وجمهوريات الاتحاد السوفياتي، واجراء موازنة بين اللاجئين الفلسطينيين ويهود الدول العربية في اسرائيل. ولقد شهدت قاعات المؤتمر البديل مماحكات وزعيق وتشنجات صهيونية تتناقض بشكل صارخ مع صورة اليهودي «الديمقراطي - المتحضر - العقلاني» التي عمل الاعلام الصهيوني على بنائها حجرا فحجرا خلال السنوات الطويلة الماضية. على ان هذا لا يعني ان كامل الحملة الصهيونية كان على ذات الدرجة من الغباء. والبيان الذي اصدرته جمعية الموسويين في الدانمارك (جمعية دينية للطائفة اليهودية) والذي نشر على نطاق واسع شمل غالبية الصحف اليومية، هذا البيان يفي بالغرض هنا. يقول البيان - الاعلان:

«من اجل حق اسرائيل بالحياة

« ● سيتخذ مؤتمر الامم المتحدة قرارا حول اقتراح ينص على ان تذهب كل المساعدات المقدمة للمرأة الفلسطينية الى م.ت.ف.

« ● لقد ادعى، ممثلو م.ت.ف. في المؤتمر مرارا، ان هدفهم هو سحق الدولة العبرية - اسرائيل.

« ● ان كبرى منظمات م.ت.ف.، «فتح»، اتخذت قرارا في مؤتمرها الاخير في دمشق، ينص على اصرارها على متابعة وتعزيز قتالها لسحق اسرائيل.

« ● اننا نؤيد الاهداف العامة لمؤتمر الامم المتحدة للمرأة، والتي ترمي الى تعزيز تحرر المرأة والتنمية في انحاء العالم.

« ● نحن نعتقد بأن المرأة الفلسطينية، حالها كحال المرأة الاسرائيلية، يجب ان تحصل على دعم لطموحها لتحقيق شروط افضل لعائلتها ولها نفسها.

« ● الا اننا نحتج، على اية حال، على ان تذهب الاموال المخصصة من الامم المتحدة لتمويل مشاريع لمساعدة المرأة الفلسطينية الى م.ت.ف. كما يقول الاقتراح المقدم الى المؤتمر.

« ● نحن نخشى ان لا تنفق هذه الاموال او تستخدم لصالح المرأة الفلسطينية، بل لتمويل صراع م.ت.ف. المستمر مع الدولة اليهودية.

« ● نحن نعتقد انه لا يجب الاعتراف بـ م.ت.ف. سياسيا، ولا دعمها اقتصاديا، قبل ان توقف هذه المنظمة قتالها ضد اسرائيل، وقبل ان تعترف بحق الدولة اليهودية في الوجود بسلام».

وفيما يلي ما كتبه هربرت بوندك في صحيفة «بولتيكن» الدانمركية:

**صحيفة بولتيكن الدانماركية اليومية:**
**٣١ تموز ١٩٨٠**

## اسرائيل هي الخاسر الاكبر في مؤتمر المرأة

**بقلم: هربرت بوندك**

اسرائيل كانت الخاسر الاكبر في مؤتمر الامم المتحدة للمرأة الذي اختتم اعماله صباح اليوم في «بيلا سنتر» عقب ١٧ يوما من المناقشات الرسمية وبضع سنوات من الاعداد.

افاديا صوفر هو الرجل الذي نسق النشاطات الدبلوماسية للوفد الاسرائيلي في المؤتمر. وقد عمل صوفر مع قضايا الامم المتحدة نحو عشرة اعوام ؛ سبعة منها قضاها كسفير في الوفد الاسرائيلي في مركز الامم المتحدة في نيويورك، وهو يشغل حاليا مركز رئيس مكتب الامم المتحدة في وزارة الخارجية في القدس.

لقد كان بامكان صوفر اختيار واحد او اكثر من الاعمال الاقل ارهاقا. فقد ولد في بغداد/العراق منذ ٤٥ عاما، وحضر الى اسرائيل كلاجيء في العام ١٩٥٠، وهو حائز على ثلاث درجات علمية في الاقتصاد السياسي والدراسات الشرقية والعلوم الهندسية. كما حصل على شهادة دكتوراه من الولايات المتحدة.

له عينان زرقاوان، مثل العديد من اقرانه يهود العراق، تبدوان متعبتين قليلا بعد ١٧ يوما من الجهد المستمر لتوضيح قضية اسرائيل لمئات الوفود؛ الوفود التي تهز رأسها موافقة على تفسيراته، الا انها تذهب فيما بعد وتعطي، اصواتها تأييدا للسياسة العربية المعادية لاسرائيل.

عقب انتهاء مؤتمر المرأة سيذهب الى باريس ليتابع هناك صراعه غير المجدي في مؤتمر آخر للامم المتحدة – اليونسكو.

### التجربة الاسوأ

صوفر عرف شيئا عن كل شيء خلال تجربته في الامم المتحدة، فاسرائيل غالبا ما تمثل اقلية لا يزيد عددها عن دولة واحدة عندما يتقابل ممثلو ١٥١ دولة في العالم. على ان صوفر قال ان مؤتمر الامم المتحدة للمرأة كان واحدا من اسوأ تجاربه:

– «من وجهة نظر دولتي، سارت الامور في كوبنهاغن بشكل اكثر سوءا مما كانت عليه في المكسيك قبل خمسة اعوام.

– «ما هو الفرق؟

– «ان مفهوم الصهيونية تساوى الآن مع العنصرية وبقية شرور العالم.

«هذه المعادلة منصوص عليها الآن في برنامج العمل الذي وافق عليه مؤتمر كوبنهاغن. في المكسيك كنا قد نجحنا في تجنب هذا.

– «ولكن، اي فرق يعكسه هذا على اسرائيل نفسها؟

– «الصهيونية هي ايديولوجية حركة الاستقلال الوطني لليهود. ان ادانتها تعني ادانة ارضية الدولة اليهودية. ولهذا الامر دلالة نفسية كبيرة في كل مرة يتكرر فيها. اذا ما نجحت الدول العربية في البداية في نشر الانطباع بأننا عنصريون، اي اعداء الشعوب، عديمو الانسانية، لن يصعب اتخاذ الخطوة اللاحقة، لانه من العدل تماما معاقبة العنصريين وتصفيتهم .

### التراجع الغربي

– «لماذا سارت الامور على هذا الشكل السيىء في كوبنهاغن؟

– «لان العالم الغربي في تراجع والعالم العربي في الهجوم. الغرب تنقصه قيادة؛ تنقصه الاهداف؛ انه مثقل بعقد الذنب وشعور بالعجز. العرب يعرفون ماذا يريدون. انني اقشعر عندما اتذكر بؤس استخدام العالم الغربي للفرص التي وجدت في نهاية المؤتمر لفرض تسوية ما.

– «من كان على رأس الحملة ضد الغرب؟

– «الهند، لقد لعبت لعبة الاتحاد السوفياتي. العراق ومنظمة التحرير قادا المعسكر العربي. لقد خططوا استراتيجيتهم قبل مدة من المؤتمر،

ونفذوها بشكل دقيق على امتداد ايامه، ولقد توجت بالنجاح.

– «ماذا كان بامكان الغرب ان يفعل؟ انهم في النهاية عاجزون عن جمع عدد من الاصوات كاف لمعادلة كفة مجموعة الـ ٧٧ التي تضم دول العالم الثالث.

– «كلما كان سلوك الغرب ضعيفا حصل على اصوات اقل. عدة دول افريقية واميركية لاتينية كانت منزعجة من العرب في بداية المؤتمر. هذه الدول شعرت بأنه يساء استخدامها لتأييد سياسة لا تأثير لهم عليها، ولقد كانت تبحث عن تسوية حتى تؤيدها.

«هذه الدول لم تكن منزعجة فقط، لكنها ايضا كانت تخشى حدوث رد فعل ممكن من الولايات المتحدة. الولايات المتحدة هي التي تدفع في النهاية الجزء الاكبر من ميزانية التنمية التي تحدث مؤتمر المرأة عنها كثيرا.

«ولكن الولايات المتحدة لم تتصرف كقائد. ممثلو الدول التسع (السوق الاوروبية) احنوا رؤوسهم. وهكذا «أكل» العرب والاتحاد السوفياتي المؤتمر. الطرفان لم تكن لهما اهداف متطابقة، لكنهما اتفقوا على اقتسام الغنيمة .

## ظهور متواضع

– «لماذا يسعى العرب للسيطرة على مؤتمر المرأة ودفعه لتناول اسرائيل اكثر من تناول مشاكل النساء؟

– «لقد باتت حربهم ضدنا جزءا من ايديولوجيتهم. وهذا هو الحال في كل المؤتمرات الدولية.

– «الولايات المتحدة والدول الغربية طلبت من اسرائيل، في بداية المؤتمر، ان تحتفظ بظهور متواضع، هل استفادت اسرائيل من ذلك؟

– «ابدا. لم ننسحب من القاعة اثناء تكلم الوفود العربية. عقدنا مؤتمرين صحافيين فقط اولهما عقب عشرة ايام من بداية المؤتمر. لقد التزمنا بالنصيحة، ومع ذلك «دحل» ممثلو الدول العربية كل مشاريع التسوية الغربية. امس رغبت في الحديث امام «لجنة الكلّ» للدفاع عن اسرائيل اثر هجمات كالمطر. الاميركيون وعدوا باعطائي وقتاً للكلام اذا ما انتظرت لنهاية الجلسة. هذا ما فعلته. ولكنني لم احصل على حق الكلام، فلقد اغلق الرئيس الاجتماع فجأة.

– «ماذا تقول الوفود الغربية حول مثل هذه المعاملة؟

– «جاؤوا في اليوم التالي وقالوا: لقد كان من حسن الحظ انك لم تتحدث في الامس، لان العرب عندها كانوا قد طالبوا بالتصويت، وهو ما سيقضي على كل مشاريع التسوية الجميلة التي لم تتحقق في النهاية. الضحية يجب ان تصمت، لان ضجتها يمكن ان تزعج ذوي الاحاسيس المرهفة.

## عنصر مزعج

– «ولكن، الا يبالغ العرب في اللعب بأوراقهم؟

– «لا اعتقد ذلك. بل على العكس، ان الدول الغربية باتت، اكثر فأكثر، تعتبر اسرائيل عنصرا مزعجا في السياسة الدولية. معظم الوفود، بغض النظر عن دولها، كانت ترغب بالخروج ببرنامج عمل من مؤتمر كوبنهاغن، بالتالي على اسرائيل ان تتنازل. الناس يقولون: لا تأخذ امر الادانة على محمل الجد، ما دام المؤتمر لن ينفرط عقده. هذا ما يرددونه، وهذا ما يريدون مني الموافقة عليه.

– «هل تعتقد ان النتائج كانت ستختلف فيما لو لم تتبع الحكومة الاسرائيلية، تحت قيادة بيغن، سياسة ادت الى كل هذا النقد على الصعيد الدولي؟

– «عدوانية العرب ليس لها علاقة بسياسة اسرائيل. انهم يقاتلوننا لاننا هناك، ولقد هددونا بالفناء حتى قبل ان نحصل على دولتنا، ولقد قاتلونا حتى قبل ان نهزم الاراضي الجديدة في عام ١٩٦٧، وسوف يتابعون صراعهم ضدنا بغض النظر عن المكان الذي ستكون عليه حدودنا».

هكذا اختتم خاسر مؤتمر المرأة حديثه.

**نعمان كنفاني**

صدر حديثاً

عن مركز الابحاث

**الفكر السياسي الفلسطيني**

**١٩٦٤ ـ ١٩٧٤**

دراسات للمواثيق الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية

**تأليف**

**فيصل حوراني**

٢٥٠ صفحة — الثمن ١٣ ل.ل.

---

صدر حديثا

عن مركز الابحاث

القضية الفلسطينية في إيديولوجية

البورجوازية اللبنانية

مدخل الى نقض الفكر الطائفي

تأليف

مهدي عامل

٢٥٤ صفحة — الثمن ١٣ ل.ل.

---

صدر حديثاً

عن مركز الابحاث

**تاريخ الطبقة العاملة الفلسطينية**

**١٩١٨ ـ ١٩٤٨**

**تأليف**

**عبد القادر ياسين**

٢٩٦ صفحة — الثمن ١٥ ل.ل.

**صدر حديثاً**

**عن مركز الابحاث**

**المجلد الحادي والعشرون من «اليوميات الفلسطينية»**، الذي يسجل الاحداث المتصلة بالقضية الفلسطينية والصراع العربي ـ الصهيوني، بين ١/١/١٩٧٥ و٣٠/٦/١٩٧٥.

**«رصد اذاعة اسرائيل»**

نشرة استماع يومية ترصد ما يبث من أخبار وتعليقات عبر الاذاعة والتلفزيون الاسرائيليين، بالاضافة الى ما تبثه اذاعة الجيش الاسرائيلي.

تصدر عن مركز الابحاث في م.ت.ف.، وترسل الى المشتركين فقط.

قيمة الاشتراك السنوي: ٥٠٠ ليرة لبنانية، عدا اجور البريد.

ترسل طلبات الاشتراك الى: مركز الابحاث، م.ت.ف.، ص.ب. ١٦٩١، بيروت ـ لبنان.

ترسل قيمة الاشتراك الى حساب مركز الابحاث لدى البنك العربي ـ فرع رأس بيروت، برقم ١٣٣٧.

# Palestine Affairs

No. 107, October, 1980.

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon ( Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

*Editor :* Mahmoud Darwish

*Annual Subscription*

Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ( $ 24 ) ; other Arab countries - L. L. 75 ( $ 30 ) ; Europe - L. L. 100 ( $ 40 ) ; elsewhere - L. L.125 ( $ 50 ) .

Surface Mail : L. L. 65 ( $ 26 ) .

الثمن : ٥ ل.ل. في لبنان
٦ ل.س. في سوريا
٦٥٠ فلسًا في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولة الإمارات العربية
٦ ل.ل. في سائر الأقطار العربية
٧٥٠ درهمًا في ج.ع.ل
٧٥٠ درهمًا في المغرب